خيري الذهبي

التحديق على الرصيف

رشيد الخيري
سحر وتعاويذ علاء بن

التدريب على الركب

تأليف: خيري الذهبي

حقوق النشر محفوظة للمؤلف

الناشر: دار كنعان
للدراسات والنشر والتوزيع

دمشق – ص.ب 443 هاتف: 2134433 (11 - 963 +)

فاكس: 3314455 – 2134433 (11 963 +)

E-mail: said.b@scs-net.org

الطبعة الأولى 2003 / 1000

التنفيذ : دار كنعان (دمشق)

إخراج: لبنى حمد

يمكن الاطلاع على كتب الدار ومنشوراتها على صفحة الشبكة التالية:

http://www.furat.com

خيري الذهبي

التدريب على الرعب

التدريب على الرعب

«انتصرت بالرعب مسيرة شهرين يوماً»

في موسوعته التاريخية الكبيرة يحدثنا ابن الأثير عن غزو المغول للشرق، للعالم الإسلامي، فيحدث عن الذعر الذي أصاب الناس بعد سقوط بغداد وانتشار الخبر في العالم العربي الإسلامي، انتشار الخبر وتضخمه وتكبيره وتبهيره فيقول: حين فتح هولاكو ميافارقين ـ وهي مدينة في جنوب شرق تركيا المعاصرة ـ وذبح الناس وهرب الناس وذعر الناس فتذكرى سقوط بغداد، بغداد الأسطورة، وبغداد الرشيد، وبغداد بني العباس ما تزال طازجة في القلب والذهن والعقل.

يقول ابن الأثير وهو يستغفر ويسترحم ويتمنى لو أن بطن الأرض ضمه فلم يعش ليشهد مأساة كهذه: وكان تتري سكران قصير أعزل يمشي في ميافارقين المهزومة المستسلمة فطرق باب مسجد فوجده مشحوناً بالرجال المذعورين المهزومين المرتجفين المستسلمين لقدرهم. نظر إليهم. وكانوا عشرات او مئات. المهم أن المسجد كان مشحوناً بهم وكان في عودته من السكر أعزل، فصرخ بهم التتري. فركعوا يطلبون الرحمة، فأمرهم بالاستلقاء ليذبحهم فاستلقوا يستعدون للذبح. بحث عن سكين، سيف، نصل، فلم يجد. فأمرهم بالبقاء هكذا مستلقين حتى يعود بالسلاح، ويقول ابن الأثير: المرعب المؤسي، ممزق القلب أنهم ظلوا مستلقين على الأرض لم يحاولوا الدفاع، لم يحاولوا الهرب، لم يحاولوا شيئاً ينتظرون عودة ذابحهم ومعه سلاح الذبح.

من المشاهد المرعبة التي ما تزال تؤرقني مشهد بائع الدجاج الحي.

غرفة مليئة بالدجاج يأكل ويشرب، يدخل الزبون إلى حيث الدجاج السارح قرب معالفه، يرى الدجاج الزبون بكفيه المشرعتين للقبض عليه يبدأ الدجاج بالذعر، بالقوقأة، بالهرب، بالصراخ، ولكن الكفين القويتين سرعان ما تقبضان على واحدة منها، تعطيها للحام، تقبض على ثانية بعد صراخ وقوقأة وهرب وذعر، اللحام يذبح الفروج، يضعه في النتافة.

الزبون ينسحب، الدجاج يتوقف عن القوقأة، ينحني على طعامه الملوث، يأكل، ينسى صراخ الدجاجة الذبيحة، تعود الأمور إلى طبيعتها، الدجاج يأكل، الهدوء يحل في انتظار زبون جديد، آكف قوية جديدة، قوقأة جديدة، ذبح جديد، هدوء جديد مع فرح خفي: الحمد لله لقد نجوت هذه المرة!

في عام النكبة حدثونا عن مذبحة دير ياسين فاقشعرت أبداننا وصرخنا، وقوقأنا، وأقسمنا على الثأر، ثم ابتعدت اليد الملوثة بالدم قليلاً فصمتنا عن القوقأة، ثم غرقنا في معالفنا ومناكحنا، وكل منا يتمتم بينه وبين نفسه: الحمد لله لقد نجوت هذه المرة.

ثم كانت مجازر قبية وكفر قاسم فقوقأنا قليلاً، وكتبنا بعض قصائد، وألقينا بعض الخطابات وسجلنا بعض الأقسام بأننا سنثأر وننتقم و... ثم انحنت رؤوسنا فوق معالفنا وهمهمنا في سعادة سرية: الحمد لله، لقد نجونا هذه المرة.

وهكذا أخذت النكبات والمذابح والمجازر تتوالى، تتتالى، تتكرر واليد الدموية تزداد تعطشاً للدم، واللاجئون إلى الجامع يزدادون ارتجافاً وضعة، والتتري الأعزل ينظر إليهم في احتقار: انتظروني في مذابحكم حتى أمضي وأحضر السكين لأذبحكم.

أتساءل والهم يذبحني. ما الذي حصل لهؤلاء الناس. ما الذي جعلهم يستسلمون لجلاديهم بهذه القدرية. ما الذي يمنعهم من أن يرفعوا أيديهم ليبعدوا السكين. ما الذي منعهم أن يفعلوا كما يفعل ديك ريفي لم يرب في المداجن فيقفز في وجه ذابحه وينقره في وجهه، في عينه. صحيح أنه لن يستطيع قتله هذه المرة، ولكنه سيجعله يتحاشاه قليلاً. ولربما احترمه فأطلق سراحه، وإذا كان لابد من ذبحه فسيذبحه باحترام.

الذابحون في صبرا وشاتيلا، الذابحون الأسرى في سيناء. أولئك الذين أمروا دجاجاتهم بحفر قبورهم بأيديهم قبل ذبحهم.. يا إلهي.. ما الذي حصل لهؤلاء الناس فجعلهم لا يحاولون حتى نقر عدوهم القادم لذبحهم. أي رعب، أي استسلام. أي تدريب طويل تم بينهم وبين حكامهم، جلاديهم لسنوات، لعقود لقرون، أجبروا فيها على الانحناء. على التسليم، على الإيمان بحق الحاكم - المملوك - الجلاد، بالحياة والموت ولاحق لك بالمقابل إلا أن تقوقئ قليلاً عارفاً أن القوقأة صرختك الأخيرة، وأنك كنت تتمنى لو لم حتى تقوقئ فتزعج الذابح بصراخك.

يا أمة من دجاج المداجن لم يلقحها ديك بري فتدفع عنها الذبح بنقرة، يا أمة تسمع بقوقأة الدجاج المذبوح في المزرب المجاور ولا تفعل إلا أن تهمهم: الحمد لله أن كانت بجاري ولم تصل لي.

يا أمة تزعم الانتساب إلى حمورابي وخالد وبختنصر وأبي عبيدة متى يستيقظ فيك دم الأجداد فتتوقفين عن القوقأة وترفعين حجر الانتفاضة الأخير ولا تستسلمين لذابحك شاكرة الرب أن الذابح كان هذه المرة في المزرب المجاور.

أحمد بن محمد بن عبد الله. وهل هناك اسم أكثر شيوعاً وعامية في اللغة العربية من هذا الاسم وحتى لو أضفت إلى هذا الاسم النسبة إلى المكان، فقلت الدمشقي فأنت لن تزيده تعريفاً، بل حتى لو زدت الاسم النسبة إلى مكان الأجداد، فقلت الأنصاري فسيظل الاسم شائعاً وعامياً وقابلاً للنسيان والرجل كذلك، فمثله وجد الكثيرون، وعاش الكثيرون، ورشح الكثيرون للسقوط في ثقب النسيان.

أحمد بن محمد بن عبد الله الدمشقي الشيخ الشاب وإمام المسجد الصغير في حي صغير من أحياء دمشق يرفع الأذان، ويقيم الصلاة، ويحلم بأن يصبح مفتياً أو قاضياً أو مسؤول وقف في واحدة من مدارس البلد الغنية، فيشبع لحماً، ويكتسي جوخاً، بل وربما يركب برذونا يتبختر عليه في حارات المدينة، بل وربما شحط به الطموح يوما فحلم بأن يضع كتاباً يخلد اسمه، كتابا يشرح فيه كتاب الأم للإمام الشافعي، أو يضع فيه شرحاً لبعض أحاديث نبوية أو... الخ تلك الطموحات الصغيرة لإنسان بسيط عاش في أواخر العصر المملوكي.

أحمد بن محمد بن عبد الله استيقظ فجأة ليسمع أن لعنة الله على الأرض قد قاربت الوصول إلى الشام، رأى ذلك في وجوه التجار الممتعة، وفي اضطراب جنرالات المماليك، وفي رعب المماليك الصغار، ومضى إلى السوق، فسمع الحكايات عن تيمور وكيف دمر أصفهان وقتل أهلها. كيف دمر بغداد وقتل أهلها، كيف دمر سيواس وقتل أهلها، بل وكيف صدم سلطان الروم وكبير مقاتليهم بلدرم أو الصاعقة سلطان بني

عثمان بايزيد الذي كان قد أتم الاستيلاء على الروم إيلي أو الإمبراطورية المعاصرة، فحصر القسطنطينية بين فكي كماشته في آسيا الصغرى والبلقان وكان من الواضح أن سيستولي عليها لولا أن اقسم تيمور على حرمانه من هذه الفرحة، فانتصر عليه وأمر بنسائه وحبيبته ديسبينا بان يخدمن جنوده عاريات وبايزيد يرى ذلك من قفص حبس فيه فطوق بايزيد ومات.

اضطرب أحمد، وكان له أن يضطرب حين عرف أن تيمور قد استولى على حلب، وحماة وهاهو على أبواب دمشق، ولكن طمأنينة ما كانت تسكنه مع الحرافيش من أبناء حارته. فمنظر جنرالات المماليك بحليهم وزخارفهم وخيولهم المطهمة كان يعطيه الطمأنينة، صحيح أنه كان يعرف أن السلطان المملوك الأب برقوق قد توفي منذ أجل قصير، وأن السلطان المعاصر فرج فتى في الثالثة عشرة ما يزال، ولكن الدولة المملوكية صمدت، وحمت فيما قبل فلم لا تصمد الآن!..

المفاجأة كانت أن المدينة - دمشق - أغلقت أبوابها حين عرفت أن سلطانها فرج قد أخذ مماليكه، وهرب إلى مصر تاركاً المدينة لقدرها، عند ذلك دب الرعب في المدينة، ولكن، ومع الصباح سمع الناس قبل الأذان من ينادي على مآذن المدينة: يا نعاج المدينة افيقي، تذكري أن حتى النعاج لها قرون تستطيع لو تجمعت أن تبقر بطن الذئب. اختفى الصوت. بحث العسس عن المنادين ولا أثر لهم، وكان أشد الباحثين حماسة مفتي المدينة تقي الدين بن الحنبلي هذا الرجل الذي سنقرأ له فيما بعد كتابا اسمه (البرهان على أن مصائب الإنسان من عمل الشيطان). وكأن هنالك شيطاناً أشد أذى من الخائن لشعبه ودينه وجماعته، فابن الحنبلي هذا هو من سيذهب إلى تيمور مفاوضا ومساوماً ومبايعاً ومشارياً شريطة أن يتسلم المدينة حاكما من تيمور، ووعد خيراً ولكنه كان أول قتلى تيمور.

هذا الأذان الذي انطلق يستصرخ النعاج لاستنهاض قرونها لم

يلبث أن جعل صغار اللحامين والخبازين والمنجدين والنجارين والحدادين والرخامين والنحاتين والنساجين يتجمعون في نقاباتهم ويقررون المقاومة. وكانت الصدمة لتيمور حين رأى أبواب المدينة تنفتح وحرافيشها تدفع مهاجمة فتهزم جيشه المفاجئ وتطرده حتى الكسوة، ثم وفي اليوم التالي تهاجمه من باب آخر وتطرد جيشه حتى سمسم.

تساءل تيمور وأجابه ابن الحنبلي فابتسم الذئب العجوز، وأدرك أن النعاج تقدر على قتل الذئب حين تدافع عن صغارها، فقرر نزع العزيمة من قلبها، فادعى أنه أعجب بهؤلاء الشبان المقاتلين، ولذلك عفا عن المدينة وانه سيقبل بالفدية المالية عن المدينة.

وسقطت المدينة في فخ المساومة، فهجم التجار على الدكنجية يجمعون الإتاوة وهجم الدكنجية على الحرفيين ـ الحرافيش، وارتفعت النداءات على المآذن تدعو إلى الصمود. فتيمور الوحش مخادع، ولكن الطمع في الامان وشراء الحياة ببضعة دنانير أعمى الجميع. فجمعوا ثرواتهم التي لم تعد تكفي لسد طلبات تيمور، وحين عرف الناس أن أحمد بن محمد بن عبد الله كان على رأس المؤذنين يدعو إلى الصمود سلموه إلى تيمور والغريب أن تيمور لم يقتله، بل ضمه إلى أولئك الذين سيصحبهم إلى سمر قند لبناء الحضارة فيها.

ضمه إلى النحاتين والنحاسين والرخامين وأمهر الايدي الصناع في العالم في حينها. ضمه الى العلماء والفقهاء والشعراء والمؤرخين والمفسرين فالرجل ـ تيمور ـ كان مسلما وسمى زعيم المقاتلين والمؤذنين احمد بن محمد بن عبد الله (ابن عرب شاه) أي ابن ملك العرب.. هذا الاسم الذي سيلتصق بأحمد ويحل محله.

ابن عرب شاه مضى مع تيمور إلى سمر قند وشهد موته، وشهد تحلل الإمبراطورية التترية الجديدة. تعلم التركية والفارسية. ورجع إلى سلطنة الروم تركية المعاصرة فتقرب من السلطان وصار مترجمه و... بعد عشرين سنة رجع إلى دمشق خائفاً من رؤية الدمار. ولكنه رأى

مدينة تأبى على الفناء، مدينة تمتص غزاتها وتنتصر ... ا
استرجعت شبابها ومؤذنيها الذين لم ينسوا له نداء المقاومة الد... ا
أيام تيمور. تجمعوا حوله، وطلبوا منه أن يؤلف لهم شيئاً عن تلك الكا...
الكبيرة فكتب كتابه الذي كان يحلم بكتابته والنجاة من ثقب النسيان.
كتب عجائب المقدور في أخبار تيمور هذا الكتاب الذي يعتبر المرجع الأول والأهم عن تلك الكارثة الفظيعة، ولكنه أيضاً كان الكتاب الأهم في أن الأمم لا تموت، وأنها لا تنسى شهداءها، وأن لكل ظالم نهاية.. ولكل غزوة أفول.. وعندئذ البقاء للأمم وللذاكرة الشعبية المكرمة لأبطالها.

كان مرحاً دائماً. وكان لقاؤنا على الطريق أو في المقهى يستغرقه الضحك والقهقهات. ولكنه ما إن يفارقني ويبتعد حتى أحس الغيظ يعتلج في، فهذا نصف الأمي الذي لم يستطع الحصول على الشهادة الثانوية لكسله والذي حصل على وظيفة بالقصر العدلي بصعوبة، وبوساطات تدخلت فيها كل فروع العائلة، هذا الفتى كان يغيظنا فتياناً دائما بثيابه الأنيقة التي يونقها على طريقته، فقد كانت قمصانه نظيفة ومكوية دائما وبناطيله كانت كيتها كحد السيف دائماً. وكان معطفه لا يمكن أن تشك أبدا انه مشترى من البالة، المهم ان الرجل كان دائماً أنيقاً على طريقته الخاصة، وكنا إذا ما قورنا به أثناء سنوات دراستنا الجامعية نبدو أشبه بالأفاقين. فالقمصان تضيع كيتها بعد لبس اليوم الأول وتهدل. وتخرج من البنطلون أثناء التدافع والتمازح. والبناطيل كانت نادراً ما تراها مكوية. فمن يملك من الوقت الكفاية للاهتمام بكية البنطلون ولمعة الحذاء.. الخ.

كان يغيظنا ليس بلباسه الأنيق دائماً فحسب، بل وبقصصه الطويلة عن مغامراته النسائية والتي كنا نظن أنها سلسلة من التفاخرات وأحلام اليقظة حتى رأينا مغامراته رأي العين، فعرفنا أن الرجل كان يمتح من كنز القصر العدلي.

قال: حين أراها تلك المطلقة حديثاً، المسكينة، المنكسرة القلب، المؤمنة بأنها لابد أن فيها عيباً ما حتى هجرها زوجها السابق، ورماها للمجهول. لابد أن فيها قبحاً، أو غلظة، أو حظاً سيئاً، وحين تكون في

تلك الحالة، وهي تتردد على القصر العدلي باحثة عن عدل، أو عن طريقة تعيد إليها حريتها وكرامتها. يأتي دوري، آخذ بيدها، أنجز لها معاملاتها، أقدم لها الاحترام الكامل، الغزل الخفي، فإذا استراحت، فالغزل العلني، فالدعوات والحض على الانتقام من ذلك السافل الذي تخلى عن مثل هذا الجمال، وحين أرى القبول أكمله بدعوة على الغذاء نتفاهم فيها على الطريقة التي سننتقم فيها من ذلك السافل، وكانت في معظم الأحيان تقبل الدعوة، فهي بلا حيلة، هشة، تبحث عن استعادة لاعتبارها، وأكون راد الاعتبار.

ورد الأصدقاء: فأنت مرمم قلوب المطلقات إذن.

قال: في القصر العدلي معظم من يجيء إليه، يجيء وفي قلبه ضعف، وفي روحه أمل بصنع شيء بتغيير واقع، بالحصول على أمنية سرقها قوي.

فهناك الأرملة التي استقوى أهل المرحوم على ميراثها، وأكون موجوداً دائماً لرد الحق إلى نصابه،

وهناك البنت التي استولوا على بيت المرحوم أبيها ومعها إخوتها من الأيتام والأم العجوز الضائعة تأتي إلى القصر العدلي طالبة العدل. وأكون الموجود لأقدم العدل.

وهناك الورثة المختلفون على الأراضي والبيوت، خلافاً استمر لسنين وعقود، سنين كبرت فيها الفتيات وترملت الأمهات، وماتت الأرامل، وبين قطيع الورثة والوارثات لابد أن هناك فتاة جميلة ومتضايقة وتريد نجدة سريعة، و...أكون النجدة.

قال: كانت لحظة سعادة مطلقة لحظة هجرت التعليم وعملت في القصر العدلي.

انقضت سنوات تخرجنا فيها، ودخلنا ميادين العمل، فكان فينا من صعد وفينا من هبط، فينا من سجن، وفينا من هاجر، أما صديقنا

الموظف في القصر العدلي. فكنا لا نراه إلا وقد ازداد وسامة وأناقة وأخيراً المرسيدس.

بعد سني المرسيدس لقيته وكان الزمان قد نتف ريش القوادم والخوافي، نتف الذيل والزغب عن جلد جيلنا. أما هو فقد ازداد ريشاً حتى صار يلمع كالطاووس. قال: أنا مسافر إلى نيويورك. ونظرت إليه في دهشة:

- أنت إلى نيويورك. ولماذا؟

قال: في بضع السنين التي لم نلتق فيها كنت أتعلم الإنكليزية.

قلت: وهل كل من يتعلم الإنكليزية يمضي إلى نيويورك.

قال: أنا ماض للعمل في الأمم المتحدة.

ونظرت إليه بدهشة غير مصدقة، ولكن الأيام علمتني أن لهذا الرجل سحراً يستطيع به ان يفعل ما يشاء. فتابع: هناك ساكمل تدريبي الذي بدأته في القصر العدلي.

ولما لاحظ نظرات الدهشة المطلقة على وجهي تابع: أنت تعرف على كم من القلوب ادخلت السعادة أثناء عملي في القصر العدلي.

فقلت: السعادة إلى قلبك، أم قلوبهن.

قال: قلوبنا جميعاً، تخيل كم من المطلقات أعدت الثقة بأنفسهن إليهن. كم من الأرامل البائسات جعلتهن يخلعن ثياب الحداد ويرين العالم بعيون جديدة. كم من الورثة الذين لم يعودوا يرون الحياة إلا من خلال ذلك الميراث الذي لم يحصلوا عليه. فأريتهم أن في الحياة سعادات أخرى غير سعادة الحصول على الميراث، عزيزي. القصر العدلي في أيامي لم يقدم للناس العدل فحسب، بل قدم لهم أيضاً السعادة.

قلت: مازلت لا أفهم. ما الذي ستصنعه في الأمم المتحدة.

قال بغموض: هناك ساجد شعوباً مطلقة، وشعوباً آرامل. شعوبا فقدت الثقة بنفسها. وسأعيد إليها الثقة على طريقتها.

وتابع في جدية:

هناك شعوب كاملة من الأرامل، تذكر معي أرجنتين بيرون، أفريقيا بوكاسا.. وهناك شعوب كاملة أضاعت عمرها تسعى وراء ميراث أضاعته بإهمالها وطيشها. وسيكون علي أن أقدم لها العزاء وفتح العيون، وأن السعادة ليست فقط في الحصول على الميراث، فهناك الحياة والعشاق والتعاون والتطبيع.

وتنهد ينتصب للمضي، فأذكرني بكيبلنغ وعبء الرجل الأبيض وقال: مهمتنا صعبة وطويلة في الأمم المتحدة، ولكن أصعبها كما أعتقد هو إقناع هؤلاء العرب بفتح العيون ورؤية العالم وسعاداته بغض النظر عن الحصول على الميراث الذي يريدون الحصول عليه، ولا يريدون بذل الثمن المطلوب للحصول عليه. آه. تنهد: مهمة ممتعة على أية حال.

ستروتني كثيراً في رحلاتي المكوكية في السنين القادمة.

ومضى.. أنيقاً... سعيداً... وتركني أفكر في فاقة أيامي القادمة.

يصف ابن إياس السلطان سليم شاه عند وفاته بقوله: توفي وله من العمر نحو سبع وأربعين سنة. ووقع له من الأمور الغريبة ما لم يقع لأحد من آبائه ولا أجداده، ولا لأحد من ملوك الشرق والغرب، فقد حارب الشاه اسماعيل الصفوي ملك العراقين وهزمه، وقتل من عساكره مالا يحصى. وملك بلاده وطرده عنها. ثم تحرش بسلطان مصر، ولا زال يخادعه ويظهر له انه تحت طاعته حتى خرج اليه وحاربه، وهزمه في مرج دابق، واحتوى على (اموالة) التي كانت بقلعة حلب.

ومن الطريف أن نذكر أنه حين اراد تسلم قلعة حلب من المدافعين عنها أرسل إليهم خادماً من عنده أعور أعرج، وبيده دبوس خشب حتى يبدي ازدراءه للممالك.

ثم يكمل ابن إياس، وآتم استيلاءه على مدينة حلب والشام ومصر، ثم خطب باسمه في الديار المصرية وضربت السكة باسمه لمدة أربع سنين وخمسة أشهر، قبل أن يموت.

وأما مدة استيلائه على مملكة الروم (آسيا الصغرى والروم ايلي أي البلقان) فكانت منذ توفي والده السلطان أبو يزيد إلى الآن. أي نحو تسع سنين إلا شهراً وكان استيلاؤه على مملكة الروم في حياة والده باشهر. فإن والده أقام مريضاً ملازماً الفراش مدة طويلة، فيقال إنه عجل على أبيه وقتله لأجل الملك، ثم خنق اخاه قرقط، وقتل أخاه أحمد، وطارد ابن أخيه قاسم حتى مصر ولم يرتح حتى عرف أن خاير بيك قد قتله.

بعد انتصار سليم على قانصوه سلطن المماليك عليهم داوادار قانصوه طومان باي والذي حاول أن يدافع عن مملكة المماليك في مصر. ولكن شيخ العرب حسن بن مرعي وشكر ابن أخيه قبضا عليه هاربا وسلماه إلى سليم الذي أمر بشنقه على باب زويلة أحد أبواب القاهرة، وهكذا تغير شكل الحكم في مصر والشام فبعد أن كانتا دولة يحكمها المماليك المجلوبون من جبال القفقاس في واحدة من أغرب مشاهد التاريخ صار يحكمها الآن سليم العثماني من القسطنطينية ويقول ابن إياس: وهكذا تحولت مصر من مملكة إلى نيابة أي يحكمها نائب السلطان العثماني في القاهرة.

حين خرج ابن عثمان - سليم - من مصر خرج ومعه ألف جمل محملة ما بين ذهب وفضة، هنا خارجاً عما غنمه من التحف والسلاح والصيني والنحاس المكفت والخيول والبغال والجمال، بل نقل معه الرخام الفاخر اقتلعه من المدارس والمساجد والخانقاهات وحمله إلى اسطنبول.

وكانت مدة إقامة ابن عثمان في القاهرة ثمانية أشهر إلا أياماً حصل فيها لأهلها الضرر الشامل. وبطل منها نحو من خمسين صنعة، فلقد أرسل إلى اسطنبول مع الغنائم الحدادين والنحاسين والرخامين والرماحين والميوفيين والزجاجيين والعلماء والمثقفين والقضاة. وأخيرا بقايا الأسرة العباسية التي كانت ممثلة بالخليفة الرمز.

ثم يصف ابن إياس إقامة ابن عثمان بمصر فيقول: لم يجلس بقلعة الجبل على سرير الملك جلوساً عاماً، ولا رآه أحد، ولا أنصف مظلوماً من ظالم، بل كان مشغوفاً بلذته وسكره، وإقامته في المقياس - متنزه على النيل - بين الصبيان المرد.

وأما عسكره، فكانوا جميعاً عيونهم دنية، ونفوسهم قذرة يأكلون وهم راكبون على خيولهم في الأسواق، وعندهم عفاشة في أنفسهم زائدة وقلة دين، يتجاهرون بشرب الخمر، ولما جاء رمضان كان غالبهم لا يصلي ولا يصوم، ولا حتى صلاة الجمعة.

فيما بعد وبعد موت سليم، سيثور نائبه في دمشق جان بردي الغزالي محاولاً استعادة ملك المماليك، وكان قد خانهم أصلاً حين تحالف مع سليم ضد قانصوه، ولكنه يهزم، فيدخل الجيش العثماني دمشق ويدمرها قتلاً ونهباً وسبياً حتى ليقول ابن إياس: إن ما فعله الجيش العثماني في دمشق، كان أسوأ مما فعله تيمورلنك.

ما بين حكم المماليك الفاسد بعد أن فقد شرعيته القتالية وبين حكم العثمانيين الأشد فساداً دخل المشرق العربي في النفق المعتم الذي انفرج أخيراً بسقوط الدولة العثمانية ومجيء الحكم العربي..

صورة من صور الماضي السعيد ولا ماضي سعيد بل هو الصراع الدائم، صراع الإنسان لتحقيق جنته الأرضية. فإذا لم يكن ذلك ممكناً، فـ... الجنة في السماء.

الماضي السعيد

حين تسمع بعض الناس وهم يتحدثون عن الماضي السعيد، الماضي الذهبي، الماضي الذي كانت فيه الشاة تسرح مع الذئب، لا بد لك أن تصاب بالدهشة، وتتساءل: هل كان الماضي فعلاً ماضياً ذهبياً. وهل مسيرة الإنسان المعاصر مسيرة تراجع بالسعادة، أم أن الإنسان يعيش حياته في كل عصر حياة خليطاً من سعادة وشقاء، من انتصارات وهزائم، من عدالة ومظالم..

وحين تمعن في التساؤل وتتساءل: هل الأمم تتصرف كالأفراد. فالفرد منا حين يتحدث عن طفولته تجده وقد دخل في حالة من النوستالجيا (الحنين) فيصف طفولته منتقياً منها اجمل ما فيها، متناسياً في الآن نفسه المصاعب التي عاشها، والصفعات التي نالها، والجوع، وقسوة الأهل والظروف، يتناسى الهزائم، محولا لها إلى انتصارات في لعبة خداع نفسية هي الشكل الآخر لرفض الحاضر.

حين تصل إلى هذه القناعة يجابهك البعض مهاجماً بالحديث عن البطولات التي صنعها الأجداد والانتصارات التي حازوها، والأمجاد التي قاموا بها، ولكنك تتساءل، ولكن هذه الانتصارات كانت لمن؟ هل كانت للفقراء والضعفاء، ام كانت للقواد والزعماء وطبقة قشطة المجتمع، فهل سعد الناس، الشعب، الفقراء، أم هل نالهم شيء من انتصارات أولئك العظماء، أم أنهم كان عليهم أن يدفعوا الثمن من أموالهم ودمائهم لتخلد اسماء كل أولئك الذين خلدهم التاريخ.

أمامي الآن على طاولة القراءة كتاب بدائع الزهور في وقائع

الدهور وهو كتاب تاريخ وضعه محمد بن أحمد بن إياس الحنفي المصري وهو كتاب عن تاريخ من حكم مصر حتى نهاية عصر المماليك، أي حتى قانصوه الغوري آخر سلاطين المماليك، ثم خاير بيك أو خاين بيك كما سيسميه السلطان سليم العثماني والذي أقره على حكم مصر نائباً عنه بعد خيانته لاستاذه قانصوه الغوري وتعاونه معه على إنهاء حكم المماليك ليبدأ من ثم الحكم العثماني.

فإذا ما قرأنا ما كتب ابن إياس عن قانصوه الغوري وهو معاصره (وفي هذا الشهر جمادى الآخرة من عام 915هـ 1510م جاءت الأخبار بأن العسكر الذي توجه إلى الهند صحبة حسين المشرف قد كسرهم الفرنج (البرتغاليون) كسرة فاحشة وقتلوا العسكر عن آخره، ونهبوا ما في مراكبهم أجمعين. فتكدر السلطان لهذا الخبر).

الخبر الذي تنكد له قانصوه الغوري كان طبعاً أول هزيمة فاحشة للمماليك أمام البرتغاليين الذين اكتشفوا رأس الرجاء الصالح، وغزوا عن طريقه طرق التجارة الكبرى التي كان يحتكرها المماليك من الشرق إلى الغرب عن طريق مصر والشام.

أما اكتشاف طريق الرجاء الصالح فيعبر عنه المؤرخ بقوله: «وأخيراً أيضاً أن الفرنج كثر تعبثهم ببحر الهند، وأن حسين باش العسكر المتوجه إلى هناك يشرع في بناء أبراج على ساحل جدة وصور - غير اللبنانية - وقد جهزوا المراكب إلى الخروج إلى عدن؛ فسر السلطان لهذا الخبر.. ولكن تزايد الضرر من الفرنج ببحر الحجاز حتى بلغوا فوق العشرين مركباً، وصاروا يعبثون على مراكب تجار الهند، ويقطعون عليها الطريق في الأماكن المخيفة، ويأخذون ما معهم من البضائع حتى عزّ وجود الشاشات والأرز من مصر ومن غيرها من البلاد.

ثم يكمل مفسراً اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح: «وسبب هذه الحادثة أن الفرنج تحيلوا حتى فتحوا السد الذي صنعه الاسكندر بن فيليبس (المقدوني طبعاً) وكان هذا نقباً في جبل بين بحر الصين

وبحر الروم، فلا زال الفرنج يعبثون في ذلك النقب حتى انفتح وصارت تدخل منه المراكب إلى بحر الحجاز، وكان هذا من أكبر الفساد».

بعد اكتشاف راس الرجاء الصالح وتوقف طريق التجارة عن مصر والشام واستيلاء البرتغاليين على تجارة الهند، بدأ الفقر يبدو جلياً على البلاط المملوكي. فرأى قانصوه الغوري أن الحل يكمن في المصادرات، وهكذا بدأ يزيد في الضرائب ومصادرات كبار الإداريين والتجار حتى توقف ميناء الاسكندرية وجدة تماماً وخربت الاسكندرية بحيث لم يبق من هذه المدينة الكبيرة العامرة إلا بضعة بيوت، ويصف ابن إياس قانصوه الغوري بقوله: وكان هذا السلطان أخس خلق الله وأبخلهم على الإطلاق، ولكن سليم خان السلطان العثماني سيجد في خزائنه في حلب بعد هزيمة مرج دابق مئة مليون دينار من العملة فقط أما الغنائم الأخرى فشيء يشبه الخيال.

في هذه الحرب الملعونة التي تجري الآن ولسنين طويلة قادمة بين العرب وبين الصهيونية في هذه الحرب التي يستخدم فيها العدو كل الأسلحة الشرعية وغير الشرعية، يستخدم السلاح كما يستخدم مال الإفساد، ولكن الأكثر شراً هو استخدام الحرب الدعائية، والحرب العقائدية، أو حرب إقناع الخصم العرب، والحلفاء، الغرب، بشرعية امتلاك هذا العدو لما اختلسه، ليس هذا فحسب، بل وإعطائهم لهذا الغزو شرعية التاريخ والإسهام الحضاري بل وصنع هذا العالم العربي الذي نعيش فيه.

من أشرس الكتب الدعائية التي تسعى لهذا الغرض كتاب وضعه مفكر صهيوني كبير بعلمه وإطلاعه ووسائل إيصال المعلومات إليه، ولكنه كبير بكذبه، وكبير بتزويره التاريخ، ومحاولة لي عنقه لإيصال العالم إلى القناعة بأن هذا الشعب فعلاً هو الأمل وهو المخلص وهو الذي وعده الله - إلههم - بميراث هذا العالم.. هذا العالم هو إيمانويل فلايكوفسكي الذي وضع كتاباً سمّاه عصور في فوضى، وما الفوضى في رأيه؟ الفوضى هي أن المرجع الأوثق للتاريخ القديم وهو أرشيف ملوك مصر القدماء - الفراعنة - أولئك الناس المنظمون المأرشفون الذين سجلوا كل كبيرة وصغيرة، عرفوها او سمعوا بها، أو احتكوا بها في محيطهم العربي والإفريقي، هذه الفوضى في راي فلايكوفسكي هي في أن هؤلاء المأرشفون المنظمون لم يذكروا اليهود ولا «إسرائيل»، ولا حتى ملوكهم الذين يفتخرون بهم كداوود وسليمان وشاؤول في مراجعهم.

وإذن هل يقول فلايكوفسكي كما قال كل المؤرخين: إن السبب في ذلك هو أن مملكة يهودا والسامرة كانت أصغر وأتفه من أن يحس بهما أباطرة عظام كفراعين مصر. طبعاً فلايكوفسكي لن يقبل بهذا الرأي، بل سيعمد إلى إنكار كل المراجع والوثائق وكتب التاريخ، سيعمد إلى نفي المنحوتات والمكتوبات ويقول إن هنالك مؤامرة كبرى تمت منذ فجر الخليقة ضد اليهود، ما هذه المؤامرة، إنها غلطة جعلت كل المؤرخين يتفقون على إزاحة التاريخ المصري ـ التاريخ المرجع لبابل وكريت واليونان ـ إزاحة هذا التاريخ ستمئة عام، هي الأعوام التي زها فيها التاريخ اليهودي، كيف؟..

ويبدأ بالهكسوس وغزوهم مصر فيقول بعد أن يدلل على أن خروج بني إسرائيل من مصر وانشقاق البحر لخروجهم وانطباقه على فرعون وجنوده الذين لم يشر مرجع مصري واحد إلى اختفائهم، يبدأ بالحديث عن كارثة كونية سببت الدم في المياه والجراد والضفادع وموت الأبكار بأنها كلها كارثة طبيعية أصابت المنطقة، فهرب بنو إسرائيل منها. فلحق بهم فرعون، فحدث زلزال كبير انشق له البحر، وانتظر الزلزال حتى عبر اليهود، ثم انتظرٌ حتى لحق بهم فرعون، فانطبق عليهم.. وهكذا تصدق التوراة، وينجو بنو إسرائيل ويهلك فرعون.

وماذا بعد. الآن يأتي الهكسوس، ها هنا يقوم فلايكوفسكي ببحث لغوي يحاول فيه البرهنة على أن الهيكسوس هم العماليق أو الأمو أو العاقيم وهي قبائل عربية فرت من الجزيرة العربية إثر الزلزال العملاق المسمار. ثم يبدأ بضرب الشتائم واللعنات المستقاة من التوراة، ومن الكتابات المصرية المتأخرة ـ مانيتون بعد ألف عام ويوسيفوس اليهودي المزور الذي نقل عنه بعد عدة مئات من السنين ـ يبدأ بضرب اللعنات على هؤلاء الأوباش القساة البرابرة الوضيعين المدمرين.. إلخ الذين التقوا باليهود في مصر.. تصوروا هذه الملاحظة ـ اليهود يخرجون والهيكسوس يدخلون مصر.. ويضرب العماليق اليهود، وتبدأ التوراة على عادتها بلعنهم، ولكن

الهيكسوس يدخلون مصر المحطمة بلا فرعون والتي دمرتها الزلازل فيحتلونها بلا مقاومة. أي بلا مجد كبير. وهكذا يحكمونها ما يزيد على خمسمئة عام.. ومن الذي سينقذ مصر من شر هؤلاء الوضيعين القتلة المدمرين.. إلخ. إنه البطل العظيم اليهودي شاؤول. فيقول فلايكوفسكي مستنداً إلى التوراة الذي يتعامل معه على أنه مرجع تاريخي لا يدحض. وجمع شاؤول مئتي ألف جندي من المشاة وعشرة آلاف من يهوذا. ولا يتوقف للحظة واحدة مستخدماً عقله العلمي الذي كان يتلاعب فيه بالتاريخ والمواقع وقراءة البرديات وقراءة النقوش على جدران معابد الفراعنة ليتساءل: أمن الممكن لشعب صغير عاش في إقليم صغير هو ما يسمى حالياً بالضفة الغربية القدس ونابلس ولم تخلصا له تماماً أي بالتطهير العرقي، هل يمكن لشعب صغير كهذا أن يجند مئتي ألف وعشرة آلاف.

إن أية قراءة للديموغرافيا وحسابات السكان بمن فيه من نساء وأطفال وشيوخ وكهنة وتجار وفلاحين لم يغادروا أرضهم سعياً وراء القتال تقول: إن تجنيد مئتي ألف من الجنود تحتاج إلى أربعة ملايين من السكان. فهل كانت الولادات وعطاء الأرض والمساحة الجغرافية وكثرة الأمراض والحروب والوحوش تسمح لسكان الضفة الغربية بالوصول إلى رقم أربعة ملايين من السكان وذلك في الألف الثانية قبل الميلاد.. حسب ما يزيح فلايكوفسكي التاريخ.

المهم بهذه المئتي ألف ينتصر شاؤول وجنوده على أكبر إمبراطورية في العالم في حينها أعني الهيكسوس أو من يسميهم بالعماليق، ثم لا يكتفي فلايكوفسكي بهذا النصر، بل يتعنى في لطف العظيم يتعطف على منكري الجميل ويعتب على المصريين والمؤرخين والعالم أنهم لم يعترفوا لليهود ولشاؤول بفضله في تحرير مصر من الهيكسوس. الذي يصر على نعتهم بالعرب. الكتاب لم يتحدث عن الهيكسوس فحسب، بل عن مملكة سبأ التي سيجعلها حتشبسوت الفرعونة المصرية التي ستقوم

بزيارة ـ إجلال ـ لسليمان، وعن أوغاريت وأبجديتها ـ التي صارت بعنصريته ـ عبرية.. إلخ.

بعد قراءة هذا الكتاب الفظيع سألت نفسي من يستطيع الرد على مثل هذا الكتاب الذي لوى عنق التاريخ بعلم كبير ولكن مزيف، وكان أن وقعت على كتاب العالم الليبي الكبير علي فهمي خشيم في كتاب (آلهة مصر العربية) ولهذا بحث آخر إن شاء الله.

فارس سلاحه القلم

اسمه علي فهمي خشيم

كهل رقيق، نحيل، أبيض البشرة، زاده الشيب وقاراً ورقة رأيته يتقدم من مجلسنا في فندق المهاري في طرابلس الغرب، فقال لي صديقي: ها هو من تبحث عنه. إنه علي فهمي خشيم، انتصبت لأسلم عليه دون أن يقدمنا أحد للآخر، فاستقبلني الرجل في ترحاب الصديق القديم، وما أسرع ما ارتفعت الكلفة بيننا. سألته عن كتابه الذي سمعت عنه الكثير، ولم تتح لي فرصة قراءته، فحواجز الحدود العربية الملعونة تلك التي وقفت حاجزاً بين الكتاب وانتقاله عبر الحدود، وبين المعرفة وتوحيد الفرك العربي. تلك الحدود التي لم تمكني من الوصول إلى كتاب «آلهة مصر العربية» والعنوان بحد ذاته مثير ومتحد ومستفز، فمصر الفرعونية المفصولة عنا بحاجز اللغة الهيروغليفية، ثم القبطية، وإلحاح الكتاب الغربيين ومن تابعهم من مفكرينا في مصر وفي العالم العربي زرعوا وجذروا فكرة الفصل ما بين مصر وشقيقاتها العروبيات، فكأنها شيء شاذ وخارج وبعيد عن بابل وأكاد ودمشق ويابوس.

حدثته عن كتابه متسائلاً أين يمكن لي أن أعثر على هذا الكتاب، فابتسم، وما إن جاء المساء حتى كرمني بإهدائي نسخة من كتابه «آلهة مصر العربية» مع كتاب أكثر استفزازاً وهو معجم لسان العرب الأمازيغ، وتساءلت: الأمازيغ؟ أتقصد البربر. قال: هذا ما سماهم به الغرب المتمجرف منذ روما. إنهم الأمازيغ. قلت: وهم عرب؟ قال: الدراسات اللغوية التي ستجدها في هذا الكتاب هي الفيصل.

حملت الكتابين وكانا في أربعة مجلدات كبيرة فأشفقت منها لضخامتها وتساءلت لهنيهة: إن كنت قد أشفقت من القراءة، فماذا عن الكاتب وكم استغرق من العمر والجهد في كتابتها. ثم تسليت عنها بكتاب فلايكوفسكي عصور في فوضى فأرعبني الكتاب فأن يسخر العلم والمعرفة ومجموعات الأبحاث لصياغة تاريخ مزور تزور فيه الحقائق وتلوى. لجعل العالم كله وحضارته ومعطياته ما هي إلا ثمرة إبداع ونبوغ هذه القبيلة الضائعة الزرية. ولكن.. ثم تساءلت: من يستطيع الرد على مجموعة الأبحاث الكبيرة المتخفية وراء اسم فلايكوفسكي لصياغة هذا الكتاب واستعرضت الباحثين والمؤرخين الذين أعرفهم، فلم أقع على اسم متحد مغامر عارف يستطيع الرد على كل هذه الأكاذيب.. وأخيراً توكلت على الله وفتحت كتاب خشيم المسمى بآلهة مصر العربية. فتحته مستطلعاً وإذا بي أقع في حبائل هذا العالم العجيب العروبي في زمن تراجع فيه العروبة والعروبيون لصالح السجون المعبودات الجديدة المسماة بالأوطان القطرية.

بسلاسة وذكاء أخذ الرجل يستدرجني إلى عالمه. عالم قائم على نظرية لا يوافقه عليها الكثيرون حتى الآن. ولكنهم بعد كتابه هذا اعتقد أنهم سيوجدون وسيتكاثرون. وسيكون لعلي خشيم، مع الاحترام الكامل لاسمه وعلمه. الفضل في استعادة مصر الفرعونية إلى حاضنها العربي وإلى وصل الثقافات العربية الكلاسيكية كلها بناظم واحد هو المصطلح الذي استخدمه علي خشيم (العروبية) بديلاً عن السامية هذا الاسم الغربي الشارب من كف التوراة البغيض.

يبدأ خشيم حديثه عن أصول الشعب المصري القديم فينقل لنا مقال مؤرخين أوروبيين يخلصون إلى أن سكان وادي مصر لكونوا أصلاً من مهاجرين من الصحراء جاؤوا على دفعات متتالية والصحراء المحيطة بمصر. هي طبعاً الصحراء الليبية والصحراء العربية الجزيرية ثم يلاحق الأمر لغوياً فيرى اسم مصر بلغتها والذي يعني (كيمت). أي

الأرض السوداء ثم يلاحق اسم كيمت إلى كميت العربية، ثم ينفي المقولة الغربية عن وجود ساميين وحاميين، فيرجعهما لغوياً إلى الأصل العروبي الذي انبثقت منه هذه اللغات، فالتوراة التي أقرت بأن إسرائيل نطقت بشفة كنعان وهي من تسمي نفسها أي إسرائيل سامية، إذا بها تجعل الكنعانيين حاميين إلخ.

بعد ذلك وهذه العجالة لا تستطيع الوفاء لجهد عظيم كجهد خشيم لا بأس من متابعة الخطوط الرئيسية لأفكار الكتاب، كحديثه عن الهيكسوس الذين غزوا وصنعوا مملكة استمرت عدة مئات من الأعوام في مصر. فيستعرض معظم الأفكار التي تحدثت عنهم من اليونان وحتى اليهودي يوسيفوس الذي يقول إن اسم الهيكسوس يعني الملوك الرعاة قاسماً الكلمة إلى هيك او ح.ق تعني حكم . حاكم. كما نجد في اللغة العربية من الصلة ما بين الحق والحكم.. ثم ينتقل إلى المقطع الثاني ش.أ س.و. التي تعني البدو. ولكنه لا يكتفي بهذا، فيتابع معاني الكلمة ليصل إلى المشي. السعي. السفر لتصبح بمعنى البدو الرحل. وهكذا فهم الملوك البدو، ثم يتابع الكلمة مرة ثانية مذكراً لنا بالطبري العظيم في استطراداته، فيقول: إ-الكلمة ش.أ س. وتقال سوساوا. الأمهرية والتي تعني اسرع من المشي، هرول. ثم بالعبرية: سيس التي تعني حصان، أو خطاف لشهرة هذين الحيوانين بالسرعة، ثم يكمل بأن الاسم سيس الحصان القزم هي بقية من استخدام هذه الكلمة العروبية، ثم يستطرد ملاحقاً هذا الجذر إلى الفعل س.س الذي وصل بالعربية إلى سوس ومنه سياسة الدواب أي ترويضها وما يتبعها من سياسة الأنعام المعاصرة البشر. ويتابع الجذر ليصل إلى بني ساسان. الشحاذين الذين عرفناهم في العصر العباسي والذين كتب عنهم أبو دلف الخزرجي القصيدة الشهيرة الساسانية وهي دستور المحتالين والمكدين والشحاذين.

هذا الاستطراد المختصر يرينا نموذجاً عن عقل هذا الرجل ومتابعته للمادة المقصودة لغوياً، فهو لم يدخل في جدليات السياسة

وحقوقيتها وتزويرها كما فعل فلايكوفسكي، ولكنه لاحق اللغة فوصل بها إلى انتصارات السياسة.

ولنتابع مثلاً قراءته لكلمة فرعون نفسها وجذرها العروبي فهو يرى أن منطوقها المصري هو ب ر ع، والتي تعني كما يفسرها (القصر العالي) و ب، هي صيغة من بني، و ع، تعني العالي، كناية عن مكان وجود الملك المعبود، ولا يكتفي بهذا فيتابع كتب الأخبار بين العرب الذين يتحدثون عن الفراعنة فيسمونهم مصعب بن الوليد، والريان بن الوليد فيتابعها ويترجمها فيلاحظ أن جذر الريان هو ري وهو بتبادل العين والياء رع أما موس والتي تعني طفل كما كتب عنها فرويد فيما مضى مفسراً كلمة موسى بأنها تعني طفل مثل -ع موسى أي طفل- ع إلخ. فالريان ها هنا رع=ري وموس تساوي الوليد وبذا يصبح الوليد بن الريان ترجمة عربية رعموس أو رعمسيس...

كتاب اكثر من مهم واكثر من نضالي ومساهمة عظيمة من لبيبا في شخص عالمها الكبير علي فهمي خشيم في اعادة الحق العربي الى نصابه.

(اكتب هذا تذكاراً في الكتاب، وضعه في مسامع يوشع فإني سوف أمحو ذكر عماليق من تحت السماء.. وللرب حرب مع عماليق من جيل إلى جيل).

السطور السابقة منقولة من التوراة، ويقرأها يومياً وفي كل صلاة يهود العالم وكثير من متعصبي الطوائف الصفرى في الولايات المتحدة والتي تؤمن بأن خلاص البشرية لن يتم إلا في عودة اليهود إلى القدس وإقامة الهيكل فيها ثانية وعندئذ سينزل المسيح إلى الأرض ليبدأ حربه ضد الكفار واليهود ويبيدهم وعندئذ سيحل السلام على الأرض.

فمن هؤلاء العماليق الذين سيكون للرب حرب معهم من جيل إلى جيل؟ إيمانويل فلايكوفسكي المؤرخ الصهيوني لاوي عنق التاريخ لإثبات أحقية ومركزية اليهود في تاريخ الشرق يحدث عن هؤلاء العماليق (أو العناقيم بتسميتهم العبرية جمع عناق) ولنتذكر الأسطورة الشعبية المسلمة المتسربة من الإسرائيلية التي تتحدث عن حرب موسى مع عوج بن (عناق) وانتصار موسى عليه بضربة عصا لا تصل إلا إلى عقبه لضخامة وعظم عوج بن عناق ومع ذلك يقتله ويريح البشرية منه.

فلايكوفسكي يرجع حتى إلى المؤرخين العرب والذين تشبعت كتاباتهم المبكرة عما قبل الإسلام بالإسرائيليات وشروحها كالطبري والمسعودي ووهب بن منبه اليهودي الأصل فيقول إنهم العرب الذين

غزوا مصر تحت اسم الهكسوس الذين اساءوا ودمروا الحضارة المصرية.

إذن فالعماليق الذين سيحاربهم الرب من جيل إلى جيل هم العرب ولنتذكر تاريخ جيلنا منذ كارثة 1948 مروراً بـ 1956 و1967 و1973 و 1982 و 1991و... وصولاً ووقوفاً عند ما يجري الآن.

نحن وكأمة نقف حالياً على رصيف التاريخ نتفرج ولا نفعل ولنذكر ما قاله مرة السناتور الأمريكي لشيوخ النفط المتفاخرين بثروتهم النفطية: أنتم تجلسون فوق النفط، ولكنكم لا تملكونه!.

نحن لا نقرأ التاريخ ولا نفهمه ولا نتعظ بدروسه، وحتى قراءاتنا في المدارس للتاريخ كانت دائماً قراءات انتقائية أقرب لتزوير التاريخ منها إلى قراءته.

نحن لا نقرأ التاريخ ولا كتابات الخصم ولو أننا فعلنا لتوقفنا عند هذه الحملة المرعبة: وللرب رب الجنود - حرب مع عماليق من جيل الى جيل. هل تذكرون مؤتمر مدريد والذي - بالصدفة فقط - تزامن مع الذكرى الخمسمئة لخروج العرب من جنة الأندلس..

هل فينا من يذكر الآن أن في شهر شباط هذا تزامن الذكرى الأربعين لقيام الوحدة مع مصر، تلك المحاولة الأولى منذ قرون لقيام الدولة العربية. هل فينا من ينفض ذاكرته ويذكر تلك الأيام البهيجة التي كان جيلنا يعتقد أن تحقيق الآمال اصبح قاب قوسين أو أدنى. إن تحقيق الوحدة، بل وحرية الوطن والمواطن اصبح هناك وراء المنعطف التالي. وما علينا إلا دفع حركة التاريخ دفعة صغيرة واحدة، فإذا بالدولة العربية العادلة المتحررة وقد تحققت.. ولكن.. استيقظ رعب الغرب كما استيقظ أيام محمد علي، واستجمع قواه ليضرب الضربة التي لم يفق العرب منها إلى مئة سنة تقريباً، انتهت مع سقوط الدولة العثمانية ووقوعنا في يد الغرب.

استيقظ الغرب مرعوباً من تحقيق حلم وحدة الوطن العربي أيام عبد الناصر وكانت الكارثة عام 1967، ثم تتالت الكوارث من جيل إلى جيل كل عشر سنوات ضربة مجهضة لكل إمكانية تحرك عربي محاول لصنع مستقبل لهذه الأمة.

أيها السادة ها هي ذكرى الوحدة الأربعون وها هي أميركا بكل عتوها تذكرنا بها بهذه الضربة للعراق الشقيق، الضربة التي لا منطق ولا شرع ولا قانون، ولا أخلاق تبررها إلا الصلف و.. المصالح طبعاً و.. تذكيرنا بحرب رب الجنود لأحفاد العماليق من جيل إلى جيل.

المسادا:

متمردون يهربون إلى قلعة، ويظنون أنهم ناجون. فالأسوار قوية والزاد يكفيهم لأمد، ولكن العدو المحاصر يطبق الحصار فيرفع الجوع رايته، وتبدأ الإرادات في التهاوي، وعندئذ يصرخ الزعيم: نموت ولا نستسلم، وينصاعون للفكرة، فالموت انتحاراً أهون من الموت صلباً بعد التعذيب وسوق النساء والأطفال إلى السبي.

الانتحار أو النحر:

المتمردون المهزومون المحبوسون في القلعة الفخ يقتلون الأطفال، ثم النساء، الدماء تغطي المكان، الدم يعمي الأبصار، أن يقتل المرء أحباءه بطولة!!

القرعة:

لم يبق في القلعة إلا الرجال، الرئيس فيهم يقترح أن ينقسموا إلى مجموعتين، ثم إلى أزواج، ثم يجري كل زوج القرعة. فمن وقعت عليه القرعة ذبح الآخر. حتى إذا ما تحولوا جميعاً إلى قتلة أحياء ومقتولين أموات انقسموا أزواجاً، ثم اقترعوا ليقتل كلّ زوجه الآخر، وأخيراً لم يبق بين المتمردين جميعهم إلا قتلى، وقاتل واحد اسقطته القرعة حتى النهاية، والمفترض أنه سيقتل نفسه ببطولة، ولكنه وبانتهازية غريبة، بجبن، يخرج إلى العدو ويسلم نفسه ويحكي لعدوه الحكاية كلها، فمن

هذا الأخير الذي نجا من كل القرعات والذي تشير الإشارات كلها إلى أنه كان يتلاعب بالقرعة لينجو بنفسه، فمن هذا الناجي.

التاريخ والناجي:

ولكن وقبل أن نعرف من هو هذا الناجي، علينا أن نعرف من نقل إلينا هذه الحكاية مع التفاصيل الكاملة. الأمر الذي يؤكد أنه لابد أن يكون قد شهد وعاين ورأى، ثم نجا، ونقل إلى العالم هذه الحكاية.

الناقل هو يوسفوس فلافيوس المؤرخ اليهودي باسمه اللاتيني أما اسمه العبري فهو يوسف بن ماتاتيا هاكوهين، والذي غير اسمه إلى الاسم اللاتيني حينما استعبده سيده فلافيوس فحمل اسمه كما سيحصل بعد قرون في الثقافة العربية حين يحمل العبد اسم مولاه، واسم القبيلة التي ينتمي إليها سيده بالولاء ولد يوسيفوس في العام (37) بعد الميلاد وأثناء حكم الإمبراطور الروماني كاليغولا وعاش حتى وصل في عمره إلى ثلاثة وستين عاماً، وكان قد ولد وربي وأنشئ ليكون حاخاماً كآبائه، ولكن أمه التي كانت تدعي الدماء الملكية كانت تشده إلى النشاطات الدنيوية، وهكذا درس، وأكمل دراسته المتفوقة في التاسعة عشرة من عمره، ونظر من حوله فالعالم مفتوح أمامه فهو من الأرستقراطية اليهودية وبذا يمكنه أن يكون سياسياً، وصار سياسياً. وعسكرياً، وصار عسكرياً. وخطيباً، وصار خطيباً، ولكنه أنهى حياته في روما عبداً تحرر وحمل اسم سيده وبدأ كتابة سيرة الشعب الذي خانه، وبذا أصبح فورقاً، وربما الوحيد في الحقل الذي عمل فيه.

في العام 64 ميلادية، وصل يوسيفوس إلى روما في مهمة سياسية يبدو أنه قد حصل على أثرها على سمعة طيبة، هذه السمعة أهلته حين قام التمرد اليهودي ضد روما في العام 66 إلى أن يعين حاكماً للجليل... ولكن كيف حكم الجليل. كيف ذبح الأيتوريين العرب في الجليل، كيف انقلب على اليهود أنفسهم. لكثرة ما قاموا به من أعمال

وحشية.... إلى قلعة المسادا، فهذا كله ما سنعرفه من كتبه التي كتبها باللاتينية ووضع إثم الجرائم كلها على غيره ودافع عن أسياده الرومان حتى النهاية.

ولنستمع إلى ما يقوله عنه مؤرخ هو سيسيل روث: إن الصورة التي ستتبثق أمامنا عن يوسيفوس من وصفه نفسه صورة كئيبة، فهو خائن القدس، وهو من جعل نفسه ملعوناً عبر العصور حين وصف لنا ما فعله ورجاله من وحشية وجبن في (جوتاباتا) إن سيرة يوسيفوس هي السيرة الأكثر إرعاباً في الخيانة والجبن، والعمالة المزدوجة، وما جعلها أكثر إرعاباً هو غياب أي حس بالخجل منها.

الأسطورة:

الغرب اليهو مسيحي المتملق، الغرب الذي لم يعد يرى في التاريخ إلا التوراة وأساطيره، هذا الغرب ابتلع حكاية يوسيفوس عن المسادا، ثم أعاد صياغتها حسب الكتاب اليهود المعاصرين، وخلق منها ما سيسمونه فيما بعد عقدة الماسادا، أي عقدة الناس. المحاصرين المحبوسين المهددين بلا أمل، فيعمدون حينئذ إلى المسادا ثم لم يكتفوا بهذا، بل مزجوا المسادا مع حكاية شمشون الذي دمر المعبد الفلسطيني قائلاً: علي وعلى أعدائي يارب.

الشعوب تقاد بالأساطير والجماهير تساق بالحكايات، فرجل الشارع لا وقت لديه للنقاش والتساؤل والتمحيص، هذا هو مختصر الدعاية الصهيونية. أصنع حكاية، أنشرها بين الناس وحبذا لو كان نشرها على شكل إشاعة أو تسريب، لأنك بهذه الحالة لست بحاجة إلى إجابة أو تفسير، أليس هذا ما فعله (بعنونو) الخبير الذري الذي أخبرنا نحن العرب قبل العالم بأن لدى إسرائيل قنبلة ذرية. أخبرنا دون أن تضطر حكومة العدو إلى أن تدافع عن مقولتها أو تنفيها أو تؤكدها. ما جرى لبعنونو لا يهم، فهذه تفاصيل.

الشيوعية الملحدة الكافرة المتسللة إلى أفغانستان المسلمة. لم يؤمنوا بهذه القضية فجأة، بل اخضعوا لحملة مكثفة من ضغط وسائل الإعلام التي زينت لهم طريق الجنة عبر أفغانستان وعبر تحقيق الحلم في هدم العالم الفاسد لإقامة العالم الإسلامي. الحلم المجيد.

أصغوا إلى وكالات الأنباء، إلى خطباء المساجد، إلى الحملات الكبرى المغرية بالمال وبالأحلام وكلنا يذكر تلك الحملات الكبرى التي عمت المملكة العربية السعودية ودول الخليج ومصر. كلها تدعو إلى إنقاذ الشقيقة التي سقطت تحت اقدام الدب الروسي، حملات مغرية فالمواصلات مؤمنة والتبرعات مؤمنة والسلاح مؤمن... ما عليك إلا أن تتطوع... وتطوع الآلاف منهم من دعاة حلم التغيير وبناء الدولة الحلم، ومنهم من دعاة المال المعروض.. مضوا إلى أفغانستان.. حاربوا.. انتصروا.. انهزموا.. ليس هذا هو المهم.. ما يهمني هو هذا الفرد الصغير الذي خضع يوماً إلى عملية الغزوة الإعلامية المدعومة من الولايات المتحدة، فمضى إلى أفغانستان. حارب.. تعلم أشياء جديدة، تغير. صار ما دعوه إلى أن يصيره عبر حملاتهم الإعلامية. وحين عاد لينفذ ما طلبوا منه أن يؤمن به ويفعله ولكن في غير الحقل الذي اختاروه له صار إرهابياً، وصار قاتلاً، وصار ماجوراً، وصار متطرفاً، وصار أصولياً، ولكن واحداً... من سادتنا الإعلاميين لم يتوقف ليسأل نفسه من جعل محمد بن عبد الله الإمبابي ابن السباك البسيط والذي كان يمكن له أن يقضي حياته سباكاً يصحو من أول ضوء يعود مع آخر ضوء إلى بيته لينعشي فولاً وبصارة.. من أخرجه من جنة السذاجة وحوله إلى هذا التطرف.. كما يريدون تسميته.. ثم تخلى عنه.. ايليتس راميريز سانشيز. كارلوس، ابن أوى، الإرهابي الدولي.. إلخ.. ليس إرهابياً وليس متطرفاً، وليس قاتلاً ماجوراً أو مرتزقاً.. إنه نتاج عصر ظن الحلم في متناول اليد فهب لتناوله وإمساكه وتحويله إلى واقع، إنه ابن مرحلة الصراع الكبرى في الستينات والسبعينات بل وحتى

الثمانينات بين قوى القمع الكبرى، وقوى الحلم التي ظلت تبها للحلم جذوراً وتجعله أرضياً واقعياً متجذراً في تربة هذا العالم.

أيليتس راميريز سانشيز كارلوس بم يختلف عن أرنستو تشـ غيفارا، أما زلتم تذكرون ذلك الفتى الوسيم الذي هجر سرير العائلة الدافئ وكرسي الوزارة الهانئ ومضى ليحرر العالم حتى مات في أدغال بوليفيا، كارلوس بماذا يختلف عن كاسترو؟!.. عن إيميليانو زاباتا ثائر المكسيك الشهير عن يوسف العظمة؟!.. عن فدائي لن اذكر اسمه فهو كل أولئك الذين احببناهم يوماً ووهبناهم قلوبنا ليحرروا لنا قلباً اسمه فلسطين.

أكثر ما اخافه أن يأتي اليوم الذي نستسلم فيه لقوى وكالات الإعلام فنسمي كل أولئك الذين حلموا يوماً مشعل الحلم.. كارلوس.. الماجور.

حين يذكر العام 1492 فإن الكثيرين لا يتوقفون عنده، فنحن شعب اعتاد الكوارث حتى لم نعد معنيين بتذكرها، ولكن (هم) يتذكرون، يتذكرون جيداً، ففي ذلك العام المشؤوم طرد العرب من جنتهم التي انشأوها في الأندلس، طردوا وطردت معهم أحلامهم وأفراحهم ومؤامراتهم الصغيرة، طردوا وطردتهم نزاعاتهم العرقية والطائفية طردوا حاملين مفاتيح بيوتهم وقصورهم معتقدين أن يوماً لا بد قادماً سيعودون ومعهم مفاتيح البيوت والقصور وخرائط الكنوز التي اخفوها والمكتبات التي دفنوها في جدران البيوت المضاعفة ـ كنوز حضارتهم وعقولهم ـ ولكن السنين تنقضي والقرون تنقضي والمفاتيح تصدأ .

قرون خمسة انقضت حتى جاء العام 1992 تالياً لعام هزيمة حضارية كبيرة فصفت فيها بغداد وحين فصفت لم يكن المقصوف بغداد المعاصرة بل كان المقصوف بغداد الرشيد وألف ليلة وليلة رمز العرب الذي حملته الليالي العربية إلى كل لغات وثقافات العالم.

في العام 1992 التقى بعض العرب مع الصهاينة في سفاردبا ـ إسبانيا والأندلس ليوقعوا وثيقة تصالحهم وتنازل العرب لليهود عن اندلسهم الثانية فلسطين. هذا العام ـ المعيار 1492 كان محرضاً لروائيين ثلاثة للكتابة عنه، فمثل هذا الحدث الفظيع لا بد أن يثير خيال الروائيين فسقوط حضارة وطرد سكان لا يميزهم عن هازميهم إلا الدين والثقافة، أمر لا بد أن يجعل الروائي متحمساً لقراءة الحدث وموعظته وتأثيره على ما تلا من السنين.

الروائي الأول كانت من مصر وهي رضوى عاشور حين كتبت روايتها مريمة والرحيل هي تعرض فيها لمأساة العرب بعد هزيمة كيانهم السياسي. مأساتهم في اضطرارهم الى التنصر الظاهري، أو الحفاظ على دينهم وملاحقة محاكم التفتيش لهم في قسوة كان لا بد لها ان تنتهي بطردهم من إسبانيا بغض النظر عن تنصرهم أو إسلامهم فالأمر كان أمر التخلص من ذكرى أولئك الذين أعطوا إسبانيا أجمل ذكرياتها وقصورها. وكان هذا جرحاً في الضمير الإسباني سيظل يؤلمه ربما إلى الأبد.

الرواية الثانية كانت لكاتب من المكسيك اسمه هوميرو أريدجيس وقد عنون كتابه باسم 1492 ثم بعنوان أصغر حياة وأزمان خوان كابيزبون القشتالي. والكاتب رغم أنه مكسيكي إلا أن أباه كان يونانياً هرب من ضواحي أزمير بعد هزيمة اليونانيين على يد مصطفى كمال أتاتورك إلى امريكا - المكسيك ليتزوج من مكسيكية وينجب هوميرو الكاتب. ويصور لنا الكاتب نفسه بأن أباه القادم من البعيد كما المكسيكيون يسمونه أحياناً باليوناني وأحياناً بالتركي وأحياناً باليهودي فكلهم أغراب.

وهذا ما اعتذر به الكاتب عن نفسه في الكتابة عن هذا الحدث الفظيع. حدث طرد ليس العرب من الأندلس، بل اليهود. فقد ركز الكاتب وبشكل لا أستطيع اعتباره بريئاً على طرد اليهود فقط من الأندلس، ركز على اليهود بحيث لم يشر إلى العرب أو المور حسب التسمية الإسبانية لهم إلا بشكل نادر وعرضي. فالمأساة بالنسبة له كانت مأساة طرد اليهود وملاحقاتهم بمحاكم التفتيش وإحراقهم أحياء إن ثبت أنهم تنصروا وارتدوا خفية الى اليهودية. والمضحك وشر الأحزان ما يضحك أن محاكم التفتيش حين كانت تخفق في القبض على المرتد اليهودي كانت تعمد إلى صنع تمثال له فتحاكمه وتحكم عليه بالإعدام والحرق وتحرق التمثال بالنيابة عنه.

ولكن الغريب في هذه الرواية هو أن الكاتب قد وعدنا في مقدمتها بالحديث عن يهودية كريستوفر كولومبس، ولكنه لم يستطع الحديث إلا عن تشابه اسمه مع اسماء أسر يهودية إسبانية، فلماذا هذا الإلحاح غير البريء.

الرواية الثالثة وهي الأفضل فنياً هي للشاعر الإسباني انطونيو غالا والتي أسماها باسم المخطوط الفرمزي أو يوميات أبي عبد الله الصغير آخر ملوك الأندلس.

والرواية شطحات شعرية جميلة ضمن توثيق تاريخي جميل وإن حاول كاتبها الحياد فلقد كانت صوت الإسبان في هذا الحدث. وربما عرضنا لهما فيما بعد على انفراد.

1492 أتيح لها روائيون ثلاثة. وهذا حسب علمي. فمتى يتاح لـ 1992 من يكتب عنها وهي مفصل لا يقل خطورة عما سبقه بخمسمائة عام.

حين يذكر إدوار خراط لا يمكنك إلا أن تذكر رائعته رامة والتنين. ولا يمكنك إلا أن تذكر (الزمن الآخر). و(يا بنات إسكندرية). و(ترابها زعفران). وهذه كلها أسماء لروايات هي سيدة نفسها في الأسلوب والبناء واللغة.

إدوار خراط فتح فتحاً جديداً في الرواية العربية. فتحاً مخالفاً تماماً لما صنعه نجيب محفوظ ومدرسة الواقعية والنقد الاجتماعي والقراءة التاريخية الاجتماعية للمجتمع. تلك المدرسة الميكانيكية التي شقها كتاب سوفييت ولحقهم بها كتاب كثيرون في العالم استسهلوا الكتابة حين حولوا العالم إلى قطبين مستغل ومستغل فانتصروا لأحدهما وأهملوا الآخر أو عادوه فتخلوا عن الفن لصالح الهدف الإعلامي بشكل أو بآخر.

إدوار خراط قرر ببساطة نسف البناء الهرمي للكتابة. من الحدوتة حتى الصراع وانتهاء بالحل. النهاية السعيدة. في انتصار الصالحين الطبقة العاملة والمستغلين والمضطهدين والمقهورين فاضاعوا الأدب ولم يكسبوا التاريخ كما حلموا. هذا الأمر الذي علق عليه ماركيز بقوله: أن اصنع أدبا جميلاً. ان اضيف لبنة جديدة للجمال والأدب هو خطوة في سبيل تحقيق المجتمع العادل الحلم أكثر اهمية من تقديم الأحلام الطيبة والوعود السعيدة.

إدوار خراط قرر ببساطة العمل على اللغة والأسلوب وتقديم الجميل. وهكذا نراه يقول في كتاب مقالات نقدية اسمه ـ أنشودة الكثافة

. . إن التراث اللغوي أو اللغة التراثية عندي، وعند عدد متزايد من الروائيين والشعراء يكوّنان صرحاً قائماً وماثلاً يمكن حضوره بشكل أكثر كثافة مما كانت تقتضيه مواصفات الرواية التقليدية أو الشعر التقليدي على عكس ما قد يكون متوهماً. وعلى صعيد تجربتي الخاصة أرى بدءاً من رواية (رامة والتنين) ثم رواية (الزمن الآخر) وانتهاء بشكل خاص بـ (مخلوقات الأشواق الطائرة) سلسلة من حضور كثيف لتراثنا، سواء كان التراث المصري أو التراث العربي. وسواء كان التراث اللغوي أو المضموني معاً، هنا، تراثاً شعبياً (مثل ألف ليلة وليلة وسير الملاحم الشعبية) أو كان تراثاً كلاسيكياً. هذا إلى حضور التراث الإنساني عامة بطبيعة الحال، يونانياً كان أم فارسياً، عربياً من قبل الإسلام، أو مما بعده..

الجانب الثاني والأكثر أهمية هو طريقة استلهام التراث الصوفي بالذات والذي بدا يشغل مكاناً كثيفاً في كتاباتي خصوصاً في مخلوقات (الأشواق الطائرة) و(أبراج الليالي).

ادوار خراط هذا الفاتح باباً جديداً ومتميزاً في الرواية العربية ليس الكاتب الروائي البرج عاجي. بل هو رجل ذو آراء سياسية واضحة ومواقف نضالية متميزة، فحينما ينخفض الشارع المصري في هيجانات التطبيع والعلاقة مع العدو الصهيوني يقول:

يبدو الآن أنه وقد تكسرت أجنحة الحلم العربي - في الوحدة والاشتراكية - على صخرة الواقع السياسي الصلب إلا أنني أوقن أنه ستنمو له أجنحة جديدة ملحقة..

والمجابهة الثقافية ليس عليها أن تقبل حلولاً جزئية أو وسطى، بل يجب عليها أن ترفض كل تنازل وكل إهدار. فهذا هو مجالها، هذا هو جوهر العمل الثقافي.

ثم يضيف: ومع ضرورة التعددية، وتفهم وجهات النظر الأخرى، والتواجد مع الاختلاف، فليس هناك، ولا يمكن أن يكون قبول، ولا

تصالح، ولاتعايش، ولا تطبيع مع الاستعلاء العنصري، ولا مع القمع، ولا مع إهدار الحقوق الأزلية، وهذه كلها الأسس والمقومات التي تتبنى عليها النظرية والممارسة للدولة الصهيونية.

هل هي شبح؟ إن الكيان الصهيوني يدخل في بنية أوسع وأشمل هي بنية الهيمنة الإمبريالية العالمية.. مقاومة هذه النظرية وهذه الممارسات سياسياً وثقافياً هي لب العمل الذي وحده يمكن أن يصون ثقافتنا القومية، ومن ثم فإن (التطبيع) معها هو بعينه الخروج عن طبيعة المبادئ الأولية الأساسية، بل انتهاكها.

إن هذه المجابهة تعني التمسك، بل التشبث حتى آخر جهد بقيم العقلانية، والتسامح في إطار العقلانية، وإعلاء الحرية والكرامة الإنسانية.

هل معرفة العدو تعني التطبيع معه؟

هذا سؤال ملح وراهن. العدو هنا ليس مجرد الإنسان العادي الذي يعيش في - الكيان الصهيوني - أو ليس هو بالضرورة. الإنسان العادي الذي عاش في المانيا الهتلرية النازية هل كان بالضرورة عدواً لقيم التسامح والإخاء؟ هذا السؤال ايضاً ما زال بحاجة إلى اجابة قاطعة، لعله لن يجدها قط، مثل هذا الإنسان العادي قد أشرب - بفعل آلة دعائية كاسحة - نزعات عنصرية واستعلائية تجعله عن وعي أو عن غير وعي - عدواً.

هل يراد بنا التطبيع مع هذه المقومات غير الطبيعية.

إن التنازلات التي يفرضها الأمر الواقع على السياسيين لا محل لها عند المثقفين والمبدعين والفنانين.

وحتى هذه التنازلات مشكوك في ضرورتها، بل وفي أنها سياسياً - بهذا الحجم - عملية ومجدية، وإذا كان العمل السياسي هو فن التعامل مع الممكن، فهل أدار السياسيون هذا العمل بمهارة وبعد نظر؟ مازال هذا

السؤال مطروحاً تجيب عليه الأيام يوماً بعد يوم. أما العمل الثقافي، فهو على العكس. إنه بطبيعته فن التعامل مع المستحيل، والضرب في أفق المجهول المستشرف المرموق، بإهداء قيم هي في الوقت نفسه قيم المعرفة، وهي أيضاً قيم خلقية وعقلية وروحية.

هذا هو إدوار خراط الفنان المبدع المتحدي، وهذا هو المفكر المثقف مستبصر المستقبل بعين الفنان، لا بعين الانتهازي الرخوي المستسلم.

اشهد اني رأيته، بوجوهه الأربعة رأيته، بعيونه الثمانية رأيته، بأذرعه الستة عشرة رأيته، بسوقه الثنتين والثلاثين رأيته. يشهبه الملعونة، بنيرانه الموجهة بإرادتها الخاصة تنطلق لتقتل أعداءه حتى المختفين وراء الأسوار والجدران، تقتل أعداءه، حتى المتنكرين بزي الأشجار والجبال والغابات والمستنقعات، تقتل أعداءه حتى الهاربين على جذوع البعوض وهامات الديدان، تقتل أعداءه حتى اللاجئين إلى المعابد يقولون: مالنا ولهذه الدنيا الوسخة السوداء، نحن غسلنا ايدينا من آثامك وايتعدنا، نجونا بجلودنا وأرواحنا لا نؤذي ولا نؤذى، ولكنه لحقهم بشهبه وشياطينه حتى حمى المعابد فقتلهم.

ووقف الناس جميعاً مرعوبين قالوا: الآن حصحص الحق وظهر الرب قال: أطلبوا المعجزات وعليها تحصلون، فقال المتشككون: أرنا الماء هواء فنظر إلى الماء بعين من عيونه وقال: صر هواء، فاحترق الماء وصار هواء قالوا: أرنا الهواء ماء فنظر إلى الهواء بعين أخرى وقال: صر ماء فتجلد الهواء وصار ماء. قالوا: أرنا الصحراء غابات فنظر إلى النهر وقال: أحمل جسدك وامض إلى الصحراء، فلعلم النهر جلبابه ومضى إلى الصحراء، فاغرورقت الصحراء فرحاً بعد طول اشتياق، وقال للجبل أخلع ثوبك، فخلع ثوبه، وقال للغابات: امضي إلى الصحراء حيث النهر المهاجر، فمضت، وصارت الصحراء غابات والجبل أجرد، قال: أما زلتم تشكون، قالوا: أحيي الموتى، فنظر إلى القبور وقال: هبي، فماجت الشواهد والقبور، وتحركت العظام والموتى، قال: ليتبرع كل منكم بخلية نحيها ونعيدكم كما كنتم، فتربع الموتى وتناسخوا أجساداً جديدة، قال:

أما زلتم تشكون، قالوا: أمت الأحياء، فسلط على مدينة تموج بالحياة والناس ثمرة فطر بدأت صغيرة ثم أخذت في الدوران حول محورها، في الموجان والتضخم، وفي خلال ثوان تحولت المدينة بناسها وأشجارها وحيوانها وناموسها وذبابها وحمائمها وفراشاتها وأحلام صباياها ونزوات شبانها، بأرق شيوخها، وسهد أراملها، بأذان عبادها، وتنهدات تائبيها، بهمسات أجدادها المتأبية على السكون تحت التراب وباستشراقات أحفادها الذين سئموا طول انتظار الولادة،بكل هؤلاء وأولئك تحولوا في ثوان إلى رماد ارمد وسواد أسود إلى هباء اهبى، وغثاء أحوى، تحولوا كلهم وفجأة إلى إشارة استفهام كبيرة معلقة في الفضاء.

قال: هل آمنتم؟ قالوا: آمنا. ولم لا نؤمن وأنت تقوم بكل أفعال الرب. قال: فاتبعوني إذن لنقضي على المعاندين والكفار فتتبعوه رافعي رايته الزرقاء، ومضوا يلاحقون كل معاند لم يؤمن به، طاردهم وطاردوهم وصار العالم فخاً صار الحجر يقول لحاملي الراية الزرقاء راية الرب الجديد، أيها المؤمنون بالدين الجديد. إن ورائي واحداً من الرجميين المؤمنين بالدين القديم، إن ورائي من لا يزال يرى الورود جمالاً والفراشة رقة، ولقاء الحبيبين حباً إن ورائي كافراً فاقتله، وصارت الشجرة تقول للمؤمنين بالعالم الجديد، أيها المؤمن إن على جذعي واحداً ممن ما يزال يرفض الإيمان، بالمسيح الجديد المسيح الحق فخضع الحيوان والأشياء لإرادته.

صار العالم فخاً وورطة وملأ، وصار الناس أمام خياري الإيمان بالرب الجديد والرؤوس الأربعة والأقدام الستة عشر والأذان الألف وأجهزة التنصت المليون، والأقمار الصناعية المراقبة لتأوهات الحبيبة، وأوجاع الأم، وحساب الأب كمية الديون المتبقية حتى آخر الشهر، وبين رقصة كل هذه المعجزات، والحفاظ على الدين القديم المؤمن بالمطر والحقل والخير والمواسم وولادة الأمهات أبناء طبيعيين لا تستولدهم

أنابيب الرب الجديد من آباء غير معروفين لتزرعهم في أرحام غير معروفة لإنجاب حضارة هجينة منذ البداية وحتى النهاية.

أشهد أني رأيت، وأشهد أني عرفت، وأشهد أني كدت أصرخ بأن أمي حدثتني عنه في طفولتي، وبأن جدتي ارعبتني منه في صغري قالت: سيأتيكم الرجل حاملاً معجزاته ومحولاً الملايين من الضعفاء والمتشككين إلى الإيمان به، فمعجزاته كبيرة وكثيرة، ولكن واحدا.. واحدا فقط على هذه الأرض لو وقف وقال: أنت الدجال، أرفع الغطاء عن رأسك وارنا عينيك، فأنت أعور لا ترى إلا بعين واحدة ولذا فكل أحكامك منحازة وكل معجزاتك في كفة والعينان في وجهك في كفة، ارنا عينيك نصدق انك لست الدجال. قالت: لو صرخ واحد فقط بهذه الصرخة في وجهه لرايت السحر ينفك عن الملايين التي ستقف وتطلب منه أن يريها العينين، وعندئذ وعند لحظة التردد ولاشك هذه، التردد بين أن يستمروا في إيمانهم برب الدين الجديد، وبين الإفاقة من سحر الدجال. في هذه اللحظة سينزل المسيح الطيب، وسيلتف المؤمنون والطيبون من حوله.

سيلاحقون الدجال، وسيتكاثرون تكاثر الرمل ويتضاعفون تضاعف القراش وأوراق الربيع، وعندئذ، عندئذ فقط سيعود إلى الأرض السلام الطيب الذي انتظرته البشرية منذ أن ظهر على سطحها أول قاتل، ومنذ أن أريق على أديمها أول دم.

أشهد أني رأيت، وأشهد أني عرفت، وأشهد أني ذكرت كل ما قالته أمي عن الدجال، ولكن.. يا إلهي.. لماذا تستعصي الكلمات على شفاهي، لماذا يتحول الكلام في حلقي إلى كبة من شوك ولا أستطيع أن أصرخ: أنت يا رب العالم الجديد، أنت رغم كل معجزاتك لست إلا المسيح الدجال، الدجال... الدجال. نحن لا نؤمن بك، بل ننتظر مسيحنا الطيب عيسى بن مريم حامل الرضى والسلام إلينا، والذي سينزل على مأذنة العروس في مسجدنا الكبير، مسجد بني أمية، ولكن يا إلهي، لماذا تجبن الكلمات في حلقي، ويتضاعف المؤمنون بالدجال ومعجزاته، لماذا.. لماذا؟

حين كان الزمان شاباً، وكانت الأحلام شابة، ما تزال مفتوحة على كل الاحتمالات، ولكن الاحتمال الأكبر المحمول على القلوب الشابة والأمال الشابة والعواطف الشابة كان... التحرير.. تحرير فلسطين كاملة، والوحدة، والوحدة العربية الكاملة، والعدالة الاجتماعية، العدالة الاجتماعية لكل الناس..

حين كان الزمان شاباً، وكنت أؤدي خدمتي العسكرية ضابط ارتباط مع الضباط الأمميين المكلفين بحراسة حدود فلسطين المتهودة، وكان هؤلاء الضباط عموماً أرفع رتباً و. أكبر سناً فلم يكن فيهم من يكبرنا بأقل من خمسة عشر عاماً، كانوا ضباطاً قد تنقلوا في نقاط ساخنة كثيرة من العالم، وكانت نواقذهم المعرفية على العالم كبيرة، وكنا خارجين حديثاً من حرب هزيمة، هي حرب 1967، كنا كما كان الجيل كله موزعاً بين جرح لا يندمل من هزيمة كنا نعتقد أنا لا نستحقها، وبين آمال كبيرة كنا نعتقد انا محققوها وواصلوها إن لم يكن اليوم فغداً، ولم لا. فالتجارب القريبة كلها تؤكد هذا، استقلال الجزائر، ثورة كوبا، الاستقلالات الإفريقية المتتالية.. كان يبدو ان العالم سيستعيد أخيراً بعض توازنه العادل.

في أمسيات ما بعد العشاء حين كنا نجالس أولئك الضباط التابعين للأمم المتحدة نثرثر ونتحدث، كانوا قادمين من أوطان مستقرة ، رحت من حروب كثيرة، ثم آدارت ظهرها لهذه الحروب. هكذا كانوا ... مستبدلين الحرب بالمسابقات الاقتصادية والاجتماعية،

والثقافية، كانوا يتحدثون عن الديموقراطية لعبتهم المفضلة وهذا هو . أفواهنا متدهشين. أكل هذا يسمى ديموقراطية!.. وحين كانوا يحدثون عن الضمانات الاجتماعية، وتعويضات البطالة . صمام الأمان حتى لا يقع الانفجار الاجتماعي فيكلف المجتمع أضعاف أضعاف تكاليف التعويضات كما حدثني نرويجي منهم، قال لا نريد ثورات ولا هيجانات... فسنكلف أكثر... وكنا نستمع ونتساءل: هل نعيش حتى نرى بعضاً من هذه الصور الوردية، و... لكن أحدهم سألني مرة بعد واحدة من العمليات الفدائية الناجحة التي جرت أواخر عام 1972.. سألني وقد رآني كثير الابتهاج: الفدائيون.. هه حدثني... ما المعنى الأصلي لكلمة فدائيين؟.. ترجمت له الكلمة بمعنى أنهم أولئك الذين كرسوا أنفسهم ووهبوها لقضية يؤمنون بها.. فتابع السؤال: ولكنكم تكررونها بإعجاب أكبر من الكلمة إنها ليست الكوماندوس وليس الغوريللاس، ورجعت إلى ذاكرتي التاريخية، وكانت ما تزال شابة، رجعت إلى السير الشعبية التي مجدت الفداوية الذين وقفوا أمام الصليبيين وأرعبوهم، وذكرت له حادثة تروى عن شيخ الفداوية في حينهم حين جاءه من يعترض على العمليات الفدائية التي كانت تضرب بين الصليبيين وبين الأمراء المسلمين المتعاونين على حد سواء.. قال: أنت تهدر دماء كثيرة فهل تعتقد أنك ستستطيع الاستمرار بهذا الهدر إلى النهاية.

استدعى شيخ القلعة واحداً من الجنود لا على التعيين وكانوا جالسين على شرفة من شرفات القلعة وقال له: اقفز. فقفز الجندي إلى الشهادة حسب اعتقاده دون تردد، أشار إلى ثان وثالث، ولم يتردد واحد منهم، وغص السائل بسؤاله، فانسحب وهو يقول: قضية يدافع عنها أمثال هؤلاء لابد أن تنتصر.

الغريب أن هذه الحكاية وهذا التفسير الذي قدمته لكلمة فدائيين لم يمر عليها بضعة أيام حتى سمعت إذاعة العدو ترد عليها وتسفهها. وكان الضباط الأمميون ينتقلون بين جانبي الحدود في حرية. تسفهها

قائلة بأن أولئك المنتحرين من شرفات القلعة لابد لهم يوماً أن يسأموا حين لا يرون نصراً قريباً، ولابد لهم أن يطلبوا الحياة حين يتزوجون وينجبون الأطفال ويملكون الثروات..

وكان.. ما نعرف جميعاً من صدق نبوءة المذيع العدو. ولكن ما لم يعرفه العدو. ولم يستطيع التنبؤ به هو أن الأمة ليست هذا الفصيل ولا ذاك. ليست أولئك التعبين ولا أولئك السئمين بل الأمة بعر يزخر بالعجائب. فيوماً فدائيون فلسطينيون، يوماً فدائيون سوريون أو لبنانيون، ويوماً ليبيون، ويوماً سودانيون أو مصريون إنهم كل أولئك الذين يضعون لأنفسهم قضية، ولا يرون حاجزاً واحداً لها إلا هذا المستوطن الأوروبي المتغلل بصليب سداسي يسميه صهيونية.

منذ أيام كنت أتفرج على التلفزيون فرأيت أولئك الفداوية السبعين المعتمين بعمامة خضراء كتب عليها الله والوطن.. منذ أيام سمعت أولئك الفداوية السبعين وهم يقسمون بأنهم قد باعوا أنفسهم لله بيعة لا رجعة فيها.

حملوا موتهم على صدورهم وقالوا لقد نذرنا أنفسنا لقضية هزيمة الشر وتحقيق العدل على الأرض بطرد الظالم من عقر اغتصابه...

منذ أيام رأيت أولئك الفداوية السبعين وتمنيت لو لقيت ذلك المذيع الصهيوني لأقول له: إن راية الفداوية ستظل خفاقة، قد تنتقل من يد إلى يد، ولكنها لن تغلق حتى يتم النصر والتحرير.

وأخيراً، وأخيراً جداً، وجدها الخبير اللبناني الحصيف، وجد الحل الذي بحث عنه العرب من الحكماء والفهماء والخبراء لإحراج اليهود و«إسرائيل» والصهيونية العالمية، بل وحتى الولايات المتحدة. لا ليس إحراج الصهاينة فقط، بل والقبض عليهم متلبسين بالجريمة الكبرى، جريمة خيانة وصية الأجداد، بل ووصية يهوه نفسه والتوراة.

بدأت الحكاية مع مقدم سيدين وسيمين هما السيد مايكس والسيد بيكو، اللذان نظرا إلى الخريطة الشامية فرأياها أكبر من حق الشعب المقيم فيها منذ آلاف السنين، فرأيا تقسيمها، ولكنهما حين قسماها إلى حصة إنكليزية وحصة فرنسية كانا يعرفان ان ذلك ليس النهاية، ففرنسة ذات التاريخ النبيل مع الشام منذ الحروب الفرنجية التي أسموها (هم) صليبية وسميناها غزوة بربرية قام بها الفرانك - الفرنجة. فرنسا بيكو كانت تعتقد أنها تستكمل مسيرة تلك الحرب. لذلك عمدت وبدم بارد إلى إحياء التقسيمات الجغرافية التي أوجدها الصراع الفرنجي الإسلامي في ذلك الحين، وكلنا يذكر إمارات العهد الفرنجي، إمارة أورفه وإمارة إنطاكية، وإمارة طرابلس، وإمارة الكرك ومملكة بيت المقدس، وكلها إمارات فرنجية، وإمارة دمشق وحلب والموصل وكانت إسلامية، وكانت هنالك إمارة متنازع عليها وكانت إمارة بصرى.

ما فعله المندوبون الساموّن (الشدة ليست غلطة مطبعية) كان أحياء التقليد الصليبي، فأعطيت أورفة لتركية، وصنع من إمارة إنطاكية دولة أسموها في ذلك الحين دولة جبل العلويين وصنعوا من إمارة

طرابلس دولة لبنان الكبير. ثم صنعوا من إمارة الكرك دولة شرقي الأردن، أما مملكة بيت المقدس فقد وهبوها إلى مساكين العالم من اليهود. ثم أضافوا إلى هذه الدويلات دولة دمشق ودولة حلب وأحيوا إمارة بصرى بدولة جبل الدروز هذا ما فعله سادة الغرب. فماذا فعل أجدادنا أبناء العشرينات والثلاثينات لقد رفضوا هذا التقسيم رفضاً باتاً وكافحوا حتى استعادوا وحدة الأراضي الشامية ولكن هل اعترفوا يوماً بهذه الخطوط التي رسمت بالقلم الرصاص.

التاريخ يؤكد انهم ابداً لم يعترفوا بهذه الحدود، فسعيد العاص ابن حماة مضى لحرب فرنسة في إمارة طرابلس - لبنان الكبير، ثم حين حوصر اكمل رحلته الجهادية الى فلسطين فحارب فيها حتى استشهد مؤكداً الا وجود لدولة اسمها فلسطين، عربية كانت أم يهودية، بل هي الجزء الجنوبي والأصيل من بلاد عظيمة اسمها بلاد كنعان أو بلاد الشام. وعز الدين القسام ابن جبلة مضى يحارب في فلسطين حتى استشهد فيها. وجاء عزت دروزة وفلسطينيون كثيرون قبل النكبة إلى دمشق يشاركون في البرلمان وفي الأحزاب وفي التخطيطات لاستعادة بلادهم الكبرى حريتها. وجاء لبنانيون (تسمية لاحقة) إلى دمشق وسوريون إلى لبنان فشاركوا في الحكم وليس شوكت شقير، رئيس الأركان في الجيش السوري في خمسينات القرن بالاسم النكرة.

المهم، وعوداً إلى البداية، إلى الحل المفحم السحري الذي اكتشفه الخبير اللبناني الذي طلب إليه إعداد وثائق تؤكد الحق اللبناني في قرى سبع تحتلها إسرائيل منذ عام النكبة.

الخبير - لافض فوه - وحسب مجلة الكفاح العربي العدد 801 تاريخ 6-12-1993 اكتشف - لاحظوا اكتشف - أن للبنان الحق ليس في قرى سبع في أصبع الجليل احتلها الصهاينة عام 1948 لا، بل للبنان الحق في عشرين قرية هناك ولكن كيف. لقد رجع الخبير إلى التوراة فمحصها وحققها ليجد أن حيرام ملك صور التاريخي كان له ديون على

سليمان - إياه - سليمان باني الهيكل المدعى - لم يستطع سليمان وفا - الديون، فماذا فعل سليمان وهب حيرام عشرين قرية في الجليل بدلا عن ديونه..!! ونحن - الخبير - نطالب الآن بهذه القرى الهبة.

لا - أرجوكم، لا تضحكوا - لقد وصلت بنا الحال إلى هذا - لقد وصلت بخبرائنا وفهمائنا وحكمائنا إلى هذا.. لقد أقررنا بحق اليهود في فلسطين أقلم يهبها لهم يهوه، لقد أقررنا بحق اليهود في كل الأراضي المذكورة في التوراة، وكلنا - ومن التوراة - سنستقذ عشرين قرية لم يستطع سليمان الاحتفاظ بها فوهبها لحيرام!.

ترى ماذا سيقول عنا أحفادنا يا أبناء الحيرام!.

ويتحدثون في الحكايات القديمة عن ملك كان اسمه دافيد واشتهر باسم دافيد الملك. هذا الملك كان يحكم مدينة اسمها يابوس ويتحدثون أنه كان يوماً يتفسح على سطح قصره فرأى في بيت جاره امرأة تستحم في باحة بيتها فأعجبه عريها وجمالها فأرسل خدمه فجاؤوه بها وأخذها إلى الحريم حيث استمتع بها أمداً حتى جاءته المرأة تبكي: أنا حامل.

اسقط في يد دافيد فهناك فضيحة قادمة فالمرأة وحيدة وزوجها في الحرب منذ شهور وحين يعرف الناس بحملها فلا عقاب لها إلا الرجم حتى الموت. وإذا ما أقرت عليه فاعلاً. فهناك الفضيحة. فكر، فكر وأخيراً وجد الحل. إنه استدعاء الزوج من الجبهة بحجة حمل أخبار الحرب حتى إذا ما أوصل الأخبار، أمره بالمضي إلى بيته والاستراحة قبل العودة إلى الجبهة وبهذا ، تضيع الطاسة . وينظف اسم المرأة، وجاء الرجل وكان اسمه أوريا، ولكنه خيب ظن سيده حين وجده في صباح اليوم التالي نائماً أمام باب قصر الملك. فاستدعاه وسأله، ولكن لمَ لَمْ تمض إلى بيتك فتستريح وإلى زوجك فتسعدها. فجاءه جواب الرجل: وهل يليق بالضابط أن يستريح ويستحم، وزملاؤه وجنوده في الحرب والغبار.

أدرك دافيد أن الرجل عنيد فأمر بإعادته إلى الجبهة مع رسالة سرية تقول: ضعوه في مقدمة المقاتلين وفي أماكن الموت. وهكذا كان ومات أوريا وضم دافيد المرأة إلى حريمه، فغضب الرب لهذه الجريمة.

فقال له: فضحت الرجل سراً وسافضحك في حريمك علناً وقد الرجل سراً وساقتل قلبك علناً.

ومرت السنون وشاخ دافيد، وكان له ابن اسمه ابشاليوم، وكان الابن ينتظر وفاة أبيه ليرث عنه الملك،ولكن الأيام طالت بدافيد وابشالوم ينفخ من الغيظ. وأخيراً قرر أن يستولي على الملك بنفسه فاغتنم غياب أبيه خارج المدينة فقام بانقلاب عسكري على أبيه واستولى على المدينة، وحين رجع دافيد مع جيشه ليحاصر يابوس العاصمة انتقم أبشالوم من أبيه بأن جمع نساء أبيه كلهن ووضعهن على سطح القصر وأمر جنوده بان يفسقوا بنساء أبيه على سطح القصر وأمام عيون دافيد ورجاله.

ومع ذلك لم يحقد دافيد على أبشالوم، بل قال لجنوده ترفقوا لي بالفتى أبشالوم.

انهزم جند ابشالوم وهرب ابشالوم على بغلة وكان لسرعته ان علق اثناء فراره بشجرة بطم فأخبر الرجال قائد دافيد بأن ابشالوم عالق بالبطمة فأسرع القائد وقتله وطرحوا جثته في جب. وأسرع الرسل يبشرون دافيد بقتل ابنه ابشالوم وانتصاره عليه. فأنزعج دافيد وصعد إلى علية القصر وأخذ يبكي ويلطم صدره. ويصرخ أبشالوم، أبشالوم، يا ليتني مت أنا وعشت أنت يا ابني يا ابني.

هذه الحكاية استخدمت وتستخدم دائماً للدلالة على النصر المر، النصر الذي لا يأتي إلا بفقد أغلى ما لدى الإنسان، ابنه. شفيقته جيدة وصارت كلمة أبشالوم أبشالوم رمزاً للنصر المرور الذي يعكس على المنتصر حزناً ومرارة.

حين سمعت منذ أيام عن الحادثين التخريبيين السابقين اللذين جريا في وقت واحد. واحد في مدينة أوكلاهوما في أقصى الغرب، وواحد في يوكوهاما في أقصى الشرق لم استطع إلا ان اتذكر بعين الذهن

رجالات الولايات المتحدة وهم يلطمون ويبكون صارخين: أيشالوم، أيشالوم.

فمنذ سنوات قليلة وبعد رحلة صراع طويلة استخدمت فيها كل الأسلحة، وكل الشعوب وكل المقدرات استطاعت الولايات المتحدة أخيراً أن تنتصر على توأمها الاتحاد السوفيتي.. هذان التوأمان اللذان ولدا لينتصرا على العالم وليحكماه بعد الحرب العالمية الأولى وأدركا نضجهما بعد الحرب العالمية الثانية فحكما العالم، ولكن التوأم الأمريكي حين قتل توأمه السوفيتي (والتوأم السيامي توأمان ملتصقان بعدة أعضاء حيوية إذا ما مات أحدهما مات الآخر بعده بأمد قصير) لم يكن يعلم أنه قد قتل توأمه السيامي. أو أنه علم وغامر وظن أنه ناج من قدر التوأم السيامي المحكوم بقدر شقيقه وبشقه.

حين قتلت أمريكا وبعد صراع طويل الاتحاد السوفيتي لم تكن تعلم أنها قد سدت طاقة الخلاص التي كانت كوة أمل شدت البشرية لحوالي قرن من زمان. والبشرية التي اعتادت وعاشت وعند فجر الخليقة على وجود كوة خلاص ما. هي الأمل للخلاص من الظلمة والظلم والقدر العاتي. هذه البشرية التي كان سبارتاكوس يوماً والمسيحية يوماً والإسلام يوماً والقرمطية يوماً أملاً لها ولا تنسى المهدي الذي تنتظر الخلاص على يده في كل قرن.

هذه البشرية التي وجدت في الثورة الفرنسية في نهايات القرن التاسع عشر أملاً ثم خاب هذا الأمل مع بدايات التاسع عشر على يد الجنرال بونابرت ثم الملك الكئيب لويس الذي تلاه. هذه البشرية التي رأت طرق الخلاص تنسد لجأت بعد الهزيمة إلى العدمية التدميرية والفوضوية التي ترى في هذا العالم سجناً لا أمل للفرد بالسيطرة على مقدراته، فالجيل السابق قد استولى على كل شيء. السلطة والثروة، والمعرفة. فقدان الأمل هذا والشعور بأن هذا العالم ليس لي، بل عالم معاد لم يترك لي موطئ قدم فيه، فماذا أصنع لهذا العالم..

هناك خياران دائمان أمام الشبيبة في مواجهة هذا العالم المعادي، المخدرات، أو العدمية أي الانتحار الفردي أو الانتحار وتحرر العالم معه.. وها نحن قد رأينا في أوكلاهوما وفي يوكوهاما أولى ضربات العدمية التي لن تقف حتى تدمر التوأم الآخر الولايات المتحدة.

إن العقود السبعة أو الثمانية التي انقضت من هذا القرن والتي جعلت من الاشتراكية أملاً للتغيير وأملاً للإمساك بمقاليد التاريخ والمصير.. هذه العقود ختمت بالشمع الأحمر مع سقوط الاتحاد السوفيتي ووفاة شق التوأم السيامي الأول، وها هي الدائرة تسير في طريقها المعهود.. فقدان أمل، عدمية، تدمير للذات ثم سقوط الشق الآخر للتوأم.. وعندئذ ستبرز طاقة أخرى للحلم، طاقة لا بد منها حتى نستطيع احتمال هذه الحياة، ما هي هذه الطاقة، أين ستنبثق.. تلك هي مشكلة البشرية التي جعلت رجالات الولايات المتحدة يلطمون الآن في سرهم ويصرخون: أيشالوم، أيشالوم يا شقي السيامي الذي أضعت.

جمال حمدان هذا العلم العربي العظيم والذي رفع علم الجغرافيا إلى ساحة الأدب والفهم السياسي العظيم، هذا الرجل الذي وضع أهم كتاب في الجغرافيا السياسية (شخصية مصر).

هذا الرجل الذي مات محترقاً في بيته الصغير بعد أن استقال من الجامعة واعتزل العالم تماماً، والذي يتحدث عنه الناقد الكبير فاروق عبد القادر متسائلاً عن ظروف موته، فيقول:

لسنا نعرف حتى الآن وعلى وجه اليقين كيف كان موتك، والرواية المتداولة عن انفجار انبوبة الغاز ومن ثم اشتعال النار في جسدك، والموت بصدمة عصبية، أقول إن تلك الرواية مفتوحة لثغرات عديدة.

1 - أثبت الصحفيون والمحققون الذين دخلوا إلى الشقة يوم الفاجعة أن أنبوبة الغاز سليمة لم تنفجر.

2 - أن النار قد اشتعلت في النصف الأسفل من الجسد، ونسبة الحروق لا تكفي لاحداث الوفاة.

3 - كنت من ممارسي اليوغا الكبار (وهل كانت حياتك كلها إلا جهودا مضنية لقهر رغبات الجسد وإعلاء شأن العقل والإرادة) وممارسو اليوغا لا يصدمون عصبيا لمرأى حريق صغير.

4 - لماذا يا سيدي لم تدفعك الرغبة في الحياة إلى الاستنجاد بالآخرين، أو محاولة التماس سبيل للخروج.

5 - أين مسودات أعمالك التي كنت عاكفاً على إنجازها، وأنت

قد قلت في لقاء صحفي إنك كنت على وشك الانتهاء من عملين كبيرين لكل منهما صفة الموسوعية والشمولية. الأول عن اليهودية والصهيونية. والثاني عن جغرافيا العالم الإسلامي. وقد أكد الناشر صديقك والصحفيون الذين دخلوا الشقة بعد الفاجعة انها تخلو تماماً من تلك المسودات، فأين ذهبت؟

إن غياب تلك النصوص هو ما يلقي بظلال الشكوك حول الحدث كله، مما يفترض وجود مستفيدين من عدم خروج كتاب ـ اليهودية والصهيونية ـ إلى الناس.

فإذا ما عرفنا أن ديزموند ستيوارت الذي وضع كتاب ـ القاهرة ـ قد مات في حادث غامض حين احترق بيته في قبرص، كان لنا أن نشدد على الإشارة بأصابع الاتهام إلى أعداء الحضارة والفكر والذين وصفهم جمال حمدان بقوله: ماذا تعني (إسرائيل) علمياً وموضوعياً في الجغرافيا السياسية.

1 ـ إن (إسرائيل) ظاهرة استعمارية صرفة. فهي قد قامت على اغتصاب غزاة اجانب لأرض لا علاقة لهم بها دينياً، او تاريخياً او جنسياً.

إنه استعمار لا شبهة فيه بالمعنى العلمي الصارم، و(إسرائيل) بالتالي تمثل جسماً غريباً ودخيلاً مفروضاً على الجسم العربي، وغير قابل للامتصاص أبداً، ولكنه حتى الآن غير قابل للفظ أيضاً، وبين هذا وذاك يبقى عنصراً للاضطراب..

يبقى بؤرة حرب كامنة، ومفجر صدام استعماري ـ تحريري مسلح.

2 ـ (إسرائيل) استعمار طائفي بحت، والدولة دينية صرفة. فهي تقوم على تجميع اليهود واليهود فقط في غيتو سياسي واحد، ومن ثم فأساسها التعصب الديني، ابتداء، وهي تبعث بذلك شبهة صليبيات

جديدة في منطقة لا تعرف إلا التسامح الديني تقليدياً، إن الحروب الصهيونية Zionades هي الحروب الصليبية الجديدة neo-crusades.

3 - (إسرائيل) استعمار عنصري مطلق، فرغم أن اليهودية ليست قومية، واليهود ليسوا عنصراً جنسياً بأي معنى، فإن فرضهم لأنفسهم كأمة مزعومة يجعل منهم ومن الصهيونية حركة عنصرية أساساً، بكل معنى العنصرية من استعلاء وتعصب واضطهاد ودموية.

4 - (إسرائيل) قطعة من الاستعمار الأوروبي عبر البحار، القيادة والسيطرة فيها للاشكناز، وهي تعتبر نفسها دولة غربية، لا شرقية، إنها جزيرة أوروبية على ضلوع آسيا ومستعمرة غربية في قلب الوطن العربي.

5 - (إسرائيل) استعمار استيطاني في الدرجة الأولى وهي حالة شاذة لا مثيل لها بين كل نماذج الاستعمار الاستيطاني لأنها تجمع أسوأ ما في هذه النماذج.

6 - (إسرائيل) تجسيم للاستعمار متعدد الأغراض، فعدا الجانب الاستيطاني فهي تمثل الاستعمار الاستراتيجي والاستعمار الاقتصادي، فوجودها غير الشرعي رهن من البداية إلى النهاية بالقوة العسكرية، وبكونها ترسانة وقاعدة وثكنة مسلحة.

دراسة طويلة وعميقة واستراتيجية للكيان الصهيوني.. ترى هل سمع بها أولئك المتحدثون والمثرثرون عن «السلام والأخوة والقرابة» مع العدو الصهيوني..

حين أهدتني دار كنعان للدراسات والنشر كتابها الجديد (جان جينيه شعرية التمرد) لم اهتم كثيراً للكتاب، فقد كان هنالك دائماً حاجز بيني وبين هذا الرجل. حاجز أقامته سيرته الشخصية وحياته التي كان يباهي بها، ورغم الدعاية الغربية الشديدة له، ورغم كتابة سارتر كتاباً من ستمئة صفحة عنه سماه فيها القديس جينيه، فقد كنت محمياً ضمن رفضي له المدعوم دائماً بعدم خديعتي بلعبة الدعاية المكثفة محلية كانت أم عالمية، فأنا احتفظ لنفسي دائماً بالراي الأخير.

المهم قلبت الكتاب وقرأت فهرسه فهالتني الأسماء العربية الكثيرة التي أجرت حوارات معه، ليس حوارات فقط، بل وكتبت ذكريات عن لقائها به مرة. وترجمت بعض مقالاته، وكان بين الأسماء الراحل سعد الله ونوس، والكاتب المغربي محمد براده، بل والروائي المغربي الذي يشترك مع جينيه في كثير من الأشياء محمد شكري ومثقف كان ضابطاً سورياً هو غازي أبو عقل، بل وعلي الجندي، يا إلهي... ما الحكاية.

قلبت الكتاب ثانية فوقعت على فصل صغير لجان جينيه اسمه نساء جبل الحسين، وقرأت: «نساء فلسطينيات أربع أعطينني الصورة الأولى، وجعلنني أفهم أسلوب حياتهن. في حي من أحياء عمان في حمى جبل الحسين، أربع نساء عجائز متفضنات يجلسن القرفصاء حول موقد منطفئ، حجران أو ثلاثة علاها السواد وإناء عتيق من الألومنيوم لإعداد الشاي. قلن لي: اجلس... نحن هنا في بيتنا كما ترى. أتشرب الشاي؟ وابتسمن، في بيتكن؟.. نعم.. ويضحكن... لم يبق سوى الحجارة لإشعال

النار. لقد أحرقوا أكواخنا... كل شيء... من احرقها؟.. اشارت إلى مدافع ودبابات بعيدة.. هم. أنت قادم من فرنسا. يقال إن بلادك تدعم العرب. فهل يستطيعون عندكم التمييز بين عرب وعرب.

ونشب شجار مرح بين النساء العرب حول المصير الذي يجب أن يلقاه الطغاة العرب. كن في ذروة البهجة القادمة من خلف البؤس والأسى. ولكنهن كن على استعداد دائم للمعركة.. واين الرجال؟ أبناؤنا فدائيون في الجبل. والآخرون؟ هناك... ودلتني إصبع يد خشنة وجميلة جداً تشير إلى فسحة ضيقة قريبة.. دفناهم هناك.

كانوا مجموعة من العجائز والأولاد والنساء. وقد جعلتني واحدة من تلك النسوة استدرك خطئي بلطف. ولكن بحزم عندما تحدثت عن مخيمات اللاجئين... انت تعني المعسكرات... فالجميع يحملون السلاح وقد تعلموا كيف يقاتلون.

ربما كانت قدرة النساء على الثورة والتمرد أكبر مما هي عند الرجال. لقد بدون وكأنهن يحتفظن بمخزون مدهش من القدرة على التصرف والعمل.

قلت يوماً لامرأة منهن: إن النساء يتصورن إمكانية الثورة بهدوء أكثر من الرجال، فأجابتني ضاحكة: الثوار؟.. نحن نعرفهم جيداً. لقد ولدناهم، وأتينا بهم إلى هذه الدنيا، ونعرف مكامن قوتهم وضعفهم.

. الخلاصة أنت تحبينهم... كانت تناهز الخمسين وابتسمت.. أنا أعرفهم لأني أحبهم.. أتريد شاباً أم قهوة... كان ابنها فدائياً في فتح اما ابنتها وصهرها فكانا في الصاعقة.. بدا لي أنهن يتجهن بسرعة أكبر نحو الحل الواضح».

سحرني الفصل. فقررت قراءة الكتاب، وهكذا صدمني الحوار الذي أجراه معه سعد الله ونوس فهاهو جينيه يقول لونوس:

«للأسف لاحظت انكم موشومون بالثقافة الغربية، وانكم تشكلون

انفسكم وفقاً للنموذج الأوروبي. وهذا يعني أن الغرب اصطادكم في فخه الماكر. لقد نجح في أن يصبح مرآتكم، وأن يحفر في أعماقكم شعوراً مستمراً بالنقص حياله. وقد جاءت هزيمة حزيران وهي بكل مظاهرها هزيمة أمام الأوربي لتعمق شعوركم بالنقص، وتضاعف حاجتكم لأن تعكس لكم المرآة صورة مرضية، ولكن يا للمفارقة. أنتم تبحثون عن صورة مرضية في مرآة لا تعكس إلا سيماء الضعف والنقص والانسحاق. هذا هو الفخ الذي تتخبطون في حبائله حين يصبح العدو بالذات مرآتكم ومرجعكم في الثقافة والسلوك والطموح فإني أتساءل أين، وكيف، ومتى تأملون هزيمته... اسمع. هل تعرف أن أهم معوقات المقاومة الفلسطينية هو أنها لم تستطع أن تفلت من الفخ الغربي. لقد استدرجها الفخ بكثير من المكر.. انظر إلى اهتمام بعض زعماء المقاومة ومثقفيها بما تكتبه الصحف الأوروبية عنهم.. أحياناً أحس أنهم يتصرفون وفقاً لما يمكن أن يرضي هذه الصحف وقراءها.. حتى التصريحات والبرامج السياسية تراها وهي تصاغ على هذا الأساس».

هذه التصريحات كتبت في أوائل السبعينات أي منذ أكثر من ربع قرن وهاهي الأيام تثبت القدرة النبوئية لرجل لم يخدعه الغرب ولا الإعلام الغربي، فرأى الملك (عارياً) وصرخ: الملك عار ولم ينسج الكذابون من حوله إلا الوهم...

قرأت الكتاب وسحرني... وأعدت النظر كاملاً في نتاج الرجل فهو أكثر من مهم، وشكراً لدار كنعان التي أعادت تقديم هذا الكاتب إلينا. فنحن بحاجة إليه لإخراجنا من دوامة رؤية أنفسنا بالمرآة الإعلامية الغربية فقط.

واخيراً، اخيراً جداً، وبعد أن كدنا نيأس من وقوع كيد هؤلاء الناس في نحورهم، اخيراً، واخيراً جداً، وبعد نزف دماء مئات الآلاف من الدماء العربية المظلومة والمدعوم قتلها من قوى القتل والإرهاب والدمار العالمية، اخيراً، واخيراً جداً، أقدم شاب مجهول حتى مساء السبت الرابع من تشرين الثاني على قتل الرجل الأكثر ولوغاً في الدم العربي، أقدم ايغال عامير على قتل اسحق رابين ذابح أهلنا في القدس والجولان والأمر بتحطيم ايادي اطفالنا في غزة والضفة الغربية.

قتل عامير رابين: فاهتز العالم الحر.. اهتز يلتسين كما اهتز كلينتون اهتز كول كما اهتز رجال كنا نظنهم عرباً، بل وبلغ الاهتزاز برجل كشيفاردنادزه حاكم جورجيا أن استعجل الانتخابات التي ستحدد مصيره.. وكأن الانتخابات في هذه البلدان تحدد مصير حكامها!.. استعجل شيفاردنادزه الانتخابات وترك كل شيء مندفعاً لأداء واجب الوداع الأخير والتحية.. كيف انكشفت كل هذه الصداقات فجأة. رئيس وزراء دولة صغيرة يسمونها «إسرائيل» في المقاييس الجغرافية هذا الكيان واحد من أصغر الكيانات في العالم مساحة، وفي تعداد السكان، فلسطين المتهودة واحدة من الدول الصغيرة جداً، فتعداد يهودها لا يعادلون سكان مدينة متوسطة كدمشق، ولكن.. يا إلهي كيف اهتز العالم هذا الاهتزاز، فجاء الرؤساء والملوك والحكام العلنيون والسريون لأداء تحية الوداع للصديق الكبير الذي غادر مقتولاً.

في رواية العراب الرواية التي أحدثت ضجة كبيرة في امريكا

والتي كتبها كاتب كان شبه مغمور حتى ذلك الحين إيطالي يسمى ماريو بوزو. يقدم لنا بوزو عالماً قد يبدو متخيلاً، ولكنه إذا ما قارنته بالواقع تبدى لك اشد واقعية من كثير مما تراه راي العين ولا ترى ما وراءه.

قدم لنا رجلاً ظاهرة ملك شركة لاستيراد زيت الزيتون من إيطاليا، ولكن عالمه السري، العالم الذي بناه بالقسوة، والرحمة لمن يقر له بالزعامة، بناه بالمصالح المشتركة، وحماية المصالح بالتشارك فيها مع أقوياء آخرين، بناه بالإفساد الداخلي لبنية المجتمع ليزرع في هذا الفساد برائنه ويبني مملكته ويصنع ما سيصفه المؤلف بقوله: بعد سنين سيقوم أبناء الدون وأحفاده بالدراسة في أحسن الجامعات، سيحتلون أرقى المناصب، وسيصبحون أعمدة المجتمع القادم الذي لن يسألهم من اين حصل أباؤكم على ثرواتهم.. وعندئذ سيصبحون ابناء المجتمع البارين.. أعمدة المجتمع..

بعد مغامرات يتكشف لنا فيها قوة الدون رئيس المافيا، ثم جراحه وهزائمه التي تكون ذروتها في مقتل ابنه الأكبر ووريثه المفترض.

بعد هذه الكارثة يدعو الدون سيد المافيا إلى اجتماع عام لكل رؤوساء المافيا في كل أرجاء الولايات المتحدة، فيفاجئ الجميع في دعوته إلى المصالحة، وليس في سعيه إلى الثأر، يدعو إلى الصلح ويقيم معاهدة تقاسم للمنافع وحسن الجوار في ديبولماسية عالية مغلفة ومغطية طبعاً للدماء التي انسكبت أو ستنسكب، فلقد سئم وسئموا الحرب، وأن الأوان لجني ثمار السلام حتى الحرب القادمة على الأقل!..

هذا الحفل الكاشف للعالم السري الذي يديره عراب وعرابون للمافيا، عراب لا يزيد علناً عن صاحب شركة تستورد الزيت، فيكشف الاجتماع عن انه رجل على هذه القوة والسيطرة والأصابع الأخطبوطية.. هذا الاجتماع الكورليوني. الا يذكرنا بهذا الحفل العجيب العظيم الذي قدم بعض مدعويه دون دعوة، فهم من أهل البيت، والبعض قدم مسحوباً من أذنه بيد من يملك الأمر بالدعوة، والبعض جاء ببساطة لحضور

الاجتماع الطارئ الذي سيقرر الخطوات التالية بعد وفاة العراب، أو واحد من رجال العراب الذي ما يزال خفياً.

ولكن واقولها مرعوباً: أترى من جاؤوا كانوا كما نهمس حياناً غير مصدقين لأنفسنا؟.. اتراهم أعضاء فيما يسمى بالحكومة العالمية الخفية، جاؤوا يودعون واحداً من عمدها، والتدارس فيمن سيحل محله للخطوات القادمة..

سؤال محير.. الشهود موجودون، الإشارة واضحة، ولكن الأفواه عن هذا الأمر بالذات صامتة صمت القبور.

هودوا فلسطين، جمعوا إليها الأفاقين والحالمين، ومشتهي الدم، جمعوا إليها الدمويين ورجال العصابات، ولكنهم جمعوا إليها، ولنكن صادقين مع أنفسنا الإداريين الجيدين والقياديين الجيدين فجعلوا منهم دولة حاربونا بهم وهزمونا فلم نكن نملك الاداريين الجيدين لادارة شعبنا الطيب والانتصار به.

ولكن هذا الشتات وهؤلاء الناس مختلفوا الأهواء والطباع والرغبات الذين شدهم طوق الخوف والبناء. وها هو الطوق يتحلل وها هي النزاعات والتشققات التي كنا نصرخ معلنين عن وجودها وتصمتنا قوة العراب، ها هي التشققات اخيراً تظهر على السطح. وها هو ـ يا للهول ـ يهودي يقتل يهودياً!.. ولكن اهي المرة الأولى؟!.. أفليسوا قتلة لانبيائهم!..

في مفتتح مقال قديم لي كنت قد نشرته في صحيفة البعث السورية، كنت قد قلت: وكان لفلسطين طلسماً ما اقترب منه أحد بشر إلا قتله وذكرت احمد ماهر وعبد الله والسادات وها هو أخيراً اسحاق رابين ينضم إلى قتلى فلسطين.. ترى على من سيكون الدور القادم!...

القصدية والوحي

في أمسية أدبية لي طلب إلي فيها الحديث عن تجربتي الأدبية، وعن عاداتي الكتابية، وفوجئت فما كنت على استعداد للحديث عن هذا، ولكن الأمر بدا لي وكأنهم اعتادوا هذا مع كل كاتب محاضر فما وجدت طريقاً للاعتذار، وأخذت أتذكر على عجل عاداتي في الكتابة الصحو المبكر، فأنا من حزب القبرات إن كان فيكم من يذكر أن الناس مقسومون إلى حزبين حزب البوم الذي يسهر الليل وينام النهار وحزب القبرات الذي ينام الليل ويسهر النهار. المهم، ركوة القهوة، التدخين الكثيف قبل أن أتركهما معاً، والكتابة لساعات.

ولكن زميلاً اعترض: ليس عن هذا نسأل إننا نسأل عن الوسائل، الأساليب الخطوات التي تتخذها قبل وأثناء وبعد الكتابة وذكرت حواراً كان قد جرى بيني وبين المرحوم غالب هلسا، وكان غالبٌ يقول إنه لم يكن يعمد إلى التخطيط قبل الكتابة، بل كان يمسك الورق والقلم ويكتب تاركاً لشيطان الكتابة القياد حتى الوصول إلى النهاية، ولكنني رفضت مقولته هذه في حينها قائلاً: حتى لو لم تضع مخططاتك، وبرنامجك للكتابة قبل الكتابة، فأنت في الواقع قد وضعتها في ذهنك، أنت قد درست الشخصيات. وهي جزء من ذاكرتك اليومية. في ذهنك. درست مواقع الأحداث.

أنا.. أنا قبل أن أبدأ الكتابة اعتدت على أن أكتب ترجمة كاملة للشخصيات أو ما يسمى بسيرة الحياة، واعتدت أيضاً أن أكتب توصيفاً كاملاً للشخصيات سلوكها، مظهرها الخارجي، انفعالاتها، ردود أفعالها

حتى إذا ما صارت الشخصيات معروفة مألوفة لي انتقلت إلى التوصيف الزمني أو الكرونوغرافي للشخصيات سنوات الولادة، أحداث تلك السنوات في المحيط المحلي والخارجي الانعكاسات الممكنة لتلك الأحداث على الشخصيات إلخ.. وحين أتم كل تلك الخطوات الأولى أمد يدي إلى أصدقائي من الشخصيات وننطلق في مسيرة الكتابة.

وقال أحدهم: ولكنك بهذه الطريقة لا تترك شيئاً للمصادفة، للانطلاق الحر، لجنون الكتابة، وأجبته: ومن قال هذا؟ حتى لو خططت لكامل رحلتك من هنا وحتى القدس تخطيطاً كاملاً، جوازات السفر، وحقائب السفر وهدايا العودة، فهل تضمن عدم حدوث مفاجآت ما على الطريق، هذه المفاجآت هي إبداع الخلق أثناء تشكله!

وقال آخر: أنت تفاجئنا.. أنت تتحدث عن قصدية وتعمد كاملين في الكتابة، وهذا يتناقض مع كل ما اعتدنا معرفته عن الكتابة، عن جنون اللحظة، عن نزول الوحي، عن مفاجآت الخلق، عن الإنسان الحالم الشارد يمشي بين البساتين والحقول يستلهم ربة الإبداع التي ربما نزلت عليه فأثرت حياته بجلون عبقر، وربما أدارت ظهرها وتركته المسكين يتقلب بين البساتين والحقول، ولا وحي.

وضحكت.. هذه الصورة الرومانسية التي حرص الكتاب أنفسهم والشعراء أكثر على تثبيتها في أذهان الناس، لحظة الخلق، انهمار الوحي، نزوة الكتابة، لا يا صديقي، ربما كان هذا ينطبق على بعض الشعر الغنائي، رغم أن شاعراً كزهير بن أبي سلمى، وأبي تمام والمعري لا يمكن أن ينطبق عليهم هذا القول، ولكن الأعمال الكبرى شيء مغاير، فالأعمال الكبرى الياذة هوميروس مثلاً، أو الشاهنامة لا يمكن لها أن تكون بنت لحظة استلهام، والأخوة كارامازوف، والجريمة والعقاب، والكوميديا الإنسانية، ويوليسيز، هذه الأعمال لا يمكن لها أن تكتب أو تنشأ أو تبدع إلا نتيجة تخطيط وصبر طويلين، واركز على الصبر الطويل الذي من دونه لا ينجز عمل كبير.

تذكرت هذا كله وأنا أذكر تلك التحضيرات الطويلة والتخطيطات المديدة للسفر ـ لم أقل العودة ـ إلى القدس. تذكرت هذا وأنا أرى هذه الانهيارات العربية الكبيرة التي جعلت السفر إلى أورشليم يبدو شيئاً عادياً، شيئاً لا يقاوم بالغضب والثورة والهستيريا التي عرفناها في الأربعينات والخمسينات والستينات إلخ. وتساءلت: أتراه، ذلك الكاتب الكبير، المبدع الكبير الذي وضع السيناريو الكبير لرحلة السفر إلى أورشليم كان قد وضع أيضاً الترجمات لشخصيات روايته ـ البيوغرافي ـ والكرونوغرافي الكامل على الطاولة أمامه قبل أن يبدأ الكتابة التي نراها الآن.

كنت أعبث في مفاتيح الراديو في واحد من تلك الصباحات العربية البهيجة، أبحث عن خبر يغير من جو المرح المحيط بي، وإذ بمحطة تفاجئني بلهجة أنثوية فيها طهارة بنات طي وغنج بنات نابولي تقول: سنيورا سنيوري بونجورنو هسع منقولكم الأنفور مازيوني. آه وقف شعر رأسي. ما هذا الخلط. طليان وعرب في نشرة واحدة. لا، هذا كثير. الإنكليزية وقبلتاها، أعني المحدثة منها الأميركانية، والفرنسية على الرأس والعين، والروسية الصديقة الدائمة! ولكن ما معنى هذه الطليانية واستيقظ يعرب فيَّ شاهراً سيفاً لم يشهره منذ قرون قائلاً: يجب أن تكشف سر هذا الخطأ التاريخي. الا تلاحظون كم يخطئ التاريخ ونحن لا نخطئ.

تحريت المحطة. أمعنت، سألت. وأخيراً اكتشفت أن المحطة مالطا. ولكن ما علاقة مالطا باللغة العربية؟ وصارت مالطا همأ، وصارت ارقاً وصار علي أن اكشف علاقتها: هسع منقولكم الأنفورمازيوني بالعربية. وأنا ككاتب متواضع يحب التاريخ، ويظن مخطئاً أن إجابات الحاضر تكمن في التاريخ أخذت الاحق هذه الجزيرة في التاريخ، فاكتشفت أنها بداث. أعني الجزيرة . فينيقية، وأن الجذر الأساسي للغتها يكمن عندنا. واهتز عطفاي فخراً. فها أنا اكشف سراً تاريخياً. وتابعت لأكتشف أن الرومان ثم البيزنطيين، ثم. يا إلهي. العرب المسلمين لقد استعادوا مالطا فاتصل الجذر الفينيقي بالحفيد العربي وعادت مالطا عربية ولكنهم. ولاحظوا (هم) ما لبثوا أن طردونا ولاحظوا (نا) وصارت مالطا أسيرة لدى (هم) ولكنهم في حملتهم العنيفة لتطهير الجزيرة من (نا) نسوا مؤذنا عجوزاً كان مختبئاً فوق مئذنته فوق. نسوه

حتى هدأت الفورة وعاد التسامح، ولكن الرجل لم يرض أن ينزل عن المئذنة فعمله الوحيد هو أن يؤذن. آه الرجل مؤذن ولا يعرف مهنة اخرى، هل يغير هذه المهنة في آخر الزمان. سمعوه يؤذن وظنوه يغني. آه. بلّلو. بللو. جميل هذا الفلولكور وظل الرجل يفلكر. أي يؤذن فلولكلورياً على مئذنة عتيقة في جزيرة عتيقة اسمها مالطا.

تغير الزمان وتبدل الفرسان، وشهد البيزنطيين وشهد الطليان وشهد فرسان مالطا وكان يتجه إلى الجنوب ويؤذن، وكان البعض يسمعه، ويفهم ويحزن ويألم ولكنه يصمد لهذا الحزن والفهم والألم! وكان البعض يسمع ويتظاهر بأنه لا يفهم فالأذان قادم من بعيد، من مالطا.

وشهد الرجل حرباً كبيرة سماها بالأولى وفلكر: أعني أذن ولكن أحداً لم يهتم بسماعه، فقد كانوا يسمعون فولكلورهم الخاص، وشهد الرجل حرباً كبيرة أخرى سماها بالثانية وفلكر أعني أذن وسمعه كما قلت البعض وحزنوا وتألموا وتوجعوا، ولكنهم صمدوا.

وحين عرفت من هذا الرجل صار همي، وصار أرقي، وصرت اتقصى المحطات اتسلق السطوح لأسمع هذا الفلولكور العربي. وفجأة تولفت المحطات واتسعت الآذان وصرت أسمع المؤذن يؤذن في مالطا، أحببت الصوت القديم المشروخ المثقل بأحزان القرون.. أحببته حقاً، واستبدلت به نشرات الأخبار كلها بالعربية والإنكليزية والفرنسية والروسية، وصار همي ان اسمع هذا المؤذن البعيد البعيد الذي لم يفهمه أهل مالطا وظنوه يؤذن، وما كان يؤذن، بل كان يتجه إلى الجنوب ليقول لأهله ما يسمع.

اخر اخبار هذا المؤذن انه شهد مؤتمراً غريباً، مؤتمراً قسم العالم قسمة جديدة. فأحس أن من واجبه أن يتجه إلى الجنوب ويعلن: يا أهل الخير يقولون أميركا صارت اليوم للأميركيين والعالم كله، ويقولون: وأوروبا صارت للأوروبيين، أنا أريد ان اسألكم نحن لمين. نحن لمين. نحن لمين. وصل إلي الصوت كاملاً فايقظ أحزاناً قديمة وتساؤلات قديمة، ولكني خفت على الرجل فللمرة الأولى اكتشف انه لم يكن يؤدي أذاناً في مالطا.

الأبيض والأسود، العالي والواطي، الكبير والصغير، المبدع والناقد هذا الثنائي الأزلي الذي قامت عليه الحياة والحضارة، وتقوم. هذان المتناقضان اللذان لا يستغني احدهما عن الآخر، فكيف كان يمكن لك أن تعرف الأبيض لولا الأسود، وكيف كان لك أن تعرف الناقد لولا المبدع، وكيف كان لك أن تعرف يهوذا لولا يسوع.

السؤال الذي الح ويلح على الأذهان دائماً هو لماذا تخلى يهوذا عن يسوع وكان حبيبه، ما الذي جعله يبيع صديق عمره ورفيق نضاله ونجي أحلامه، وكانا التوأمين بدراهم معدودات لا تسمن ولا تغني من جوع. ما الذي أغرى الأسود بطعن الأبيض بخنجر من حب مبطن بالحسد والحقد والخوف من أن يتهم سواده بالبياض.

كانت روما وكان البطش، وكان الأفق المسدود، وكان التاريخ السكون، ظلمة أبديون ومظلومون خالدون، الأدوار موزعة، ولا أمل في مخرج يغير الأدوار.

وفجأة ومن ثنايا الغيب برز مخرج يقول: الظلم غير خالد، والظلمة غير خالدة، وللمظلومين الحق في الأمل والحياة، وهب المظلومون رامين قيودهم لاحقين بحامل راية الأمل، هبوا رافضين ألمن ما ملكوا، الحياة كي ينعموا بالحياة الأسعد القادمة مع يسوع. هؤلاء المظلومون تجسدوا وتبلوروا في حواريين أصدقاء أحباء تقاسموا اللحم والخبز والنبيذ. وآمنوا باليوم القادم، العدل القادم، الفرح القادم، واختفاء الظالمين وتغير الأدوار.

تحدث يسوع، تكلم، جعلهم يؤمنون، فهجروا بيوتهم ونعالهم وثرواتهم وارتباطاتهم الأرضية، ولحقوا به موقنين بأن ما يقدمه، وسيقدمه اثمن من كل ما رموا وتركوا ورفضوا.

لكن روما وأورشليم لم تصمتا. روما الظلم الأرضي والعسكر الباطش الخالد المهدد بهذا الفتى المغلل بالأمل، وأورشليم المهددة بكهنوتها التاريخي ومصالحها واتباعها ومؤمنيها وأوقافها وملذاتها الأرضية.

تنبهت روما وأورشليم إلى هذا الخطر المغلل ببسمة طفل بريء، وبدأت في البحث عمن يهدد السلم العام والهدوء العام، ورغم ان يسوع اعلن بأن ما لله لله وما لقيصر لقيصر. إلا أن روما وأورشليم لم تنخدعا بهذه القولة البريئة، فلقد عرفتا أن مجرد وجود بياض جديد غير مدجن هو تهديد لسوادهما الخالد.. فقررتا البطش. بحثتا عن نقطة ضعف ووجدتاها في يهوذا. بهوذا الاسخريوطي، بهوذا الصديق والحزن ونجي الليل ومستقبل الأهات، ومعرف الآلام والشكوك، فضربتا بيسوع من نقطة حبه، من مقتله وائتمن به، من يهوذا صديق العمر.

السؤال الذي الح ويلح هو لماذا طعن يهوذا حبيبه يسوع؟ أعتقد ان معظم الناس ليسوا شديد الايمان، بل إن إيمانهم يتراوح ما بين نصف الكمال وحتى تسعة أعشار الكمال، وكلما كان مد النصر والأمل بالفرج قريباً رايت نسبة الإيمان تعلو، وكلما ضعف الامل والسد الأفق رايت نسبة الإيمان تنخفض، وعندئذ يبرز الضعفاء المتخلون عن رفاق الأمس، عن أحباب الأمس، عن اصدقاء الأمس، يبرز الطاعنون بالخفاء مبررين لأنفسهم الخيانة: السفينة عارقة فلماذا نغرق معها؟ دعنا نعلن للقادمين من أولياء الأمر أنا لسنا من أهل السفينة، ولما كان القادمون من أولياء الأمر اشد مكراً منهم فإنهم لا يقبلون التحلي الشفوي: عليكم أن تروننا هذا علناً، بفعل مادي. وعندئذ تبرز الطعنات وحين يبدأ الطعن بتكاثر الطاعنون، وحين يتكاثر الطاعنون يتبارى الطاعنون في إجادة الطعن ليبرروا أنفسهم أمام اسياد الغد.

هؤلاء اليهوذات سيتكاثرون، فالأفق يزداد سواداً والنوافذ ينضب فيها الأمل، سيتكاثر اليهوذات بين مناضلي الأمس وخونة المستقبل، سيتكاثر اليهوذات بين النقاد شبه العادلين بالأمس، والطاعنين في الغد فروما مرعبة، سيتكاثر اليهوذات بين بيض الأمس ليصبحوا سود الغد، سيتكاثر اليهوذات ليبرروا انفسهم أمام أسياد غدهم، ولكن المؤسي في يهوذا أنه انقذ جسده الدنس في حينه وعاشت ذكراه لمئات السنين ملتقى المباصق ومحط اللعنات من أولئك الذين جاؤوا بعد سقوط روما وأورشليم وكان لهم الحق في حكم أكثر تاريخية وعدالية فأعطوا ما ليهوذا ليهوذا وما ليسوع ليسوع، ما لأبي حيان التوحيدي لأبي حيان وما للصاحب بن عباد وزير عصره وخطير زمنه ويهوذا أوانه للصاحب بن عباد.

صبراً يا يسوعات العالم فالزمن القادم لكم لا ليهوذا.

حين أصيب صديقي بأزمته القلبية الأولى أصر الأطباء جميعاً عليه بوجوب الابتعاد عن التدخين والكحول، ووجوب تخفيف الوزن، ورغم أنه قد ارتعب رعباً حقيقياً بعد تلك الأزمة، فاقلع عن التدخين والكحول والتزم حمية غذائية شديدة إلا أنه ومع مرور الشهور بدأ يخفف من التشدد في حميته الغذائية، ثم الكحولية، ثم التدخينية، وهكذا أصيب بأزمته الثانية، فالتف الأطباء حوله وأصروا على وجوب إجراء جراحة عاجلة له لاستبدال وتنظيف عدد من الشرايين التاجية والمغذية للقلب، ولم يجد بداً من الرضوخ، فإما هذا، وإما الموت، ولكنه وإصغاء لبعض النصائح من بعض الأصدقاء رأى أن يجري العملية في أميركا، ولما كان ثرياً قادراً فلقد نقل إلى أميركا لإجراء العملية.

في أميركا وبعد إجراء العملية، وأثناء النقاهة لم يطلب منه الأطباء الحمية ولا الامتناع عن الكحول، وحين تجرأ وطلب إفطاراً أدسم من إفطار الحمية جاؤوه به، بيضاً وبسطرمة واجباناً وزيتوناً ولما كان قد اسلم مقاديره لإدارة المستشفى الأميركية واثقاً بأنهم يعرفون ما يصنعون فلقد اكل، واكثر من الأكل، وعلى الغداء طلب لحوماً فجيء له بها، ثم دجاجاً وسمكاً، ثم تجرأ فهمس للممرضة يسأل إن كان من الممكن أن يشرب بعض البيرة مع الغداء، ابتسمت، وجاءته بزجاجة بيرة شربها مستمتعاً شاكراً للأميركان فهمهم وضع المريض النفسي، وحين طلب بعض الويسكي جاؤوه بالويسكي، ثم أدركه الخوف: هل يسعى هؤلاء

القوم لقتله، فسأل صديقه الذي ابتسم وطمأنه، فالأميركان يعرفون ما يصنعون.

وهكذا صار إفطاره الثقيل مع الشمبانيا وغذاؤه من اللحم الأحمر والويسكي وعشاؤه المتنوع مع النبيذ، ولكن ما فاجأه أن الويسكي لا يسكره، والشمبانيا لا تدغدغ أعصابه والنبيذ لا يتعتع لسانه، وما فاجأه أكثر هو أنه حينما تجرأ مرة، فوقف على ميزان الغرفة يزن نفسه هو اكتشافه أنه قد فقد عشرة كيلو غرامات منذ دخوله المستشفى، فارتعب واندهش، فما يأكله ويشربه يومياً كان كافياً لجعل وزنه يتضاعف،ولكن ما يحصل هو أن وزنه أخذ يتناقص عشرة بالمئة، عشرين بالمئة، ثلاثين بالمئة، وحين وصل الأمر إلى الأربعين بالمئة قرر الثورة والتساؤل: كيف يجري هذا؟ وعندئذ قال له صديقه الذي نصحه أول مرة بالعلاج عند الأميركان بأن الأميركان إنما يداوونه من ضعفه أمام المغريات بالطعام والشراب المصنع على الطريقة الأمريكية، وحين تساءل طالباً الشرح أجابه بأن اللحم الذي أكله لم يكن لحماً، بل كان مواد مصنعة من البلاستيك الذي يملأ المعدة والأمعاء ولا يقدم غذاء للجسم على الإطلاق، أما الكحول فليست إلا مياهاً مصبوغة منكهة لتشبه كل أنواع الكحول ولا كحول.

وهكذا أخذ صديقي ينحل، وينحل حتى كاد يشف ويختفي..

ما يعنينا من هذه القصة كلها هو أن صديقي العربي ذا الجسد المصاب بالإدمان، والمستأنف الشرايين المزمن نتيجة لعاداته السيئة وحياته المستسلمة للمنع الأبدي لم يجد علاجاً إلا بالأوهام الأميركية هلام بلاستيكي كطعام، وماء لا يروي عطشاً كالشمبانيا والويسكي دون كحول.

خمسون عاماً من الضياع والفقد والتشرد لم يجد لها حلاً إلا الصديق الأميركي الذي يملك 70٪ من الأوراق كما علموه وأقنعوه ولكن

هذه الأوراق ها هي تتكشف عن ضياع أرضنا من مئة بالمئة إلى ثمانين بالمئة إلى النزاع الشديد حول 13٪ أو 11٪.

يغذوننا بالأحلام والهلام والجسم يتساقط وينهار لسبب بسيط هو اننا وثقنا طويلاً بالمعالج الأميركي. هذا عمن آمن بالحلم الأميركي الهلامي أما أولئك الذين حملوا مفتاح بيوتهم عالياً، أولئك الذين لم يؤمنوا يوماً بالمعالج الأميركي ولا بالرجيم الأميركي، فلهم المستقبل لأن أجسامهم ستظل لهم ومستقبلهم سيظل لهم، والأرض ستظل لهم.

أنا الفيل الكبير، الكبير جداً، خرطوم طويل، وقوائم عملاقة، وجذع مهول، وآذان تثير الزوابع. كل شيء فيّ كبير، هكذا خلقني الله، لم اكن دائما كبيرا فلقد كنت فيما مضى صغيراً، ليس صغيراً جداً، ولكن صغيرا الى حد معقول. قالت لي أم وهي تمشي بي في دروب الغابة: احذر الفخ يا ولدي!.

ونظرت إليها بعيني الجميلتين كما اعتادت وصفهما، وحركت اذني فانتشرتا مروحتين من حولي: وما الفخ يا أمي؟.

- الفخ.. أم انه مأزق جنسنا ومقتله. يعرفون أنهم لا يستطيعون مواجهتنا مباشرة، فليس من حيوان في الغابة يجرؤ على الوقوف في مواجهة فيل. لذا فهم يلجأون إلى الحيلة، ليس الحيلة فحسب، بل إلى استغلال عواطفنا الضعيفة، عاطفة الحب، والعرفان بالجميل، والاستجابة للتودد.

ولكن، هذه عواطف راقية.

صحيح، ولكنهم يستخدمونها ليحولونا فيما بعد إلى عبيد.

- لا افهم.

- يكون أحدنا يا ولدي ماشياً في هذه الغابة سعيداً يقطف غصناً من هنا، وعشبة من هناك، لايؤذي، ولا يتمنى الأذى لأحد، وفجأة تختلط الدنيا من حوله، هدير طبول، وقرع صنوج، وعواء بوقات، وصرخات، وهلاهيل، فلا يجد الفيل مندوحة من الاندفاع إلى الأمام

مستجيباً لهذه الضجة المرعبة، ولكنه كلما تقدم إلى الأمام لحقته الأصوات، وأحس بدروب الغابة تضيق من حوله، ولكن جنون الصرخات والأناشيد والهلاهيل من خلفه تدفعه إلى الأمام حتى تتفتح الأرض من تحته فجأة فإذا هو في حفرة واسعة مسورة بالرماح والأسنة والوجوه الملس.

وصرخت في رعب: لا.

- بل هذا ما يتم، وعندئذ يتقدم الصراخون النواحون ويأخذون في ضرب الفيل ضرباً موجعاً غير قاتل، ولا يجد المسكين مهرباً إلا أن يصرخ طالباً العون، أي عون، وعندئذ يتقدم رجل آخر في ملابس مغايرة، فيطردهم ويشتمهم، ويعود إلى الفيل الحبيس الموجوع، فيلقي إليه بعض الطعام وبعض الماء ويمضي، وما إن يمضي حتى يعيد الصراخون هجماتهم، ولكن، وقبل أن يوجعوه تماماً يتقدم ذو الثياب المغايرة فيطردهم، ويواسي الفيل الحبيس.

- فهل يطلق سراحه من الفخ؟

- أبداً، إنه لا يفكر في هذا أبداً، ومع تقدم الأيام يعتاد الفيل أن يصرخ طالباً نجدة الرجل في الثياب المغايرة حالما يرى المهاجمين، وهكذا تتقدم الصداقة بينهما إلى أن يذعن الفيل الهائج الثائر الضخم المتمرد ليدي هذا الممثل الضعيف، وما يزال يذعن حتى يصبح عبداً له يستخدمه في الحمولة والجر، بل يستخدمه في مهاجمة الفيلة الأخرى واصطيادها وترويضها.

حفظت الدرس يا أمي، لن أقع في الفخ أبداً.

مضيت إلى الغابة، رتعت في دروبها، أكلت من براعمها وطري ورقها، ولكن المقدور مقدور، فقد حدث ما حذرتني منه أمي، فلقد انفجرت الدنيا من حولي فجأة وأنا آكل غصن صفصاف أخضر، جريت إلى الأمام فزعاً من الضجة، فازدادت من حولي.. عرفت ما سيتم،

فالتفت إلى اليمين، كان هنالك درب آخر. ركضت إليه. ولكن الطبول لا حقتني، فعدت إلى الوراء أهاجمهم، فأفسحوا لي. جريت حتى وجدت درباً جريت فيه. فالتف الدرب وداري وتحلزن وانا ألف معه وفرحت بابتعاد الطبول، وفرحت أني بذكائي نجوت من الفخ، ولكن في اللحظة التي ظننت فيها أني نجوت انشقت الأرض من تحتي، وعرفت الفخ الذي حذرتني منه أمي. وحين انقض الصراخون الشتامون النواحون علي استسلمت طائعاً انتظر المنقذ الذي لم يتأخر... ولم أطل مهمتهم فاستسلمت له مستفيداً من تجارب أجدادي، وروضت نفسي على طاعته حتى أمن لي. وفي رحلتي الأولى إلى الغابة مزقت قيودي، وعدت إلى الغابة.

لم يطل تجوالي هذه المرة، فما هي إلا أيام حتى لاحقتني طبولهم وزمورهم وأناشيدهم. حاولت الهرب لاكتشف أنهم في اللحظة التي يشمون فيها أثرك فلن تستطيع منهم هرباً. فالدروب كلها مجهزة مسبقاً. والمهارب كلها مرسومة من قبل، وما عليك إلا أن تختار بمل، حريتك طريقك إلى الفخ.

كان من قبضوا علي هم الصارخون الأولون بأنفسهم، ولكن الرجل المنقذ فقط هو من تغير هذه المرة.

و.. اعتدت الهرب و.. اعتادوا الإيقاع بي، وأخذت أهرب من غابة إلى غابة، فلا أكاد أخلو لسعادتي حتى يفاجئني الصارخون المنشدون وكنت أحاول الإفادة من خبرتي في الهرب من فخاخهم و.. لا فائدة! فما أن اقع في الحفرة حتى أجد الفيالين السابقين بين الصارخين وفجأة يتقدم منقذ اخر في ثياب جديدة لأجدني أنصاع لحنانه ورغبته في العون، وما إن أذعن له حتى اكتشف أنه واحد منهم، فأفر.. ولكن.. إلى أين يا إلهي.. إلى اين. فالغابة واحدة، والصارخون واحدون والفيالون متحدون ضدي منذ زمن طويل.. أنا الفيل الضخم الكبير النابين والأذنين الضائع ما بين القارتين العجوزين الكبيرتين.. الوحيد!.

المنغولي ـ واليافاوي

من المعروف أن أشكال الحياة المعاصرة لنا ليست أشكال الحياة كما وجدت في الطبيعة عند ظهورها. فبذرة البرتقال المحسنة كأبي صرة واليافاوي والعكاوي والبالنسيا إذا ما زرعت في الأرض ارتدت إلى البرتقال البري متخلية عن كل تحسين وانتقاء وتطوير أدخلته الحضارة إليها حين صيرتها يافاوي أو عكاوي، وبذرة الزيتون الجلط، والدان والمصعبي إذا ما زرعت بذرة ارتدت إلى الزيتون البري، أي إلى النوع الأول الذي كانت عليه قبل أن تتدخل الحضارة ويد الإنسان منتقية ومطورة ومحسنة.

ليس هذا فحسب، ففي الحياة الحيوانية إذا ما زاوجت عصفورين انفصلا عن بعضهما منذ مئات آلاف السنين مطورين نوعين منفصلين كالحسون مثلاً والكناري رأيت هجينهما العقيم وقد ارتد إلى اللون البني الأخضر متخيلاً عن جمال الحسون المزدهي بين الأحمر والأصفر وعن نقاء الكناري المراوح ما بين الأبيض الصافي والأصفر الصافي وحتى الرمادي الصافي. لقد عاد الهجين إلى الجد الأول متخلياً عن كل بصمات التحسين والانتقاء الذين مر بهما عرق الأبوين حتى الآن. لقد تخلى عن كل بصمات التاريخ على الأبوين عائداً إلى الجد الأول. ولكنه في عودته هذه فقد أهم شيء اكتسبه الوالدان في رحلتهما الحضارية. لقد فقد بالإضافة إلى جمال الأبوين التاريخي افتقد قوة الإخصاب فصار عقيماً. ولو كررت التجربة مع كل أشقاء الحسون من الشرشور والصفري إلى آخر فصيلة (الفينش) فستحصل على النتيجة نفسها ـ العودة إلى الجد الأول ـ البني المخضر.

والأمر نفسه يصدق على البغال والكوادن هجين الحمار والحصان. إنهما يعودان إلى الجد الأول الذي انشق عنه الأبوان قبل بضع مئات من آلاف السنين.
وماذا عن الإنسان إذن.

في العالم الآن بضع مئات آلاف من الناس نسميهم عادة بالمعاقين المنغوليين وهم الأطفال الذين يتوقف نموهم الجنيني اثناء الحمل عند مرحلة معينة. يلفت الانتباه أن هؤلاء الأطفال وبغض النظر عن انتماء آبائهم العرقي المعاصر اسكاندنيافيين كانوا أم متوسطين أم ملاقيين.

ألا يلفت الانتباه أنهم جميعاً يتشابهون في ضيق العيون وارتفاع الوجنات واستدارة الرأس وقصر القامة. لن أتحدث عن قصورهم الفعلي، فأنا أكتفي بالحديث عن شكل أجسادهم. الا يوحي هذا، وهذا اجتهاد محض مني ولا أستطيع ولا أنوي الدفاع عنه. ألا يوحي هذا، بأن هذا الطفل المنغولي هو ارتداد بالإنسان إلى حد مفرق في القدم كأنه الإنسان قبل بضعة عشر قرناً، نياندرتال، كرومانيون سمه ما شئت. ألا يوحي هذا الشكل الموحد بأن هنالك جداً مغرقاً في القدم للإنسان ارتد إليه هذا الطفل حين توقف نموه الحضاري والاجتماعي،أو لم يستطع اللحاق والإمساك بمسيرة التطور التي وصل إليها الإنسان. أبواه. في مسيرتهما الحضارية الطويلة.

أقول هذا، وأنا أرى هؤلاء اليهود. الصهاينة. الخزر. سمهم ما شئت والذين زرعوا في ارض غريبة عنهم. فلسطين العربية. زرعوا في أرض لم يقلعوها، ولم يعيشوا تاريخها. ولم يقاسوا مجاعاتها وخصبها. لم يعرفوا انتصاراتها وهزائمها، لم يعانوا حرّها وقرّها. باختصار لم يكونوا أبناءها الطبيعيين.

هؤلاء اليهود الذين أنجبوا عقولاً «هامة» في تاريخ الحضارة،

دوركهايم، فرويد ـ اينشتاين. هؤلاء اليهود الذين برعوا حين كانوا في أراضيهم الطبيعية فكانوا برتقالاً أبو صرة وحساسين مغردة. إذا بهم حين زرعوا اصطناعياً في أرض غريبة لم تمنحهم ماؤها ولم تغذهم تربتها ارتدوا إلى إسحاق شامير ومناحيم بيغن. ارتدوا إلى أرييل شارون وإلى إسحاق رابين. ارتدوا إلى جد متوحش بدئي كانه الإنسان قبل رحلته الحضارية الطويلة.

سؤال جدير بالتأمل!!

صباح البرقوق . . تحية لمحمود موعد

كان صباحاً ندياً مضبباً ماطراً، وكنا في السويداء تلك المدينة الجبلية الجميلة الغارقة بين الضباب والمطر وكنا في ضيافة الصديق محمد طربيه، كنا مجموعة ليس من السهل أن تجتمع في مكان واحد. ولكنا اجتمعنا، كان فينا وربما كان السبب الخفي لهذا التجمع الصديق الذي لا أجرؤ على تسميته بالمرحوم محمود موعد. فهو من رتب أمر محاضرة مدينة الشهباء، وكان فينا الشاعر الصديق شوقي بغدادي والناقد الصديق عبد الرحمن الحلبي والروائي الجميل محمود سلامة وأصدقاء كثيرون..

كنا قد قضينا الأمسية السابقة بعد إلقاء محاضرتي في مدينة الشهباء في بيت الصديق محمد طربيه وفي هذه السهرة تجلى كرم أهل السويداء، وكانت ليلة مكاشفة يندر تكرارها بين الأصدقاء، فتحت فيها القلوب، وتبودلت الذكريات وتعتقت جسور ما كان لها أن تتمتن ضمن طواحين حياة المدينة.

استيقظت باكراً وهذه عادة لم استطع التخلص منها، تلفت من حولي في المضافة ولا صاحبي غيري، فتوكلت على الله وقررت الخروج إلى المدينة للمشي تحت المطر، ولكني ما كدت أتحرك حتى وجدت محمود قد استيقظ. قال: جاهز؟ قلت دون أن أعرف ما يعني بجاهز: نعم. قال: هيا، وانطلقنا إلى الجبل. انطلقنا لا انطلاقة المتعثر يبحث عن طريقه، بل انطلاقة العارف بكل درب وكل سبيل وكل شبر في تلك الجبال المغلفة آنذاك بالثلج والضباب.

قلت: أريد أن اتمشى، قال: بل نمضي إلى ظهر الجبل بالسيارة وسأريك ما حدثتك عنه في دمشق. ومضينا.. دار دورتين، وعلا تلتين. وفجأة قال: انظر، ونظرت. كان السهل مغطى بالورود الحمر الطالعة بين سواد الغرانيت وبياض الثلج، وشهقت: يا إلهي. أي جمال قلت: شقائق النعمان؟ قال: لا، بل شقائق النعمان أكثر هشاشة ورقة هذه هي البرقوق وأطلق أسماء فلسطينية أخرى لم أعد أذكرها، وقفز من السيارة فتبعته، وانحنى يقطف باقة، وانحنيت أقطف معه باقة. وفجأة انتصب واشار إلى ركن آخر خفي بين الصخور، قال: انظر ونظرت. كان هناك من الورود التي سماها بالبرقوق، والتي لم تكن حمراء، بل كانت بيضاء.. قال: انظر. وأشار فرأيت البرقوق البنفسجي والزهري والأصفر. كان كساحر متمرس لا يحتاج إلا أن يشير بإصبعه فإذا بالورد ينبت وإذا بالألوان تزهو وتزكو وترقص.

كان محمود نفسه أشبه براقص جميل، تحول فجأة إلى جزء من اللوحة. لم يكن سانحاً. ولم يكن متفرجاً، ولم يكن فضولياً. بل كان جزءاً حقيقياً من المشهد. من الثلج والبازلت والورد المتماوج بالألوان.

وقفت جانباً أتامله يشير فتنبت الورود، يشير فتلون، يشير وينحني فتتحول الورود إلى باقات تبحث عن معشوقات تهدى إليها من بعيد أطلق شحرور نشيده الأول فاسترخى محمود يصغي. قال: انه الشحرور، انه يذكرني بـ.. ولم يكمل. وعرفت أن المشهد كله كما سيصفه لي فيما بعد، سهول البرقوق وحجارة البازلت والثلج الممزق بالورد، ونشيد الشحرور. وظل الصقر المحوم في السماء، ورفوف الحصون المذعور قبل الاختباء في زهر الشوك. كلها كانت.. فلسطين. فلسطين التي صاغت فتحولت في ذاكرة محمود إلى أغان وقصائد وقصص و.. ذكريات كان يحب استحلابها بين الحين والآخر.

جمعنا الورود التي قطفناها. وكانت كثيرة. قسمناها إلى باقات. قال: نقتسمها، ولكن.. عدني.. وأقسم علي أكثر من مرة.. الا تعطيها الا

لمن يستحق فوعدت ووفيت قال: هذه الورود كانها طفولتي في فلسطين، إياك أن ترميها أو تهينها، ووعدت.

رجعنا، كانت الشمس قد بدأت تزيح الضباب، وكان الثلج قد أخذ بالانكسار تحت الشمس، رجعنا، وكان يضع أمامه وردتين مما جمعنا حمراء وبيضاء.. قال: ستظلان أمام عيني.. أنا اليوم سعيد. لقد استعدت بهذه الورود بعضاً من طفولتي. استعدت بعضاً من فلسطين، ثم تنهد وقال: اتراني يمتد بي العمر حتى أرى هذه الورود ثانية في فلسطين. وتمنيت له طول العمر والعيش حتى نرى فلسطين معاً ونقطف منها زهور البرقوق.

عدنا إلى المدينة، افترق الطريقان، كنا نلتقي كثيراً ولكن منذ ذلك الصباح الحندقوقي تغير شيء في علاقتنا فلقد صارت تحيتنا كلما التقينا: صباح البرقوق.. محمود أيها الصديق الوديع وداعاً، وباقة برقوق ستظل منتصبة أبداً في ذكراك هناك في القلب..

بضع المئات من الإنكليز الذين ركبوا سفينة (الماي فير) الهاربين إلى العالم الجديد بينهم الباحثون عن ملاذ يتفرغون فيه لدينهم الجديد، بضع المئات ثم الآلاف من الفرنسيين الهيوغونوت والكاثوليك، الألمان الإيرلنديين، الاسكاندينافيين، البروتستانت بتجلياته المتعددة الهاربين من اضطهاد الكاثوليك، الحالمون بصنع عالم جديد مسيحي أحياناً، اشتراكي أحياناً، عالم هارب من اضطهاد العالم القديم المثقل بتاريخ الصراع والمذابح والاضطهادات، أولئك الحالمون بصنع العالم الجديد هل كانوا يعرفون أو يحلمون أو يتوقعون مآل مشروعهم الكبير؟ هل كانوا يتخيلون أي مجتمع سيصل إليه العالم الجديد. عالم الهاربين من تراث الأجداد، عالم المقتلعين من الجذور لصنع عالم جديد؟.

سينكلير لويس الكاتب الأمريكي والروائي الموهوب والحائز على جائزة نوبل (1930) الكاتب الموهوب عيناً شديدة الذكاء والملاحظة في رؤية المجتمع الأمريكي أواخر القرن الماضي، وأوائل القرن الحالي قرن التغيرات الكبرى والكوارث الكبرى بعد خروج أمريكا من عزلتها القارية ودخولها في مشاكل العالم القدم باحثة عن دور لها في تشكيل العالم حسب مشروعها ورؤيتها.

سينكلير لويس صاحب رواية الشارع الرئيسي عام (1920) والتي استطاع فيها تصوير نفسية وأحلام وثرثرات سكان المدن الصغرى وحسدهم وغيرتهم واحزانهم الصغيرة وأفراحهم الصغيرة وثرثراتهم الكبيرة. سينكلير لويس صاحب رواية بابيت عام (1922) والتي صور فيها

صعود وانتهازية البرجوازي الصغير أحسن تصوير. سينكلير لويس كتب أجمل رواياته حسب رأيي ونشرها عام (1927) وهي رواية (إلمر غانتري) والتي أفلمت في الستينات من هذا القرن تحت اسم واعظ الشيطان ولعب فيها دور غانتري الممثل الشهير برت لانكاستر.

بالطبع لم يكن اسم الفيلم حسب منتجيه واعظ الشيطان. فالاسم كما ترى اسم ذو صبغة ميلودرامية على الطريقة العربية. فالعرب حينما رأوا الفيلم ورغم أنه إنتاج أميركي خجلوا من فضحه للواعظ الأمريكي فتكروه تحت اسم واعظ الشيطان.

في هذه الرواية سنرى إلمر غانتري منذ يفاعته طالباً شاباً في الجامعة، شاباً يحب النساء والمشروب والمقامرة، ولكن كل من حوله يضغط عليه ويلح ليحوله إلى واعظ معمداني (إحدى تجليات البروتستانتية) ويقاوم الشاب مدعوماً بصديقه جيم لفرتس. ولكنه اخيراً وتحت تاثير أمه واساتذته وسكرة مؤثرة يتحول إلى واعظ، وبتحوله إلى واعظ يعطى كنيسة قروية يتدرب فيها. ولكنه يخدع ابنة احد رعاياه وحين يطالب بالزواج منها تحت تهديد البندقية يوافق، ثم يجرها إلى مشهد يشهد فيه أباها على أن ابنته ممنوحة لكل الرجال وينجو من الزواج الفخ، يباركه رؤساؤه في الكنيسة على نجاته من هذا المازق. ويرسلونه إلى كنيسة أكبر لإحياء حفل عيد الميلاد. ولكنه ينجر إلى حانة يتسلى فيها قبل حلول الاحتفال ولا يصحو إلا بعد فوات الأوان حيث يطرد من الكنيسة. ولكنه في رحلة مغامراته الهاربة من مواجهة نفسه يصطدم بالمرأة التي ستغير له حياته إنها شارون فالكونير. مغامرة تحولت من ضاربة آلة كاتبة إلى نبية تعتقد أنها التجلي الأخير لجان دارك وعشتار وإيزيس وفريجا. مغامرة مزيج من (رجل أعمال امريكي) ومهووسة دينية. مغامرة خرجت من القاع ووصلت إلى القمة في تحويلها الدين إلى استعراض. استعراض يتقدم فيه التائبون والناجون والمخلصون يتحدثون عن تاثيراتها وإنقاذها لهم. استعراض تجمع فيه أموال

المتبرعين لتشتري بها قصراً هو قصر الأحلام فيه أسرار منع الـ ...
(الجنسية) كما يتصور الغرب الشرق وفيه بعض تأثيرات الأرستقراطية الأمريكية المحدثة. يلاحق غانتري شارون ويصبح مساعدها وعشيقها يتعلم طرق إنشاء الأديان الجديدة. ينشق عنها يصنع كنيسته الخاصة. لجمع الأموال ويصبح واحداً من عمد المجتمع الأمريكي.

لن أدخل في مزيد من تفصيلات الرواية. ولكنني سأقتبس واحداً من خطب نبية المجتمع الأمريكي الجديد شارون فالكونير في حشد من رعاياها.

(هل تريدون أن تدمروني، وبذا لن أكون قادرة على حمل الرسالة، رسالة الخلاص المنوطة بي لتخليص النفوس البائسة التي تنتظرني في كل مكان تصرخ في طلب العون.

أهذا غرضكم؟ أنتم أيها النخبة المختارة لعوني في خدمة الرب العزيز يسوع بنفسه.

أهذا هو غرضكم؟ وتصرخ الجماهير هادرة، وتكمل شارون: أهذا هو غرضكم؟ أهذا هو غرضكم؟ وتبدأ عيناها بالدموع) والأيدي بالامتداد إلى الجيوب لعون نبية الخلاص الأمريكية الجديدة.

هل كان ركاب سفينة (الماي فير) يعتقدون أن نهاية مشروعهم الخلاصي ستكون في أيدي شارون وغانتري وسادة نفط أمريكا المعاصرين؟.

قال وهو يقدم لي آخر رواياته: إليك بعضاً من كوابيسي، وضحك وضحكت، ولم اكترث لتعبيره (كوابيس)، وشغلت بما ينشغل به الإنسان ولم أقرأ هذه الكوابيس آجلتها إلى وقت استطيع فيه التفرغ لها. ولكن الهاتف رن صباحاً وغالب يعرف أني من القبرات أي أولئك الذين يستيقظون باكراً. قال: هل قرأت الرواية، ولم يكن قد مضى على إهدائها لي أكثر من اسبوع، واعتذرت بالانشغال، فقال وبحرج صغير! ولكنك أخذت النسخة الأولى من روايتي وأنا حريص على أن اسمع رأيك. حاول ان تقرأها بسرعة. أريد أن أتناقش معك عنها، وأجبته بأني سأفعل، ولكنك الكاتب الكبير المعترف به... أما زلت تحس بهذا الشوق لمعرفة راي الآخر فيك.. الم تقرئها مخطوطة لأحد ... قال أقرأتها لناقد فلسطيني وشكوت له قلقي، فقال: أرمها وراء ظهرك... صمت قليلاً اقرأها. أريد أن أناقشك فيها.

وخلوت إلى رواية الروائيون، خلوت إليها كما أخلو إلى صديق يسمعني نجواه، ولم أفكر في إهدائه الأول (كوابيسي)، لم أفكر بهذه الكلمة إلا على انها مزحة أو استعارة ولكنني كنت كلما تقدمت في الرواية ـ الاعتراف الأخير ـ المكاشفة ـ كشف الحساب الأخير... فهمت كلمة الكوابيس فهما أكبر، عرفت ما عنى ويعني، وأخذت صورة غالب العذاب والمقاساة تتكشف أمامي، غالب في رواياته الأخرى يضيء روايته هذه، يضيئها باسمه الذي كان يستخدمه بطلاً لرواياته. وكان في رواية الروائيون البطل غالب الحقيقي دون أقنعة ودون توريات، وهكذا بدأت أرى غالب في صراعاته مع العقيدة التي وهبها العمر في احتضاراتها

الأخيرة بعد هزيمة عام 1967، تلك الهزيمة التي كانت أعلنت [illegible] الناصرية والقومية العربية ككل. وما بعدها لم يكن إلا امتداداً لاحتضار طويل، تلك الهزيمة التي أسقطت العالم الثالث ككل ومجموعه باندونغ وعدم الانحياز، ثم تكشفت بعد عشرين سنة عن سقوط وتفكك المجموعة الشيوعية ودول الاتحاد السوفيتي وتفكك الحلم.

في الروائيون كان غالب هلسا يحاكم الماضي كله، الماضي الرومانسي والذي كتب عنه في رواياته الأخرى، ومجد فيه انخراط الشيوعيين في الدفاع عن قناة السويس عام 1956 وامتزاجهم بالحركة الناهضة للقومية العربية. وكان يرجع إلى هذا الماضي الرومانسي في رواياته الأخرى إلى تلك الأيام المجيدة حين الصديق بيّن والعدو بيّن حين لم تختلط الأمور ويتفجر مجد الرمادي والرصاصي والنسبي والمصالح والمنازل والمتوافق والمتراضي. كان يرجع إلى ذلك الماضي بحنين نراه في رواياته حين كان يتحدث عن حبه القديم ناديا، بل وكان يخطئ أحياناً فيدعو ملاكه الساقط . زينب . حبيبته في . الروائيون . هذه الشيوعية الماضلة المتهاوية إلى عاهرة وحشاشة ومهينة للنفس ومعيدة لقراءة هيجل وماركس وفويرباخ تريد أن تتجاوز تلك الانحرافات والتفسيرات التي أنزلت على أرثوذكسية الماركسية عبر تفسيرات من تلا الآباء من مفسرين وشارحين.

الوجه متعمد الانتحار بالمهر المازوكي وبالمخدرات.. كان غالب يرجع إليه أحياناً باسم ناديا (حبيبة رومانسية 1956) وكانت زينب (ملاك سقوط) بعد 1967 ترده إلى ارض الواقع وتقول اسمي زينب، أي لم أعد ذلك الملاك الرومانسي البريء. ملاك بياضه أبيض وسواده أسود. بل ملاك لوث وأهين وأسقط حتى تحول ريشه إلى رمادي ورصاصي وتلوث كامل.

ما بين ايهاب . غالب في وصيته الأخيرة ومعاناته الأخيرة مع الحركة الشيوعية في مصر، ومع عذابه الشخصي كمبدع موثق مربوط

بمئة قيد وقيد، قيود منعته من التعبير والكتابة وملء اسمه الشخصي، روائي، بما يستحق من إبداع، وبين زينب، ناديا ملاك السقوط في تحوله من ملاك رومانسي الإيمان بالانتصار على العالم القديم عام 1956 والإمساك بمقادير التاريخ في محاولة لصنع تاريخ جديد، إلى ملاك السقوط والعهر والمخابرات والمخدرات في شخصيتها الجديدة زينب.

كانت رواية «الروائيون» الوصية الأخيرة والصراع الأخير والصيحة الأخيرة العاجزة في وجه عالم يتهادى...

قلت لغالب: ولكننا اعتدنا على أن بطل رواياتك الأخيرة غالب هو صورة لتحولاتك الحياتية والفنية، وها أنت تسميه إيهاب ثم تقتله بالسيانيد في آخر الرواية. كيف ستتعامل لحل هذه المشكلة في رواياتك القادمة... صمت... قال: يبدو انني سأبدأ خطاً جديداً في كتاباتي.

كان صادقاً في أنه سيبدأ خطاً جديداً في كتاباته، فلقد كان كتابه الأخير هو الوداع المر الذي تنبأ به في نهاية روايته «الروائيون» الوداع المر إلى عمان التي كان قد فارقها قبل أكثر من ربع قرن... ولم يعد إليها إلا في صندوق طوله متران!..

في استفتاء صغير أجريته لحسابي وعلى نفقتي ولصالحي أخذت أسأل الأصدقاء لي من المتعلمين والمثقفين ومتابعي آخر أخبار الموضة والصرعات الثقافية والعلمية والفنية.. كنت أسألهم في استفتائي الصغير هذا: من هو كافور الإخشيدي؟ وكانت الإجابات كلها تتدرج في سياق واحد: أليس هذا من هجاه المتنبي، أليس من قال فيه المتنبي بيته الشهير: لا تشتر العبد..

وقلة كانت تصل في إجابتها بعد أن تتحدث عن البيت السابق الذكر لتقول: ألم يكن حاكماً لمصر حين زاره المتنبي طامعاً في ملك وعده به كافور.. ولكن واحداً فقط لم يتحدث عن هذا الرجل الذي حكم مصر عقدين تقريباً، وحماها من هجمة الفاطميين الذين ما إن ابتعد عن الساحة حتى احتلوها وجعلوها قاعدتهم، وتركوا المغرب يعود إلى هامشيته الجغرافية ثانية.

وتوقفت مندهشاً: إذن فهذا كل ما تبقى للتاريخ العام، للذاكرة العادية من هذا الرجل.. ثم طورت استفتائي فأخذت أسائل: فمن هو سيف الدولة إذن.. وأخذ الكثيرون يتحدثون عن أمجاد الحاكم العربي في حلب الذي كافح البيزنطيين، وردهم عن حلب، والذي كان مثال الفارس العربي في زمن تراجع فيه العرب عن الساحة لمتقذين عسكريين آخرين. البعض تحدث عن مجالس سيف الدولة الأدبية، عن مدينة العلم الفاضلة التي أنشأها في حلب. والبعض تحدث عن ابن خالويه، وعن ابن جني. والبعض تحدث عن الفارابي وأبي فراس ورأيت ذاكرة غير المتخصصين تعرف الكثير عن هذا الرجل.

ووقفت أتساءل، فلماذا.. وما قيمة حلب أمام مصر، وكيف نجا حاكم مثل سيف الدولة من مزالق النسيان، وسقط فيها حاكم مثل كافور. والتاريخ المتخصص يحدثنا عن سيف الدولة القاسي الذي ذهب المثل في عصره إلى القول: من هلك فلسيف الدولة ما ملك، فلقد ألغى الرجل قانون الميراث، وبلغ من سطوته وقسوته على شعبه أن قبيلة عربية من بني خالته وهم بنو حبيب لكثرة ما طاردهم بالمصادرات والقسوات أن تقصرت هذه القبيلة كاملة والتحقت ببيزنطة متحولة إلى عدوة للعرب والمسلمين.

والمتخصصون يعرفون كم مرة تخلى سيف الدولة عن عاصمته حلب للبيزنطيين تاركاً أهل حلب لقدرهم. فإذا ما قال القائل: لقد أنقذ سيف الدولة من متاهات النسيان أنه كان واحداً من الأمال العربية الأخيرة بعد زوال الوجه العربي الحاكم أجبته: فماذا عن بني مرداس في اللاذقية والمعرة، وماذا عن عقيل بن قريش في الموصل، وماذا عن بني صدقة في جعبر، وماذا عن بني عمار في طرابلس، وماذا عن بني منقذ في شيزر.. كيف تجاهلهم التاريخ ونسيهم وذكر سيف الدولة.

تتأمل، تفكر، ثم تبتسم وتقول: إن ما أنقذ سيف الدولة هو أنه عاش في عصر شاعر عظيم اسمه المتنبي، ويهتف واحد فيقول: تقصد أن المتنبي عاش في عصر سيف الدولة، وأعود فأكرر كلا، بل سيف الدولة هو من عاش في عصر المتنبي فنجا حين أحبه المتنبي وحمل اسمه إلى الأفاق متناسياً سقطاته وفشله وهزائمه، احبه.. فحمله معه إلى سجلات التاريخ فعرفنا جميعاً اسم سيف الدولة ونسينا من نسيه المتنبي، بل ومن احتقر المتنبي ككافور الإخشيدي.

أليس هذا واحداً من العاب التاريخ الكبرى، ونتساءل فمن يصنع الأوطان إذن. العسكر أم الفنان ويأتي الجواب سريعاً، بل الفنان.. فالعسكر يأتون ويروحون روائح الدم تقلقهم وأطماع الوحش في الإنسان تسيرهم.. أما الأوطان ولا أعني الكيانات العسكرية التي تموج موجان

القوة الحاكمة في آنها، بل أعني الأوطان... التي تريد البقاء على الدوام، وفي التاريخ وللتاريخ فلا يبنيها إلا فنان كهوميروس الذي حفظ لنا اليونان ولم يوجد هوميروس في آشور ليحفظ لنا آشور العسكرية العظيمة.

أقول هذا وأنا أنظر إلى لبنان الضعيف الهش المتعب وأرى أنه ظل في القلوب لبنان وأسائل: فمن بناه، وأجيب دون تردد، جنرال عظيم اسمه فيروز، وهيئة أركان اسمها الرحابنة.

صنعته، سجلته، أودعته قلوبنا، فكان لبنان فيروز، لا لبنان شمعون ولا الجميل، ولا جعجع، بل لبنان الحب، لبنان فيروز...

طائر الوقواق

طائر الوقواق أو الكوكو طائر جميل منه الأسود ومنه الرمادي والمنقط. اي أنك تستطيع أن تراه بألوان معظم الطيور. ولكن ما يميز طائر الوقواق عن الطيور كلها هو ذكاؤه الخاص. ذكاؤه؟ خبثه؟.. لندع التسميات جانباً ولنتابع المكر الذكي الخبيث الذي يسير به حياته.

أنثى الوقواق لا تبني عشاً، ولا تجمع عشباً أو ريشاً إلى اخر ما عرف من مواد بناء الأعشاش. فهي ببساطة تراقب الطيور من حولها، تنتظر موسم إباضتها وتعشيشها، ثم تنتظر حتى تبيض أنثى طائر ما قريب. ولا يهم نوع الطائر. المهم أن يعشش ويبيض... ثم.. تتسلل أنثى الوقواق إلى العش أثناء غياب الأم البيوض، ثم تبيض أنثى الوقواق بيضتها في ذلك العش، بيضة واحدة لا أكثر، فهي تعرف أن العش لا يتسع لأكثر من بيضة وقواق واحدة، ثم تتسلل إلى عش أخر وتبيض بيضتها الثانية فالثالثة. وهكذا تنشر بيوضها بين الأعشاش وتنصرف مع ذكرها إلى الغناء والمربدة. فما لها وللتعشيش والحضن والتفقيس والإطعام إن كانت تستطيع جعل الأخرين يقومون بهذا عنها.

حين يفقس البيض يكون اول ما يفعل فرخ الوقواق وهو العاري الأعمى ابن الساعات والعاجز عن فعل أي شيء إلا ما تمليه عليه غريزته الواقعية التاريخية. أول ما يفعل هو حمل أفراخ العش المضيف أياً ما كان عددها وحجمها، حملها على ظهرها ورميها خارج العش لتموت بهدوء، فالأم لا تقترب من الفراخ خارج العش، وبذلك يخلو للفرخ القرصان وجه العش والأم والأب والمستقبل! وكثيراً ما صورت أفلام

طريقة عن هذا الطائر. فالفرخ ابن الساعات قد يساوي الأم المضيفة التي ستغذيه لأسابيع. يساويها حجماً عند فقسه، وحين ينمو قليلاً سيتفوق عليها، وحين يكبر ويطير سيتخلى عنها لأنه وقواق يبحث عن وقواقة لإنشاء أسرة جديدة من الوقاويق.

قد يبدو الأمر نكتة ولكنها الحقيقة. إنها الحياة بكل قسوتها. ومنذ سنوات نشرت رواية أميركية تحت اسم «طيران فوق عش الوقواق. ثم حولت الرواية إلى فيلم نال عدداً من الجوائز.

والرواية والفيلم يتحدثان عن مصح للأمراض العقلية يعيش فيه هندي أحمر أخرس أصم لا يفعل إلا أن يتحرك بهدوء حتى لا يلفت إليه الانتباه. ورغم حجمه الضخم فهو عملاق تقريباً إلا أنه مسالم حتى البلادة.

يدخل المصح بيض وسود فيهم مدعي الجنون للهروب من ملاحقات قضائية. وفيهم المجنون كثيراً والمجنون قليلاً. ولكنهم جميعاً خاضعون لرئيسة الممرضات ممثلة (المؤسسة) والتي تستطيع ترويضهم دائماً... بالصدمات الكهربائية . بالأدوية المسكنة حتى البله. ولا ينجو من يديها أحد. فالكل وقد دخل المصح يجب أن يخضع لأنظمة (المؤسسة).

يحرك بطل الرواية مدعي الجنون إرادة ثورة ويستطيع في النهاية حمل الهندي الأحمر الأخرس الأصم السلبي تماماً. يستطيع جعله ينطق ويبدأ تحطيم أسوار المصح!

هذه الرواية التي استقت مفاهيمها من عنوانها. فالبيض. الحضارة الغربية العدوانية هي طائر الوقواق الذي استثقل بناء عش وتربية أفراخ. فرمى ببيوضه. أبنائه إلى أقاليم جديدة. يقتلون أبناءها ويطردونهم من أعشاشهم ويعذبونهم حتى الموت ليحلوا محلهم. أليس هذا ما فعله البيض في قارة لا نعرف اسمها الحقيقي فادعوا أنهم

اكتشفوها، وأعطوها اسم واحد من قراصنتهم اسمه كريستوفر كولومبوس ثم امريكو فيسبوتشي، وهكذا نشأت دول تحمل اسم مكتشفها، وكأنها لم تكن موجودة ومسكونة ومليئة بالحضارة قبل وصول كولومبوس وامريكو، ثم لما ضاق بهم عش القارة التي رموا فراخها للموت جوعاً وعزلة، والتي لا نعرف كيف كان أهلها يسمونها قبل قدوم الوقواق كولومبوس، انتقلوا إلى عش آخر في قارة سموها استراليا ثم أبادوا منها شعباً هم التسمانيون، أبادوهم إبادة تامة حتى آخر نفر يمكن أن يدل على هذا الشعب الذي عمر بلاده آلاف السنين، ثم انتقلوا إلى نيوزيلاندة، ثم تحولوا إلى أفريقيا، ثم... كان سوء حظ بلاد الشام إن قرر وقواقو الخزر أن هنالك أسطورة تتحدث عن عش بلا أفراخ، فهجمت الأم الوقواقة البيضاء على العش وباضت فيه وطرد الأفراخ.

كل هذا يتم.. فالتاريخ دائماً قاس، ولكن ما لا يدخل في عقل ولا منطق هو أن يطلب من الفراخ المرمية خارج العش أن تحيي أفراخ الوقواق القرصان، وتقول له: لا بأس دعنا نقتسم عش جنوب أفريقيا وفلسطين، فلقد صار لك حق فيهما.

دعنا نفعل ذلك وستعطينا الوقواق الأم جائزة نوبل.

ويتحدث شيخنا أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ عن أهل بغداد في القرن الثاني والثالث الهجري في كتابه الحيوان، فيقول إنهم كانوا يحبون تربية الحمام كثيراً، يحبونه لدرجة أنهم جعلوا لكل حمامة شجرة تنسب إليها يرجعون في معرفة فضلها وقوة سبق آبائها وأجدادها، وعليها يتكلون في محاجاتهم ونقاشاتهم بعد مشاهدة السباقات الطويلة والجميلة، ولك أن تتخيل بغداد عاصمة الدنيا وجميلتها في ذلك الحين، مدينة استسلمت للترف والجمال، مدينة لا يؤرقها عدو، فكل الأعداء خارج حدودها أضعف من أن يهددوا أمنها، وكل البلاد الأخرى ليست إلا متاجر أو مغانم لهم، وفي هذا الزمان ظهرت مقولة الرشيد الشهيرة يخاطب غيمة رآها تمر فوق قصره: «اهطلي حيث شئت، فخراجك عائد إلي» أية ثقة بالنفس وإحساس بامتلاك كل أعنة المقادير، القوة، السلطة، المال، الترف، الطمأنينة. هذه الأحاسيس كلها لابد أنها انعكست على رجل الشارع، على الإنسان العادي يرتع في أزقة بغداد، ولم يقلق، ومتاجر العالم كلها صائرة إليه؟ من الصين، من الهند، من بيزنطة، وحتى بلاد الروس والبلغار.

هذه الطمأنينة وهذا الشعور بتسيد العالم جعل الشعر مرآة المجتمع حينذاك يتحول من امرىء القيس والفرزدق إلى أبي نواس ووالبة بن الحباب. هذه الطمأنينة والشعور بتسيد العالم ألغى داحس والغبراء، ليحل محلهما الأبلق والورقاء.

استرخى الناس واطمأنوا، وتغالوا في طمأنينتهم حتى جعلوا

الحمام تسليتهم اليومية. لها تنعقد المجالس وإليها تشد ركاب الباحثين عن الإثارة والتحدي، امتدت هذه الهواية وانتشرت فانتقلت إلى القصور وصارت تسلية الخلفاء كالأمين مثلاً، امتدت وانتشرت حتى لتتحدث الروايات الشعبية وكتب التاريخ أن سبب سقوط بغداد على يد هولاكو أن ابن الخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين سابق ابن آخر وزراء العباسيين ابن العلقمي، فظلمه، وأنكر عليه حقه في الرهان والسبق، فغضب الولد، وغضب لغضب الولد أبوه ابن العلقمي، فراسل هولاكو وسلمه بغداد..

بالطبع هناك أسباب أخرى ولكن ما يهمنا الآن هو هذه الرواية بحد ذاتها، دليلاً على استشراء هذه الهواية وانتشارها بين الأمراء وبين السوقة على حد سواء.

أحب أهل بغداد الحمائم، أحبوا جمالها تشق أجواز سماء بغداد في الصباحات، وفي الأماسي، راقبوا أسهم الجمال فيها تتعانق وتتفارق، تتلاقى وتتشاق، راهنوا عليها بطعام يومهم وبهناء أسرهم، وتطورت الهواية حتى صارت مهنة لها خبراؤها ونسابوها، لها رواتها، ولها المفاخرون بها، وتغالى الناس في أسعارها حتى صار ثمن الحمامة السابقة يصل إلى أكثر من مئة دينار كما يحدث الجاحظ، ولك أن تتخيل مئة دينار مضروبة بسعر الليرة الذهبية المعاصرة. تغالى الناس في هذه الهواية حتى بنوا لها الطيارات والأعشاش العالية المزودة بلذيذ الطعام وبارد الماء، تغالوا بها حتى جعلوا لها الخدم المتخصصين بها والمكلفين بتدريبها حتى لا تسمن فتقعد عن الطيران أو السبق.

ولكن لكل ـ كما يقول الجاحظ ـ هواية آفتها، وآفة الحمام في ذلك الحين كانت القطط، وما كان لأهل بغداد أن يتخلوا عن القطط، فهم في حاجة إليها، فبيوتهم مليئة بالفئران، مليئة بالثعابين، مليئة بهوام البيوت العربية والليل، وكانت القطط الدواء الشافي لكل هذه الهوام.

السؤال المحرج الآن كان: كيف كان يمكن للبغدادي أن يجمع بين

النقيضين القطة والحمامة، كيف يربي القط للدفاع عن البيت ضد هوام الليل، وكيف له أن يربي الحمام، جمال حياته وترفه؟ وكما يحدث في كل زمان انبرى أناس أذكياء فحلوا المعضل، اختص هؤلاء الناس بتربية القطط بتعليمها، تهذيبها، تربيتها، وتعليمها أن الحمام لا يؤكل، وأن من الخير للقطط الانصراف إلى طعام أرخص.

وفجأة ظهر إلى الوجود سوق جديدة، إنه سوق القطط المربأة والمدجنة، وحسنة التربية، القطط التي تأكل الفئران ولا تقرب الحمام، ولكن ووفقاً لقاعدة السوق التي تقول: إن البضاعة تغلو وترخص حسب وفرتها وندرتها، فقد غلا سعر القطط المربأة المدجنة حتى قارب سعرها سعر الحمام المؤصل.

ويقول الجاحظ إنك قد تمر في أسواق بغداد فترى لدى البائعين قفصاً فيه قطة وحمامة، وأي برهان مقنع يمكن أن يزيل كل ريب في حسن تربية القطة أكثر من أن تراها في قفص واحد مع حمامة تداغبها وتنظر إليها في أخوة وولد.

ويكمل الجاحظ: ويأتي المبتاع، يرى البرهان ويشتري القط بالثمن الغالي مؤمناً بأن قد حصل على القط المثالي، القط آكل الفئران ومبدد شملها وصديق الحمائم ومغازل زغاليلها. يأتي المبتاع فيأخذ القط، يقدمه لأطفاله، يتركهم يمسحون على وبره في استسلام، يقرقر في أحضانهم فينامون مطمئنين على أحلامهم في حمام آمن وسباق منتصر.

ويكمل الجاحظ: ولكن وما إن يشرق الصباح التالي حتى يفيقوا على كارثة، فالقط المدجن المثالي الناظر إلى الحمائم في أخوة وولد انقلب إلى شيطان مريد، لقد فتك بحمائم البيت وحمائم الجوار، وها هو ينظر إليهم من عل في تفاخر وكبرياء: لقد أنجزت مهمتي، ويثور صاحب البيت ويمضي إلى السوق وتبدأ الشجارات، ولكن البائع يجيب بوجه ملائكي: أنت من أفسده، لقد أسلمتك القط ينام مع الحمام، فماذا فعلت له أو أطعمته حتى انقلب إلى هذا الشيطان المريد..

ويحار المشتري فهو لا يملك الجواب، ولكن شيخنا الجاحظ، الفضولي الأبدي والذي لا يقنع بالأجوبة السهلة مضى إلى الأسواق يسأل ويدس أنفه يريد معرفة الجواب الحقيقي، وعثر على الجواب.

بين مربي القطط ومدجنيها ومحبيها إلى الحمام اندست مجموعة من المحتالين الفشاشين كانت تأتي بقطط الشوارع فتضعها فيما يشبه البرميل، ثم تأخذ في إدارة البرميل وتقليبه لساعات والقط يموء ويخمش ويصرخ، ولكن البرميل يدور، وأخيراً، يستسلم القط، يدوخ، يصاب بالدوار، يفقد الاتزان، يفقد الاتجاهات، يفقد الغرائز، ينسى ان الحمام وجبة شهية حتى إذا ما داخ القط تماماً حملوه إلى السوق فوضعوه في قفص واحد مع حمامة لا يراها ولا يتشهى لحمها فهو دائخ.

ويأتي المشتري، فيرى القط الدائخ في وضعه المثالي، يشتريه مؤمناً بانه القط الذي طالما بحث عنه، يتركه بين حمائمه، يصحو القط وتبدأ الوجبة التي طالما حلم بها القط!

والسؤال الذي يلح عليه الجاحظ في ختام مقاله: متى يستيقظ القط من دوار!

في البراريل، بلد الأمازون والصحارى. في البرازيل بلاد الأثرياء حتى لا يستطيعون معرفة مصادر ولا مصارف ثرواتهم في البرازيل بلد النساء اللواتي يطردن أطفالهن بعد الحبو مباشرة ليسعوا وراء رزقهم في حاويات القمامة والحارات. في البرازيل بلد مجلسي الديمقراطية الشيوخ والنواب، وبلد فرق الموت التي تجول في الشوارع في سيارات الجيب، الأقنعة على الوجوه والأصابع على الزناد يبحثون عن الطرائد، وما الطرائد إلا أولئك الأطفال المساكين الذين تخلى الأهل عنهم، فانضموا إلى قطعان الأطفال تبحث عن لقمتها بين الحاويات والحاويات، فشوهوا جمال المدن وآخذوا يقتلون الكلاب والأطفال.

في البرازيل بلد الكرنفالات والاحتفالات ومحاكم التفتيش، في البرازيل بلد الفرح الأبيض والموت الأسود. في البرازيل هذه ازدهرت تجارة سرية جديدة حين اكتشفت عصابات القوادين فيها أن من الأفضل لهم بدل قتل الأطفال اختطافهم وبيعهم إلى مباغي أوربة العجوز عاهرين صغارا وعاهرات.. في البرازيل أوجدوا الطريقة الرائعة لترويض الأطفال والطفلات لتحويلهم إلى عاهرات وعاهرين عن رغبة وإرادة بل وحب ورجاء.

كانوا إذا ما جيء إليهم بالطفل لم يعرف البغاء ولا السقوط، ولا يضربونه. الطفل بنتاً أو صبياً. ولا يهينونه ولا يجيعونه، بل ولا يطلبون إليه البغاء. كان كل ما يفعلونه هو أن يعطوه غرفة متواضعة بسرير متواضع في ركن متواضع في المبغى الكبير. ثم ينسونه، يهملونه. ويتحول

المبغى إلى كرنفال. كرنفال يتآمر فيه الكل، الزبائن، والبغايا، والقوادون.. يتآمرون حين يحولون المبغى إلى وكر سعادة، الشبان الجميلون وباقات ورودهم العملاقة، حفلات الرقص والغناء الأسطورية، الهدايا الخارقة الإبهار، والمكافآت والجوائز للبغايا والعاهرين، الكل في جو فرح وسعادة دائمة، لذات وجوائز.. هدايا وقبل.. رقصات وتحايا، والكل في جو انسجام دائم.

المهجور الوحيد خارج هذه الجنة هو الطفل الذي لم يسقط بعد، إنه المهمل المهجور المنفي المرفوض المعزول في جنة المباهج والسعادة، سيصعد الطفل يوماً، يومين، أسبوعاً، ولكنه سيبدأ سؤال نفسه، وهو لا يستطيع إلا أن يسأل: لماذا أنا؟. لماذا أكون المهجور خارج هذه السعادة.. وهو لا يستطيع إلا أن يسأل. فالمبغى محروس جيداً ولا يستطيع الخروج خارج حدود هذه السعادة، لا بد أن يسأل وهو حين يسأل يبدأ طريق التنازلات، فالسقوط، فالتمهر لأنه حين يسأل سيكتشف الجواب بسهولة فالجواب: السعادة للعاهرات، والهجر والعزلة والقطيعة والإهمال لمن ترفض هذا التمهر، وحين تسأل الطفلة هذا السؤال تبدأ بالتحرش بالقوادات ولكنهن يهملنها، تبدأ بالسؤال فيشحن عنها بوجوههن، وأخيراً لا تجد أمامها إلا أن ترمي بنفسها على أقدام القوادات تسألهن قبولها بين رعيل العواهر والعاهرين فهي لا تستطيع العيش خارج جنة السعادة هذه.

وبذا يتم الترويض وتغتني أسواق أوربة السفلية بفائض عاهرات وعاهري العالم الثالث.

هذا النوسان ما بين قطبي فرق الموت، وقوادي مباغي أوربة كان قدر بريني وبرينات الأمازون الذين لم يترك لهم خيار آخر، ولكن هل هناك خيار آخر أمام مثقفي العالم الثالث أصلاً.. ها هم ينوسون ما بين فرق الموت والسجون.. ومباغي أوربة الجوائز والنشر والدعاية والتلميع. وكل المطلوب منك شيء بسيط أن تمهر قلمك، أن تنسى تاريخك، أن

تهجر ثقافتك الأم وتتحول إلى مروج للعين الأوروبية على ثقافتك. اكتب (الخبز المر) فتحصد الجوائز والاحترام. اكتب (فقهاء الظلام) فتصبح نجم الثقافة. اكتب (ليلة القدر) تترجم وتصبح من كبار المثقفين. اجعل في كتاباتك دائماً شخصية يهودية محببة ضعيفة جميلة مسروقة الحقوق تصبح أميل معلوف، وتنهال عليك الجوائز والاحترامات، وإلا فسيارات الجيب وركابها ذوو الأقنعة على الوجوه، والأصابع على الزناد وإن كنت محظوظاً جداً فأمامك الخيار السلبي والمعذب والفاجع: سرير صغير في غرفة صغيرة بعيدة تتأمل جنان السعادة المزيفة الملقاة على ممثلي السعادة من زبائن وقوادين وعواهر في مبنى ليس لك إلا أن تتلصص عليه والسؤال يلح: لماذا؟.. لماذا علي أن أحمل وحدي شرف التاريخ والثقافة، أحمل صليبها عن شعبي كله كما حمله جمال حمدان وخليل حاوي وتيسير سبول، أحمله وأفرك عيني لأزيل غشاوة الإغراءات فكل ما يجري في المبغى تمثيلية كبرى. فالجوائز كاذبة، والمكافآت كاذبة، والعشاق منافقون، والعواهر منخورات القلوب، وما المطلوب من كل هذه المسرحية إلا أن تبدأ السؤال لماذا أنا؟.

ولكنك تعرف أن السؤال في حد ذاته هو بداية السقوط في شرك المبغى وبهرجاته الورقية اللامعة، لا تسأل.. امض في طريقك الذي خطه الجاحظ وابو حيان.. امض في طريقك الذي خطه مثقفو العالم الأحرار فلهؤلاء فقط شرف التاريخ وشرف البقاء وشرف الكلمة!...

ويقال إنه هناك، في أقصى الشمال الشامي وفي مدينة تدعى حران اجتمع رجلان، رجل يمثل البطش والعنف والقسوة العمياء، فخلده التاريخ والذاكرة الشعبية باسم النمرود، ورجل قلق لم يستطيع أن يقبل بما يراه من غباء وبربرية وقسوة فخلده التاريخ رمزاً للقلق الباحث عن الحقيقة والذي سيصل فيما بعد إلى النبوة، هذا الرجل خلده التاريخ والذاكرة الدينية باسم إبراهيم.

ابراهيم هذا الذي سيصبح أباً لكل الأديان السماوية والذي باسم الانتماء إليه ستزف دماء ودماء، وستستباح أعراض وأوطان.

إبراهيم هذا استيقظ يوماً وكان فتى فرأى الناس تندفع إلى المعبد الكبير، ولم يستطيع إلا أن يندفع معهم، فقد كان فضوله كبيراً، وصلوا المعبد الكبير فرأى الكهنة بلحاهم الثقيلة وعمائمهم المخروطية العملاقة. ورأى عيونهم المكحولة تعطي مظهر قسوة ورعب لا نهائيين، ورأى كبيرهم يشعل البخور في أوان عملاقة نشرت العطر المسكر المديخ في المكان وسمع الهتافات، وسمع الصلوات، ورأى الركوعات والسجودات والتمايلات والتراقصات، وفجأة أحس أنه غريب. ما الذي يفعله هؤلاء الناس.

أشار كبير الكهنة فامتدت يد وسحبت ستاراً فانكشفت الأصنام، أصنام كثيرة لرجل ضخم بارز العضلات يمسك في يده صاعقة، وأصنام لامرأة تحمل جرة تقذف بالماء والخصب، وأصنام لأطفال، وما إن انسحب الستار وانكشفت الأصنام حتى خر الجميع ساجدين وهم

يهتفون في انحصار: نمرود... نمرود... ولكن واحداً لم يركع ولم يسجد. ولم يجار هذا الطرش الذي كان يهتف في تقديس متعبداً لصنم من حجر. هذا الواحد كان إبراهيم.

لم يره الناس في انجذابهم، ولم يره الكهنة أثناء تأدية دورهم ولم يره الحرس أثناء مراقبتهم لما يجري، ولكن واحداً رآه فكاد يصعق. هذا الواحد هو أبو إبراهيم الذي كان يتعرق للعودة إلى البيت وتعنيف ابنه وهدايته قبل أن تقع الكارثة. ولكن إبراهيم قال لأبيه ببرود: ألست أنت من نحت هذه التماثيل؟ قال: بلى، كانت هذه أوامر الملك، ورد إبراهيم: فكيف تعبد ما صنعت يداك، ورد الأب: ولكنها أوامر الزمان، أوامر الملك، أوامر الكهنة، أوامر الدين، وماذا إن صنعتها بيدي، وما يداي في النهاية إلا شيء حقير مكلف بتنفيذ الأوامر الخالدة، إنه الدين يا إبراهيم، الدين الذي لن تستطيع العيش خارج نطاقه.

ولكن إبراهيم الفتى رفض الإصغاء إلى النصائح، وخرج إلى البرية يبحث عن ربه، فرأى القمر يزدهي في السماء بدراً مكتملاً منيراً، جمالاً خالصاً فركع على ركبتيه، وقال: هذا ربي، وقضى الليل يتعبد له سعيداً أنه عثر على ربه بعيداً عن الأصنام وصانعيها، ولكن الفجر اقترب، والقمر اختفى وأفل، فأصيب إبراهيم بالخيبة، ويصق على ربه الجديد، وقال: أنا لا أحب الأفلين، وأشرقت الشمس، فسعد برؤيتها تنير وتدفئ العالم، وركع أمامها في سعادة، وقال: هذا ربي، وقضى النهار يركع ويجثو ويتعبد، ولكن المساء جاء وكان على الشمس أن تغرب، ففربت، فنظر إلى مغيبها في أسى وخيبة وقال: أنا لا أحب الغاربين.

قضى إبراهيم زمناً طويلاً يبحث عن ربه حتى عثر عليه خارج الزمان والمكان والحواس، وكان هذا انفجاراً عظيماً في الفكر البشري، الخروج من التجسيد إلى التجريد، إلى عبادة إله لا يرى ولا يسمع ولا يحس، إله كامل القدرة والوجود، إله كامل الرحمة والعقاب، إله خارج عن كل ما تواضع عليه البشر من قبل.

فرح إبراهيم، بل طار عقله حين نزل عليه جبريل وبشره بأنه النبي المرسل المكلف بنقل هذا الاكتشاف العظيم إلى البشر، وهكذا تحول إبراهيم من ابن صانع الأوثان إلى النبي(المكلف بنقل رسالة التوحيد، وأب لكل نبي جاء من بعد.

عاد إبراهيم إلى حران، بلده، دخل المعبد ليلاً وحطم الأوثان وانتظر ليفاجئ الجميع بدينه الجديد، ولكنهم حين جاءوا للتعبد صبحاً، ورأوا أصنامهم المحطمة جنوا وبحثوا عن الفاعل، فرأوا إبراهيم وحيداً، فسألوه من فعل هذا، فأشار إلى كبير الأصنام، وقال: هو من حطمها، قالوا: ولكنه صنم فكيف يتحرك ويحطم فقال: فكيف تعبدون من لا يتحرك ولا يضر ولا ينفع.

بدأ إبراهيم مباشرة التبشير برسالته الجديدة فتحركت السلطات بسرعة ورأت خطورة ما يصنع، استدعوه، حاولوا تغيير رأيه، هدايته، ولكنه أصر على أنه الصواب وأنهم الخطأ، فأمر النمرود بإلقائه في النار حياً، ثم علق ساخراً: واطلب من ربك أن ينقذك، والغريب أن الحكم بالإلقاء في النار سيتكرر كثيراً سيتكرر(مع غاليليو، ومع جان دارك، ومع الحلاج، ومع ابن رشد، وأسماء كثيرة وقفت في حينها ضد رأي الطرش المعاصر.

ما يعنينا من كل هذه السيرة التي سردناها هو ما فعل الناس وهم يرون إبراهيم يلقى في النار، فالمقصود في النهاية هو الناس.

يقولون إن إبراهيم حينما رمي في النار حياً موثقاً، وقام الكهنة بالتهليل والبسطاء بالصمت المرعوب ينتظرون نهاية المباراة تقدمت الضفدع هذا المخلوق الصغير فملأت فمها ماء، واقتربت من النار وبصقت الماء تريد إطفاءها، ثم تقدم سام أبرص هذه العظاية الصغيرة فاقترب من النار ونفخ عليها يريد تأريثها... والحكاية تقول: لا الضفدع أطفأت النار، ولا سام ابرص ارثها، ولكن كلاً منهما كشف عن مكنونات قلبه، ولذا ومنذ ذلك التاريخ يقوم العرب والمسلمون والمسيحيون دائماً

بالدوس على سام ابرص كلما رأوه بأقدامهم. يدوسونه بكراهية قائلين: لم تستطع الأذى. فأنت لست إلا سام أبرص، ولكنك كشفت عن الحقد الذي تكنه في صدرك للعرب والمسلمين والمسيحيين. بالأقدام تداس، وستداس إلى أبد الآبدين و... نجا إبراهيم من الحريق. أنجاه ربه الذي يعرف أنه... الحق.

- ولما قرر ابن السندباد السفر إلى بلاد أرقسنان، توضأ، وبيت استخارة، وتوكل على الله ومضى، فلما وصل إلى البلاد الغريبة فوجئ بها محاطة بالأسوار العالية، بحث عن باب يشق هذه الأسوار فلم يجد. دار وبحث حتى أنهكه التعب، عاد إلى نقطة البداية فسمع أصداء وضجيج حركة، اقترب من مصدر الصوت ليجد أن هناك باباً صغيراً واطئاً يخرج منه الناس بأقفيتهم، فإذا ما دخلوا انحنوا حتى لمسوا الأرض بجباههم، وكان الناس يدخلون ويخرجون دون أن يهتموا بوقفته المراقبة، وحين أنهكه الجوع قرر الدخول من حيث دخلوا. ولكنه لم يستطع، فالباب واطئ، وعليه ان يركع حتى يدخل، حاول، ولكن عظامه المتيبسة لم تطاوعه، حاول ثانية، فرفضت عضلاته اللئيمة، وبعد تفكير قليل جاءه الحل الذكي، استدار بقفاه دون أن ينحني للمدينة ودخل.

كانت المدينة جميلة، شوارع طويلة، وأشجار كينا وغازورينا، حور وصفصاف، دلب ودردار، دكاكين ملأى بكل ما لم يره في المدائن التي زارها من قبل، بضائع لم يتخيل أن دكاكين يمكن أن تحتويها، أدوية تعيد الشباب ودمى منفوخة لنساء أجمل من نساء أحلام الصبا، أطعمة جمعت فيها السنة السمك مع أدمغة القرد وأنامل العذارى، أشربة مزج فيها الرحيق بالترياق بماء الكوثر وغذاء الملكات.

حاول أن يدخل واحداً من هذه الدكاكين فلم يستطع، فقد كانت أبوابها واطئة الاسكفات، تخلى ومضى، واعتقد أنه لابد واجد دكاناً

يستطيع الدخول منه، ولكن بحثه كان عبثاً، فكل الدكاكين سواء، وكل البائعين سواء، وكل الشارين سواء.

تحامل على جوعه، وأكل كعكة يابسة كانت في عبه ومضى، ولكنه شيئاً فشيئاً أخذ يلاحظ الناس. كانوا مصابين بحدب غريب يتراوح بين الانحناءة الخفيفة في الظهر والانحناءة حتى لمس الجبين الأرض. ينظر إليهم مندهشاً، فينظرون إليه حائفين مشمئزين، فما هذا الديناصور الذي دخل عليهم المدينة.

حاول الحديث إليهم، ولكنهم كانوا لا يسمعون، فقد كانت آذانهم القريبة من حدباتهم بعيدة عن مرمى فمه، تركهم ومضى وقال: لعل مرضاً أصاب المدينة، فجعل الحدب فيهم وراثياً، ولكن لم لا يسمعونه، ولم لا يجيبون على أسئلته.

مضى ومضى، وتنقلت به الشوارع الجميلة المشجرة والدكاكين الأنيقة والمطاعم الفخمة، ولكنه ظل غريباً، كانت المدينة الأولى يحس الغربة فيها بهذا الشكل، يحس بالعزلة حتى ليرفض الجميع الحديث إليه.

مضى ومضى حتى ألقت به الشوارع إلى حي بعيد منعزل، حي مغطى بالتك وصناديق الشاي العتيقة، تسلل إليه في حذر، فهو يسمع دائماً عن قسوة الفقراء ولصوصيتهم، عن فسادهم وحسدهم للأغنياء.

وللمرة الأولى ينظر إلى ثيابه الأنيقة في خوف، فمن يدري، ربما كانت أداة قتله أو سرقته.

تسلل قليلاً يسوطه الجوع إلى الطعام والكلام، الجوع إلى الناس والسماع، وفجأة رأى رجلاً عجوزاً يلف وسطه بغوطة مستلقياً في الشمس يغني، راقب السعادة على وجهه في استغراب، كان يغني، وتذكر أنها المرة الأولى التي يسمع فيها رجلاً يغني في هذه المدينة، تنحنح، فانتبه العجوز إليه، فهب واقفاً، وأدرك ابن السندباد ببساطة أن الرجل

غير أحدب. اقترب منه فحياه العجوز في كرم، واستغرب، فكيف وصل مثل هذا الأنيق إلى حيهم. ولكن ابن السندباد لم يترك له فرصة للسؤال إذ بادره:

- سيدي أضناني المشي، وأرهبتني الوحدة، فلم لا يكلمني هؤلاء الناس.

قال العجوز: لم يسمعوك ليكلموك.

- ولكن صوتي عالٍ.

- وراسك عالٍ.

فما أفعل؟...

- ذلك لك، إن أردتهم يسمعونك فأحدب إليهم.

- ولكن عظامي قست، ولم أعد أستطيع الاحديداب، ثم لماذا أشوه ما خلقه الله في سوياً.

نظر العجوز من حوله في خوف، وسحبه من يده جانباً. وقال وعمر السامعين يطول:

- شعار المدينة الذي لم تقرأه يقول: الحدب نعمة، والحدب كرامة، الحدب درجة والحدب رفعة، وكلما انحنيت يا بني ارتفع مقامك، وكلما أمعنت اقتربت من السعادة ألم تسمع قول شاعركم بديع خيري يقول: علشان ما تعلى وتعلى وتعلى لازم تطاطي تطاطي تطاطي.

- بلى لاحظت.

- إنها المراتب تبدأ بانحناءة في الرأس لتصل إلى انحناءة في العجز.

- وماذا عن غير الحدب.

– إنهم المنبوذون من أمثالنا. يقطنون مدن التنك. ويلفون عوراتهم بخرقة. فاختر لنفسك، احدب تتقدم، ارفع رأسك تصبح في جوارنا.

اصفر وجه ابن السندباد، وفكر، وفكر، ولكن حنان ذوي القامات المنتصبة الذين التفوا من حوله جعله يخلع العباءة والرداء والشال الحرير ليقيم معهم، ولكن ما أرعبه هو أنه ما إن خلع ثيابه الحريرية حتى اختطفها ذوي القامات المنتصبة وهربوا بها إلى المدينة يتدربون على الاحديداب، فهناك الجنة.

كان لنا بيت صغير من تلك البيوت المنتشرة إلى جانب النهر حين جاؤوني بشجيرة حور. كانت غصناً أخضر ريان، ففرحت بها. كنت أحب شجر الحور دائماً. فخضرته ولدونته وطراوته وربيعه ممتع وفتان..

زرعوها جانب النهر. فأضافت إلى شجرة التوت وشجرة النارنج والسنديانة رونقاً وحيوية. فهي الوحيدة تهتز وتتمايل تحت أول نسمة هواء. فتنت بها حتى صرت لا اشرب قهوتي إلا في الشرفة أرقبها وأرقب الأشجار الأخرى تفتق براعم خضرتها وزهورها إلى جانبها.

لم يهتم الأطفال بها في البدء. فقد كان اهتمامهم منصباً على شجرة التوت يترقبون أول توتة حمراء تنضج لينقضوا عليها، وأول زيز يحط عليها ليقبضوا عليه. وكانت زوجتي تنتظر ثمار النارنج لتصنع منه مربّاها الخاص، إلا أن للجدة طرافتها وجمالها، فانصب اهتمامي على شجرة الحور التي لم تخيب أملي، فقد ضربت جذورها قوية، وأخذت تعلو. وتمتد صاعدة سامقة متعالية.

كانت أوراقها القلبية الشكل زمرد بهجة يطيب ويطيب والأغصان تعلو. والنهر يشفق على صباها فيمنحها الرواء، وأنا أمنع الأطفال عن اذاها وهي تزكو وتأخذ حظها.

في الربيع التالي لاحظت اصفرار شجرة النارنج. فلم آبه كثيراً. رششتها ببعض المبيدات ابعد عنها الحشرات مسببة الصفرة. ولكن المبيدات لم تؤثر فقد ازداد اصفرارها، وما انتصف الصيف حتى اتضح أن عيناً قد أصابتها، فجردتها من ورقها وثمرها وأغصانها الجديدة، ولم

تلبث أن ذوت، ورغم حزن زوجتي التي حرمت من مرياها، فقد كان من الواضح أنها يجب أن تقطع فقطعناها، وكان عزائي في شجرة الحور التي ازداد جذعها غلظاً وأغصانها سموقاً وورقها زمرداً أخضر يبهج القلب والعين.

رمقتها زوجتي بغضب وقالت: لو كان لهذه الخضرة اليانعة بعض ثمر لعوضتنا عن فقد شجرة النارنج!

لم اعبأ بالرد عليها. فقد طابت قهوتي في الشرفة وشجرة الحور القريبة توشوشني، فقد طالت وسمقت حتى صارت جارتي في شرفتي، وكانت فتنتها الخضراء تعويضاً كافياً عن فقد شجرة النارنج.

في الربيع التالي غضب الأولاد كثيراً، فقد لاحظوا تأخر ظهور ورق شجرة التوت، ولكني طمأنتهم، فما هي إلا أيام حتى تخضر وتورق، وصرخ فيّ كبيرهم: ولكن شجرة الحور قد أورقت وأخذت أغصانها في الطول. ألا ترى؟

كنت أرى واعجب فما الذي جعل شجرة الحور تورق وتطول، وشجرة التوت تراوح في مكانها. ونسيت الأمر معجباً بشجرة الحور التي أخذت تتجاوز شرفتي سامقة إلى العلاء، وحين تكرر غضب الأولاد حاولت العناية بشجرة التوت، ولكن عنايتي جاءت متأخرة، فما إن جاء الصيف حتى تكرر قدر شجرة النارنج، فاصفرت التوتة وتساقط ما تأخر من ورقها، ثم يبست تماماً، وصار من الواجب إزالتها حفاظاً على جمال حديقتنا النهرية.

في الربيع التالي لاحظت إن شجيرات المشمش والتفاح، وتوت السياج كلها ماتت، ولم يبق في الحديقة إلا شجرة السنديان التي ما كانت تسر القلب ببطء نموها وشجرة الحور التي علت وعلت، حتى صارت معلماً من معالم حارتنا الأساسية، ولكن زوجتي صرخت: كله من هذه الحورة اللعينة، لقد قتلت كل أشجار الحديقة.

لم استطع تصديق ذلك، ولكني نظرت إليها يتساؤل، فهزت جزعها الضخم الطويل العظيم ففطت على عدة حدائق معاً بظلها الوارف، وفتنتني بسحرها، فاغضبت.

وكان مساء صاخباً، مساء لم نشهد له مثيلاً منذ أمد طويل، مساء عصفت به الريح وصفرت من شقوق الأبواب وزوايا النوافذ، فأوينا إلى أسرّتنا، وأحكمنا الأغطية من حولنا نصغي إلى غضب الطبيعة العتيف، وفجأة اذعرنا صوت عنيف اخرجني من سريري لأكشف ما جرى، فجأة حل السكون، سكون جعلني أعود إلى سريري مؤجلاً مواجهة الطبيعة حتى الصباح.

كانت المفاجأة مؤلمة في الصباح حين رأيناها ترفع جذورها إلى السماء وقد تدلت أغصانها ذابلة حزينة، كانت العاصفة قد أجهزت عليها، التفت إلى الحديقة واعتصر قلبي حزناً، فلقد خلت من كل شجر إلا السنديانة العتيقة التي ما استطاعت الريح زحزحتها.

اجتمع الجيران على منظر الحورة المقتلعة وكان لا بد من إزالتها فقد سدت مجرى الطريق بكتلتها العظيمة المنهارة وقال جاري الذي يعمل في صناعة القباقيب وهو يتحسس جذعها الذي ما زال طرياً: حورة بديعة!

قلت في عنف: لا، لن تأخذها لصنع القباقيب.

نظر إلي في دهشة وقال: ولكن.. ماذا تظنك تصنع بها، نهايتها معروفة.. للقباقيب.

وصرخت في ألم: ماذا؟

فتابع: طبعاً يا سيدي، الحور شجر يكبر بسرعة دون أن يضرب بجذوره عميقاً في الأرض. انظر.

ونظرت. كانت الجذور صغيرة قصيرة، فقلت: ولكن انظر إلى هذا الجذع العظيم.

قال: لا عظيم ولا يحزنون. الخشب الذي ينمو بسرعة هش لا يصلح للأثاث الثمين ولا للجسور، ولذلك فقد اختصصنا بالحور نحن صانعي القباقيب، الخشب الحقيقي هناك، وأشار إلى السنديانة في الجانب الآخر من الحديقة، تابعت تحديقي في شجرة الحور التي كانت عظيمة في حزن، فأكمل يواسيني: كنت أظنك تعرف نهايتها، ألم تسمع بالمثل القائل: الحور مهما طاب أخرته للقباقيب!..

وللمرة الأولى أحس بالحزن لضياع الأشجار الأخرى فقد خلت الحديقة فجأة من الخضرة، ولكنهم حين سحبوا الحورة بعيداً خلت الحديقة إلا.. للسنديانة.

أبو معروف

أبو معروف سمان الحارة، لا ليس ذلك البقال الذي نعرفه في السوبرماركت، ولا ذلك الداخل في المهنة يريد ان يصبح مليونيراً في سنة، ولا ذلك المتلئة رفوفه بالمعلبات المصنوعة في بلاد برء، ولا اللابس معطفاً أبيض فوق ثيابه ليشعرك أنه طبيب جراح وما مهمته إلا انتزاع زوائدك المالية من جيوبك الداخلية فقط..

لا. أبداً، بل كان ذلك السمان الذي إذا ما نظرت إلى داخل دكانه شعرت بالطمأنينة والإلفة لبساطتها فهناك كيس الرز المفتوح، والسكر الطافح والبرغل المندلق وصفيحة السمن العربي مبعوجة الغطاء، وحلة الحليب سوداء القاع لكثرة ما غلي فيها من حليب، ، و«نعارات اللبن» الفخارية ذات القشدة الصفراء السميكة وكان يجول في مملكته الصغيرة هذه لافاً وزرة «إزار» حول خصره يحمي شرواله الأسود من وساخات الدكان..

كانت دكانه غرفة انتزعت من بيته العتيق وكان من الواضح أن سعادة هادئة تلف البيت والدكان والعائلة جميعاً. سعادة ترف من حولهم ضباباً خفيفاً لا تمسكه الأيدي ولكن حواس أخرى تحسه وتبتهج له.

كان لأبي معروف طقوسه التفاؤلية الخاصة التي لا ينحاز عنها فلو جئته ولم يستفتح بعد أي لم يبع صفقته الأولى فسيبيعك ما تطلب ولو خسر. فالزبون الأول لا يجوز رده. انه الاستفتاحة المباركة وكان البعض يتصيد منه هذه الفرصة ولو للمناكدة و«التعليم» عليه. أما بعد صفقته الأولى فله سعره الذي وإن لم يكن فاحشاً إلا أنه لا يتراجع عنه

فإذا وصل الزبون الثاني والثالث رايته ينظر إلى جاره وغريمه نظرة ذل وانتصار ثم يرسله إليه قائلاً:

حرام. إنه لم يستفتح بعد.

لم تكن غاية الدكاني في تلك الأيام أن يصبح مليونيراً في سنة. بل كان يكتفي بـ «خبزنا كفافنا» مثل معظم الناس مقبلاً وجه يده وقفاها ومجيباً على سؤالك، الحمد لله مستورة..

كان يمكن لهذه الحال أن تدوم ولسعادة أبو معروف وأم معروف وصغارهما أن تستمر إلى الأبد لو لم تدخل الحارة فجأة الحمى..

جاء أحدهم وعرض على أبو معروف شراء البيت والدكان ليهدمهما ويبني مكانهما بناية ولكن ابو معروف رفض فعرض عليه مبلغاً مرضياً فرفض زاده. فرفض. ومازال يزيد حتى وجد ابو معروف وأم معروف ومعروف أن من الحماقة الرفض. فباع.

وهنا بدا الشرح في جنة ابو معروف الهادئة وهنا بدأ سقوط أبو معروف من الجنة فلقد ذاق طعم التفاحة. تفاحة المال السهل. وطمع.

اشترى بيتاً جديداً اكثر سعة ورشاقة من البيت العتيق وفرح الأولاد به، فلقد اتسعت باحة لعبهم واتسعت فرجة ما بين فرش نومهم وفرحت أم معروف فلقد صار لديها مطبخ كبير تصول فيه وتجول.

ولكن الوحيد الذي لم يهدأ قلقه كان أبو معروف فلقد اكتشف أن فضل ما بين الصفقتين المتبقي لديه كان يزيد على كل ما ربحه خلال سنوات عمره الطويل. وبدلاً من شراء كان جديدة كما كانت أم معروف تلح عليه أخذ الأرق يغزوه فلقد اكتشف الطريق السحرية لكسب المال السريع.

فوجئت أم معروف بعد اقل من ستة أشهر بأبو معروف يقول لها:

- جهزي نفسك فسننتقل غداً.

- إلى أين؟

- إلى البيت الجديد.

عارضت في البدء ثم رضخت كما توقع تماماً. وازداد فضل ما بين الصفقتين ومازال يبيع بيتاً ويشتري آخر فيربح من هذا ويخسر في ذاك حتى قالت أم معروف وقد فاض بها الكيل:

- وبعدين.. لقد أصبحنا مثل النَّوَر، كل يوم ولنا بيت جديد. لمن أترك هذا البيت.

عبثاً حاول إقناعها، وعبثاً حاول إغرائها بالمبلغ الكبير الذي سيربحه في صفقته الأخيرة إلا أنها تمسكت بمناد البغل. فكر، وفكر، وفكر في الربح الذي سيخسره، وفي العربون المضاعف الذي سيعيده للمشتري فكبر الأمر عليه، أعاد محاولته، فأصرت على الرفض، تأزم الأمر. هددها بالطلاق، فأصرت معتقدة أنه لن يجرؤ.

ولكن. أبو معروف رجل مستقيم لا ينكث وعداً قطعه. طلق أم معروف وباع البيت وتزوج امرأة جديدة أكثر شباباً وظن الأقدار صالحته فلقد عوض الجنة العتيقة بجنة جديدة والسعادة البالية بسعادة نضرة.

بعد سنين رأيت أبو معروف يدفع عربة صغيرة تحمل الخضار ويجر وراءه طفلين صغيرين قذري الوجه والثياب وقد اختفت بسمته المتفائلة وتهدل شارباه المعقوفان وكان واضحاً أن عليه أن ينتزع قوته بالعذاب فلقد نزل الأرض مضحياً بالجنة بعد أن ذاق تفاحة الربح السهل السريع..

الأمبوبايا

الأمبوبايا
عازفات الناي الإلهيات
حاملات البهجة من العاصي إلى النيبر
آه ايتها الأمبوبايا، يا بنات عشتار الجميلات.

بروغوريوس / شاعر الطاكي

خلفية بنفسجية وثياب صفر وحمر وأقدام ترتفع قليلاً عن الأرض حتى لتكاد تطير. بل إنها تطير إلا قليلاً وما يمسكها عن الطيران إلا النصاقة دقيقة بالأرض أياد سامية إلى السماء تهم بالطيران، أذرع دقيقة محملة بالدمالج والأساور، والوجه، الوجه المسفوع بسمرة صحراوية وضحكة منتشرة بين الشفاه والعيون والوجنات والجبين، بسمة تكاد تقفز من المكان لتحل فيك فتبتسم، ثم تنشر الذراعين وتهم.. انت تعرف أنك تستطيع الطيران كما استطاعوا، ولكن ما يمسكك؟ أف... ما يمسكك كثير، كثير عمره قرون من الشقاء والهزائم والحكام الطغاة، ولكن.

آه الأمبوبايا.. الأمبوبايا ها هن ثلاث يحملن امبوبتهن الأنبوبة بلغتنا المعاصرة القصبة، أو الناي باسمها الفارسي ويعزفن. نحن لا نسمع العزف، ولكنا نستطيع أن نتخيل سحر ذلك العزف الذي حول كل هؤلاء الشبان المرحين إلى مخلوقات تعتقد انها تستطيع الطيران.

انظر إلى الركبة الممدودة والقدم المرتفعة عن الأرض والأذرع

المعتدة إلى السماء. إلى البسمة الغامضة على الوجه، بسمة المتعة الكاملة، المتعة المتصلة بمتعة الجميع. إنه عيد من أعياد أولئك الشاميين المرحين أيام كان المرح حقاً لهم. والمشهد مرسوم على جرار من أفاميا. من انطاكية. من دوراً أوروبس، من الجليل ـ طبريا ـ من أشكيم ـ نيابوليس ـ نابلس. جرار وجرار. جرار مصنوعة من صلصال نقي بأيدي صناع أحسنت الصنع فجعلت الجرار تكاد تشف لرقتها. وكان يجب أن تشف لولا قسوة الصلصال. جرار للخمور. وجرار للزيت، وجرار للبن، وجرار للعسل. وجرار للفرح، للفن، للجمال، للزينة، لتخليد لحظات الفرح.

هؤلاء الأجداد المرحون الذين أرسلوا إلينا بمرحهم مطبوعاً على جرار تحدت القرون والسنين والغزوات والدمارات والانهيارات، جرار تقول إن الفرح حق لنا أيضاً فلسنا مختلفين عن بقية الشعوب التي يحق لها المرح وهي تمرح، ويحق لها السعادة وهي تسعد. ويحق لها النصر وهي تنتصر، فلماذا حق لهم أولئك الأجداد المرحون وحرم علينا.

كان هذا اللقاء مع الأمبوبايا بعد يوم واحد من اللقاء بعدد من الشبان بعد واحدة من المحاضرات. فأخذوا يحدثونني عن أوضاع الشباب، عن اليأس المطبق الذي ران عليهم بعد الانهيارات العربية الأخيرة، وبعد فعلة عرفات، وحدثني واحد منهم عن الحزن المخيم عليهم، عن ضياع البوصلة، عن المرارت التي يعيشونها.

قال الشاب بأسى: هذه الحياة معبر قاس. إلهي اختصر هذا المعبر بسرعة لنصل إلى ملكوتك الهانئ والعادل بسرعة.

هذا الدعاء اليائس المرور الأخير جرحني في القلب، فمن قاله لم يتجاوز السنوات الأولى من عشرينات عمره، سنوات الحب والطيش والرقص والطيران والدبكة والقفز مع الأمبوبايا، مع عازفات الناي اللواتي طالما أمرحن واسعدن ابناء جيلهن من أولئك الأجداد الذين خلدوا سعادتهم مرسومة على جرار حفت عليها التربة وضمتها منذ

عشرات القرون، توقفت أسأل نفسي: ما الذي جعل هذا الشاب يصل إلى هذا اليأس وكراهية هذه الحياة يعتبرها ممراً قاسياً مراً يتمنى الخلاص منه لينتقل إلى المملكة الأخرى!! لماذا وهذه الحياة ما تزال ملأى بالسعادة والفرح والشباب. ما الذي جعله يشعر ويعلن أن هذا الكنز الذي يملكه . الشباب . كنز مرفوض، بل عبء ممض. كيف استطاع قساة الزمان تحويل الفرح إلى ألم والشباب الى شيخوخة والأمبوبايا إلى ندابات الإذاعات.

توقفت أراجع كل هذا حين قفزت واحدة من الأمبوبايا من جرتها. وقفت أمامي بذلك الجسم الملائكي وقصبتها الحنون. تكلمت فلم أفهم. رقصت فلم أفهم، وأخيراً أمسكت بأمبوبتها . قصبتها وعزفت، ففهمت.

كانت تقول: الفرح حق للمنتصرين، الفرح حق لأبناء الأرض لم يفارقوها ولم يبخلوا عليها بدمائهم.

قلت: بذلنا الكثير من الدم، بل وأكثر من كل الشعوب.

قالت بأمبوبتها: ولكنه ضاع في السواقي الخطأ. أضاعه حكامكم المتعجلون الطائشون.. لا تياسوا فيومكم، يوم الشباب والفرح آت..

اقبضوا على جمرة إيمانكم بالوطن، وستفرحون.

اطلقت شهقة حانية من أمبوبتها.. وجدت جسمي يهتز أطلقت صرخة أخرى فرأيت عظامي المتصلبة تلين، أطلقت تهيدتها الطويلة فوجدت ركبتي تتثنيان ثم تنطلقان مع الذراعين الممدودتين في رقصة فرح لم أعرفه من قبل.. تلفت من حولي كانت الأمبوبايا قد رجعت إلى جرتها، ولكن نشيد فرحها ما يزال يرن في أذني يدعونا للفرح الذي نستحق.

لقيته في القاهرة وكنت فتى متفتحاً على الحياة، على القراءة، على متابعة كل أشكال الثقافة الممكنة لفتى وجد في القاهرة في ستينات هذا القرن و.. زمن عبد الناصر ما قبل النكسة حيث المد الثقافي الهائل. الكتب الكثيرة الرخيصة حتى الإغراق. الترجمات الهائلة. المجلات الثقافية الشعبية والتي أحاكمها الآن فأقول إنها ربما كانت شعبية أكثر مما يجب. الرسالة، الرواية، القصة، الشعر و.. المسرح.

لقيته في القاهرة وكنت أجالس أصدقاء في مقهى في حي الحسين، وكنا نثرثر مفتونين عن نسخة من كتاب الأغاني كنت قد اشتريتها منذ أيام من معرض للكتاب بمبلغ بخس جداً هو كما أذكر ثلاثمائة وستون قرشاً. على طاولة قريبة كان يجلس كهل عرفنا فيما بعد أنه تونسي تدخل فجأة في الحديث فسألنا إن كنا كثيري الإعجاب بالأغاني، ولما أجبته بالإيجاب وبالانزعاج بعض الشيء لهذا التدخل الفظ سألني إن كنت أنوي حفظ الكتاب؟ ماذا؟ هتفت في سخرية، حفظ الكتاب؟ وهناك من يحفظه؟ قال وهو يشير إلى الجزء الذي أحمله. افتح الكتاب لا على التعيين، وفتحته. قال: اقرأ السطر الأول. وقرأته، فأشار إلي بطلب إلي التوقف. فتوقفت ليتابع مكملاً الفصل، ثم طلب إلي أن أعيد فتح الكتاب حيث أشاء وفتحته وقرأت. وأكمل. لاكتشف أن الرجل يحفظ الأغاني فعلاً بأسانيده ورواته وحكاياته.

دفع الرجل ثمن مشروبه ومضى تياهاً تاركاً لنا غارقين في ذهولنا وحرجنا وتفاهة ما نصنع حين.. تقدم من طاولة قريبة. تقدم من

سأعرفه فيما بعد كثير جداً من الزمن باسم الأسدي، ولكنه عرفنا على نفسه باسم خير الدين.

كان خير الدين النقيض الكامل للتونسي الذي أذهلنا. قال: هؤلاء رعيل عاشوا وكنا في حاجة إليهم لحفظ ما كتبه ووضعه الأجداد. لإيصال الكنوز التي وضعتها حضارة كانت... مزدهرة.. إنهم حملة مشاعل فقط، ولكنهم ليسوا مضيئيها، أما أنتم، الجيل الذي أرى، فعملكم لا يجب أبداً أن يكون حمل مشعل أضاءه الأجداد، عملكم هو أن تضيئوا مشاعلكم الخاصة. استضيئوا بمشاعل الأجداد، ولكن لا تجعلوا أنفسكم حمالين تتشغلون عن الحياة والإضاءة... بها.

طال الحديث وانصرف بعض الأصدقاء، أكملنا الحديث في مطعم للفول قريب، ودفع كل منا عن نفسه، فقد رفض أن يدفع عنه أحد، كما لم يحاول أن يدفع عن أحد. كان الرجل مكتفياً بذاته، مكتفياً حتى الإحراج، دخن سكائره الخاصة، ولم يقبل سكائرنا كما لم يعرض سكائره على عادة الشباب. حدثنا عن رحلات ما كان نحلم بها، رحلات قام بها إلى الشمال الإفريقي، إلى الهند، إلى أوروبة، رحلات قام بها مستخدماً أبسط وسائل المواصلات وأقلها تكلفة، مقيماً في أفقر الفنادق والنزلات، ولكنه كان يرحل مفتوح العينين، مفتوحهما حتى الدهشة الطفلية.

منذ منتصف الأربعينات لم يتوقف الأسدي عن الرحلات بدءاً بفلسطين ومروراً بالوطن العربي بمعظمه وإيران وإسبانيا وأوربة والسودان والحبشة وكان همه الأول في رحلاته هذه هو الإطلاع، على المكتبات أولاً، ثم على ماترك الإنسان من ثمار روحية (آثار).

هذه الرحلات اثمرت عدداً كبيراً من الدراسات والكتب منها التعليمية، ومنها الموسوعية، ومنها الإبداعية، ومنها البحثية المفاجئة ولعل اهم ما ترك ديوان شعره (اغاني القبة) والتي ربما كانت من المبادرات الأولى في كتابة الشعر الحديث المضمخ بالصوفية، أما الكتاب الأهم

والذي لم يجد منافساً له ربما لعقود، فهو موسوعة حلب التاريخية، كتاب من سبعة مجلدات ضمنه كل ما يعرف وليس ما يعرفه بالقليل إلى جانب معظم ما عرفه الآخرون عن حلب لغوياً وثقافياً وفولكلورياً وأصولاً لمعاني الكلمات التي قد تبدو مغرقة في العامية أو الأعجمية. أغاني الأطفال. الحكم. الأمثال. العبارات التي يتبادلها القبضايات. حكم النساء السرية لإحكام قبضاتهن على عالم ليس لهن، وهو ما أسماه (كتاب اللباد) هذا الكتاب الذي لم يسبقه في الشام على الأقل كتاب هو درة ما كتب الأسدي، ولكنه بالإضافة إلى موسوعة حلب التاريخية ترك موسوعة في النحو، وترك كتاب الألف، وكتاباً في الأيس والليس والأيس والليس مصطلحان فلسفيان عربيان يعنيان بالمصطلح الحديث (الوجود والعدم) ترك الدراسة عن (الله) من الجانب اللغوي فقط وترك دراسة عن كملة (يا ليل) كان الرجل مغامرة روحية حية. تبرع بمكتبته التي جمعها بأهداب العيون للمكتبة الوطنية أكثر من مرة.

هذا الرجل العظيم والذي يذكرنا بشكل مأساوي بزميله الموسوعي أبي حيان التوحيدي فقد كانت شيخوخة كلا الرجلين قاسية. لم يكافأ اي منهما على ما قدم لجيله من ثمار روحه إلا إدارة الظهر، ففي اخريات أيام الأسدي (حسب دراسة الباحث الأستاذ عبد الفتاح قلعجي) يحدثنا عن إصابة الأسدي بمرض السكر الشديد والخثرة فأرسلوه إلى دار العجزة يقضي آخر أيامه وحينما توفي حملوه في سيارة بيك أب بلا تابوت إلى مقابر الصدقة حيث دفن بلا مشيعين ولا بكاة وضاع قبره، ولكن موسوعته الكبيرة عن حلب ستظل مشعلاً لحياتنا الأدبية تماماً كالبصائر والذخائر، ومسامرات التوحيدي الذي لا يعرف له قبر أيضاً، فقبور العظماء الحقيقية هي ذاكرة محبيهم.

قالت: لقد عشت حياتي سعيدة، لست آسفة على يوم واحد منها.

ونظرت إلى الوجه النحيل الشاحب الصابر، الوجه الذي شوه جمال عنقه انفجار موقد الغاز قبل أربعين سنة، نظرت إلى العينين الذابلتين ولكن المرحتين والماكرتين والمداعبتين.. لقد عشت حياتي سعيدة، كان هذا جوابها على شكواي من صعوبات ومعانيات جعلت الحياة بالنسبة لي جرعة مرة. لقد عشت حياتي سعيدة، كان هذا تعليقها بعد حديث طويل بعد فراق طويل، حديث حدثتني فيه عن حظوظ بناتها وأبنائها.

فابنها البكر هاجر إلى أمريكا دون أن يخبرها أنه مهاجر، إنه ذاهب إلى أمريكا في دورة تدريبية، ولكنها حين عرفت بعد أمد ومن خلال الهاتف أنه قد هاجر أصابتها الجلطة، وحملت إلى العناية المشددة. قالت: لم استطع أن أتحدث إليه لدقيقتين على الهاتف أبداً. إنه ما أن يتحدث وأسمع صوته حتى يختنق حلقي، وتمتلئ عيناي بالدموع، ولابد من استدعاء أخت أو كنة أو أخ قريب لإكمال المكالمة.

قد عشت حياتي سعيدة، كانت قد تعلمت الخياطة، وصارت معلمة فيها، وحين تزوجت زوجها الأول، وكان يعمل خادماً في فندق أحست أن عالمها قد اكتمل رغم التشوه في عنقها، ولكن الزوج الذي أحس أنه خدع بسبب هذا التشوه الذي لم يلحظه في عنقها بدا في معايرتها، ثم في النظر من حوله إلى النساء الأخريات، وأنجبت له ولدين، ولكن النساء الأخريات كن أكثر إغراء، وسرعان ما تخلى عنها

وولديها فعادت إلى ماكينة الخياطة، وعاش ولداها معها بأحسن مما كانا لدى أبيهما.

لقد عشت حياتي سعيدة، كانت قد شكت لي من صهرها صانع المباءات الذي تعاقد مع متعهد سعودي ومع عدد من مهرة العمال ومضوا إلى السعودية حيث يقيمون في بيت جماعي لا يسمح لهم فيه باستدعاء زوجاتهم. والرجل حمش لا يسمح لزوجته بالإقامة مع أمها، فتركها تعيش في بيت متطرف من بيوت ضواحي دمشق مع طفلتها، وها هي ثلاث سنوات تنقضي والبنت لا معلقة ولا مطلقة، وكل ما يربطها بزوجها هو تلك التحويلة المالية المتواضعة كل شهرين أو ثلاثة. قالت: معلمه لم يدفع له أجره منذ ستة شهور.. دخلك... ما معنى كلمة الكساد؟.

لقد عشت حياتي سعيدة، كانت بعد أن طلقها زوجها الأول قد تزوجت من معلم طيان أنجبت له ثلاث بنات وصبياً، ولكنها لم ترض أن تتخلى عن ماكينتها للخياطة هذه المرة، وأذكر أني زرتها في بيتها بعد زيجتها الثانية وكانت النظافة تشع من كل مكان، ليست النظافة فقط، بل والترتيب والأناقة والتنسيق وكان لديها عدد من المتدربات، وكان جزء من عملهن القيام على إدارة البيت كتعويض عن تعليمهن الخياطة، كانت أصص الورود والزهور المنتشرة والمعلقة تشير إلى أن هناك يداً خضراء تدير المكان.

لقد عشت حياتي سعيدة، كانت قد شكت لي من أن صهرها الآخر مغامر مجنون، أصر على أن يعمل في صناعة التريكو، والتريكو مهنة مربحة، ولكن رأس ماله ضعيف.. هه مسكين شارك واحداً فأكله، وخسر كل شيء. ثم تعاقد مع الدولة على أن تصدر منتجاته كلها إلى الاتحاد السوفيتي، ولكن هه.. مسكين على حظه سقط الاتحاد السوفييتي وأفلس.. أنا قلت له لا تكبر اللقمة... ليكه مثل ما انت شايف حاطط بضاعته قدامه وقلبه يحترق وبيني وبينك بنتي بتمر كل كام يوم.. وأنا ما أقدر أشوف أولادها ناقصهم شيء وأقصر...

لقد عشت حياتي سعيدة صحيح أن بنتها البكر قد توفي زوجها في حادث عمل وترك لها خمسة اولاد. ولكن البنت قوية كامها كسرت جدار إحدى غرف البيت وحولته إلى دكان وأخرجت ابنها ذا الثلاثة عشر عاماً من المدرسة، وجعلته يفتح الدكان وهي تراقبه من وراء باب الدكان الداخلي المؤدي إلى البيت، ومشي الحال..

لقد عشت حياتي سعيدة، كل يوم خميس لدي وليمة كبيرة أجمع فيها أبنائي وبناتي وأحفادي، وليمة استعد لها منذ الثلاثاء، فصحتي كما ترى على قدها لم أعد استطيع أن أقف وراء الموقد لعشر ساعات حتى أطبخ لهم الكبب والمحاشي والمقالي وفتة الباذنجان. فابني الصغير (الذي انهى الجندية منذ ثلاث سنوات) يحب فتة الباذنجان لذلك اشتغل على مهلي. أبدأ الطبخ والتخزين في البراد منذ الثلاثاء حتى إذا جاء مساء الخميس اجتمعوا لدي جميعاً.. أنا شهيتي وصحتي لم تعد تسمح.. أكتفي ببضع قطع من البندورة والخيار، وأحياناً ملعقتي طبخ، ولكن سعادتي تكون حين ارى الأطباق وقد خلت والصياح، صياح الأطفال، قد علا والفرح والهرج والمرج والنكات، أجلس جانباً أتأملهم وأتذكر طفولتهم، وأقول آه الحمد لله... لقد عشت حياتي سعيدة، لست آسفة على يوم منها.

تأملتها استحلبت كلامها، فكرت، راجعت أيامي، وتساءلت: هل أجرؤ أنا وكثيرون ممن هاجموا الدنيا فصرعوها وصرعتهم على أن يقولوا بهذه البساطة والثقة: لقد عشت حياتي سعيداً... لست آسفاً على يوم منها... صمتت... لكنت الجملة قليلاً، تحاملت لأمضي، والسؤال يرن. ولكن ما السعادة إذن... ما السعادة؟..

حين كتبت ماري شللي روايتها الشهيرة مخلوق الدكتور فرانكنشتاين المرعب لم يكن يخطر ببالها أن اسم هذه الشخصية الروائية سيطغى على اسمها، بل وعلى اسم زوجها الشاعر ذائع الصيت كثيراً في القرن التاسع عشر بيرسي شللي: فكم من الناس المعاصرين لنا، بل والمتعلمين تعليماً جيداً يعرفون بوجود كاتبة روائية اسمها ماري شللي، بل وكم حتى من معاصرينا المتعلمين قرأوا، لأنهم لا شك وقد سمع بعضهم باسم بيرسي شللي ضمن الحديث عن الرومانتيكية وشعرائها.

ولكن اسم فرانكنشتاين الاسم الخيالي لدكتور ألماني صنع مخلوقاً من مجموعة من أعضاء لأشخاص ميتين. ثم أضاف لها أكسيراً ما في مختبره، فدبت الحياة في هذا المخلوق المرعب، ثم تحول إلى قاتل، ثم إلى مدمر لسيده فرانكنشاتين نفسه ومختبره.

تطورت القصة، ونسيت تفصيلاتها ولكن اسم فرانكنشتاين بقي في ذاكرة شريحة عريضة من الناس اسماً وعلماً على مخلوق مرعب مدمر سيدمر صانعه ولا شك يوماً.

دكتور فرانكنشتاين أراد تحدي الطبيعة، أراد صنع مخلوق لم ينتجه زواج، ولم تربه أمهات، ولم يرضع حليب بيوت، بل أراده مخلوقاً كبيراً نامياً، جاهزاً لتنفيذ أوامر سيده فكان ذلك المخلوق المرعب الذي روع محيطه وارعب جواره وانتهى بقتل صانعه.

المخلوقات كلها تنشأ نشأة طبيعية. تنسجم مع جوارها كالأشجار مع أرضها، مع مائها، مع شمسها فتتشكل جزءاً من المحيط الطبيعي لها،

ولكنك حين تزرعها كبيرة نامية وتحقنها بالمخصبات والمياه والدفيئة الزجاجية قد تستطيع الحفاظ عليها لفترة تدفع ثمنها غالياً. ولكنك ما إن توقف عنها المخصبات الصناعية والمياه الصناعية والدفيئة الزجاجية المصطنعة حتى تستسلم لقهر البيئة المحيطة القاتلة التي لا تستطيع احتمال الجسم الغريب.

هل رأيتم يوماً الحرف العبري ورأيتم شكله المأخوذ من تاريخ قديم لم تشذبه الأيام ولم يجمله الاستعمال. هل سمعتم هذه اللغة الخشنة لم يشذبها شعر العشاق ولم تجملها آهات الحزانى. بل احتفظ بها الكهنة في صدورهم وألسنتهم يبكون صورة صنعتها أخيلتهم لمجد يظنون ان داوود وسليمان . شيحين لقبيلتين بدويتين مسكينتين هامشيتين في أحسن حالاتهما . قد صنعها لهم فيما مضى من الزمن.

تاريخ انقضى وممالك اندثرت وحيوات فنيت. فكيف جاء مفكرو صهيون . الدكاترة فرانكنشتاين . بفكرة الانبعاث. ضخ الحياة في أعضاء ميتة موزعة ما بين خزاريا والولايات المتحدة. ما بين الهند وإثيوبيا. أعضاء ممزقة انسجمت مع أجسام جديدة. ورضعت من دماء جديدة. وتنفست أهواء جديدة. ولكن مفكري صهيون قرروا بعث الحياة في الأعضاء الميتة. جمعها، وتشكيلها. وإعطاءها بعض اللمسات البشرية في ماكياج من اشتراكية طوباوية كيبوتزات وموشافات أقنعت بعضاً من حالمينا . العرب . منذ نصف قرن أن هذا الكيان المجمع المملم سيحقق بداية الحلم الاشتراكي في الشرق الاوسط . الاسم البديل المقترح للوطن العربي. فكلمة العربي ستزعج هذا المخلوق الجديدة.

وبعثت الحياة في مخلوق الدكتور فرانكنشتاين. ضخ فيه الدم. استعيد له الحرف العبري، واستعيدت له اللغة العبرية. ونحتت له كلمات جديدة من لغات أخرى للحب والسباب والحياة اليومية. جمعت أعضاء مخلوق فرانكنشتاين وقال له سادة صهيون: قم فأنت إنسان.

وقام وكان أول ما فعله بعد قيامته هو بدؤه في أكل محيطه.

جرائم القتل الفظيعة وغير المبررة أثناء ـ حرب التحرير!. ولسنا ندري من حرر من؟ ومم وكأنه ـ هذا المخلوق المصطنع المغذى على الدم ـ كأن له دورة اشتهاء عنيف للدم دورة ما بين تسع إلى إحدى عشرة سنة لا بد له ليعيش من أن يحيا هذه الدورة، فيشرب من دماء الجوار ـ 1956-1967-1973-1982-1991 إلخ.

ولكن.. مخلوق فرنكنشتاين مخلوق مصطنع، يغذى بأنبوب غربي، ويسقى بأنبوب غربي، ويحمى بمظلة بلاستيكية غربية عرفناها في كل جولاتنا معه.. هذا المخلوق لن يستطيع أن يعيش إلى الأبد مربوطاً إلى الخارج.. فما الحل؟... الحل أن تربط أنابيبه إلى محيطه، فلعله يستطيع العيش.

يسقى من ماء عربي، ويغذى بدم محلي عربي، ويغطى ليحمي من قسوة شمس المنطقة بمظلة بلاستيكية عربية.. ترى.. هل نحن نعيش الآن مرحلة نقل أنابيب حياة مخلوق الدكتور فرانكنشتاين!.

عربة التفاح

لبرناردشو الكاتب المسرحي الإيرلندي المعروف مسرحية مغمورة بالنسبة لقارئي العربية. هذه المسرحية هي عربة التفاح، واسمها هذا جاءها من أن بائع التفاح يتعب كثيراً، بل ويدوخ في تصفيف تفاح عربته، ثم يحدث أن مشاغباً ما، أو حادثاً غير متوقع يقلب له هذه العربة فيفسد كل ترتيبها.

والمسرحية بالتالي تتحدث عن الصراع بين ملك انكلترا ورئيس وزراء المنتخب شعبياً والذي لم يتدرب على لعب القصور السياسية بعد، حتى إذا ما «ضب» الملك رئيس وزراء الجديد وافهمه لعبة السياسة القصورية واتفق معه على قواعدها تقدم سفير الولايات المتحدة بطلب كان أغرب ما تقدم به سفير أمريكي إلى ملك إنكليزي فقد قلب فيه الملك انكلترا عربة تفاحه كاملة حين طلب إلغاء استقلال الولايات المتحدة والعودة إلى الاتحاد مع انكلترا.

ويثور الملك ويقول: هل قدر علينا أن نعيش حتى نضيف نجماً آخر إلى علمكم الأمريكي إذا؟ لا يا سيدي. لا، إننا سنثور للحفاظ على شخصيتنا واستقلالنا الإنكليزي ثورة أعنف من ثورة الإيرلنديين علينا.

ويرفض تماماً ضم إنكلترا إلى الإمبراطورية الأميركية الصاعدة، ولما كان صديقي عبد الله مغرماً بهذا النوع من المقالب، فقد قرر أن يقلدها حين وجد في بعض أحداثها وأحداث المنطقة العربية وجد في بعض أحداثها وأحداث المنطقة العربية بعض التشابه، فقرر كتابة

عريضة يضمنها أحزانه ويرفعها إلى أحد الأمراء الغارقين في أحلامهم الفندقية السعيدة فكتب:

السيد الأمير عبد الصمد بن السيد الأمير عبد الكريم، بن السلطان العظيم عبد الحميد الثاني سلطان البرين وخاقان البحرين وخادم الحرمين الشريفين والعامل مؤقتاً ميتردوتيل في بار السمكتين الفضيتين في حي بيغال ـ باريس ـ مربط خيلنا.

سيدي ومولاي: هل تسمحون لي بأن أرفع إلى أعتابكم الشريفة أحزان وآلام جيل فعل آباؤه الكثير حتى تخلصوا من مظالم جدكم العظيم صاحب التاريخ الرائع في إطعام أسماك البوسفور جثثهم، وفي انتصارات شنق قلعة التي خسر فيها الجيش العثماني معظم أسطوله وزهرة شباب العرب، وفي عين الورد في بلغاريا المحروسة التي نالت استقلالها عنوة من يد جدكم العظيم بعد أن سقاها السلطان الكثير من دماء شباب العرب. سيدي ومولاي: ها هي سبعون عاماً تقريباً تمر منذ ذلك اليوم البائس الذي قرر فيه جدكم العظيم آخر السلاطين الإصغاء إلى مطالب آبائنا في نيل الاستقلال عن عاصمة الإمبراطورية العثمانية العظيمة.

نظر جدكم العظيم إلى مطالب آبائنا في حزن، وقال: اهذا هو ما يريدونه إذن؟ بسيطة. يريدون التخلي عن السلطنة والسلطان عن يلدزلار وطوب كابو، عن سليم وسليمان ومحمد الفاتح، يريدون تمزيق كل هذا التاريخ في نزوة مراهقة. حسن.. أعطوهم ما يريدون، وسنرى ما يتم..

سيدي ومولاي: هل رأيتم إلى ما جرى بعد ذلك. لقد جاء الأوروبي الغريب إلى بلادنا. فامسك مسطرة وقلماً، وكان هذا خطأنا الدائم. لم نكن نعرف استخدام المسطرة والقلم في الوقت المناسب، فسطر سطراً هنا وشكل قوساً هناك، وخط مثلثاً هنا، وشبه منحرف هناك، وقال بصوته الأخنف: كوني بلاداً أيها البلد الواحد، وصيري مزقاً أيها الكل الآبد..

وتمزقت البلاد يا مولاي، وكما يبدأ شرخ الزجاج بخطوط صغيرة ما تزال تتكاثر وتتكاثر حتى تملأ السطح الزجاجي كله،ثم ما تلبث ان تحوله إلى فسيفساء غير مسبقة التصميم كريه وتحولت البلاد إلى ما ترى.

والأسوأ من هذا كله يا مولاي أنا نحن، نحن أبناء هذه البلاد الذين اعتاد أباؤنا التنقل بين البصرة ومراكش، اصبح انتقالنا من دبي إلى الدوحة مشكلة دونها حل مشكلة الشرق الأوسط والكاريبي معاً.

سيدي ومولاي: آه لو تعرف كم كان جدكم العظيم عبد الحميد ماكرا حين نظر إلى أبائنا، وقال: تريدون تمزيق السلطنة؟ فما ذا لديكم من بديل؟

وانطلقت الأصوات في ثقة وقوة: الدولة العربية الواحدة من الماء إلى الماء.

وها هي الأيام تكر.. انظر يا حفيد مولاي إلى ما يجري.. ها نحن نستدعي الأوربي الغريب ليكون حكماً بين مزق الوطن العربي الواحد، ها نحن نسلم إلى الصهيوني. تصور يا مولاي، ذلك الإمعة من شرازم الشعوب، أتذكره..؟! ها هم العملاء يعملون على تسليمه جزأ من أجمل أجزاء الوطن، نسلمه مجاناً ودون أن يطلب إلينا ذلك، نسلمه لبنان.. نعم لبنان صنين والأرز وبيت الدين..

يا حفيد مولاي.. بعد كل هذه المقدمة التي ربما لم تكونوا في حاجة إليها إذ لا شك أن إحساسكم السلطاني والتاريخي بالمسؤولية سيدفعكم إلى تفهم مطالبنا ورغائبنا وطموحاتنا وآمالنا التي فشلنا حتى الآن في تحقيق أي شكل منها. ليس هذا فحسب، بل ها نحن نخاف على ما تبقى من اللوح الزجاجي مزيداً من التشظي..

عند بوابة المدينة قبضوا عليه، وبحرص فتشوه. وحين انسكب من حقيبته المقص والأمشاط والمواسي وزجاجات العطور والمراهم والفراشي سعدوا، وقالوا له: أنت حلاق؟.. وأحس السؤال اتهاماً فحاول التهرب، قال إنه كان صديقاً لرجل حمله الحقيبة وهرب، وأنه ينتظره، ولكنهم الحوا: أنت حلاق؟.. نظر إلى وجوههم السائلة يحاول فهم ما يريدون، وحين نظر إلى وجوههم رأى لحاهم غير الحليقة وشعورهم غير المقصوصة، وشواربهم المتهدلة. فقال يتمتم: لست معلماً ولكن امارسها بين الحين والحين..

رأى استبشارهم، فقال: أنا لا أتقاضى الكثير. لست طماعاً. يكفيني ما يملأ بطني ويستر عريي. ثم وبحماسة: هل تريدون أن أحلق لكم، وحين لم يجيبوا فقد كانوا منشغلين بتقليب عدته اللامعة والنظر إلى وجوههم في المرآة الصغيرة، ومحاولة برم شواربهم المتهدلة دون قص منذ شهور.. زايله الخوف، فقال: حسن، إن اردتم التزين وقص شعوركم وضبط شواربكم فعليكم أن تنتظموا في الدور..

وحين لم ير ممانعة منهم تمالك نفسه، وأمسك بمقادير الموقف: يلله.. يلله يا جماعة بالدور.. وتحركوا ليصطفوا بالدور، ولكن رئيسهم صرخ فجأة: هل جننتم، تتزينون وتحلقون، ومولانا الملك ينتظره منذ شهرين. هيا.. ارتبكوا أمام صراخ رئيسهم. فجمعوا العدة في حقيبته بسرعة. وأمسك اثنان بذراعيه بقوة. ودخلوا به المدينة.

في طرقات المدينة لاحظ العيون ترمقه في إشفاق. بل وسمع

امرأة نصفاً تهتف: يا خسارة شبابه ما يزال في ريعان الصبا. ولم يفهم لماذا تأسف على شبابه، إلا حين رأى نفسه يدفع أمام الملك، أمروه بالسجود، فسجد، وحين رفع رأسه، روعه رأس الملك الكبير بشعره الطويل ولحيته المتهدلة وشواربه الكثة. ولكن اكثر ما أثار دهشته كان التاج الكبير جداً الذي كان يعلو رأس الملك.

أشار الملك بيده، فابتعدوا، أمره بإغلاق الأبواب والنوافذ، ثم مر عليها الملك يتأكد من حسن إغلاقها، وعدم وجود متلصص ورائها، قال: ربما اندهشت لطول شعري وشعر رعاياي، هز الحلاق رأسه مرتبكاً بالإيجاب. قال الملك: لأن الحلاقين ثرثارون لا يكتمون السر. هل تكتم السر؟ قال: بتر بلا قرار يا مولاي. قال: سبعون حلاقاً قطعت رؤوسهم في المدينة لفضح السر. هل تريد أن تكون الواحد والسبعين، قال: ابداً يا مولاي.. ساقطع لسانى اني وأصم أذني.. وقاطعه الملك: حسن، الأمر لك، بح بالسر تمت، احفظ به تعش وتصبح حلاق السلطان فتثري وتملك الجواري والقصور ونعيم الحياة. قال: بل أريد أن اثرى ولا بأس بجارية واحدة وبيت صغير. قال: ارفع هذا التاج. اقترب الحلاق، رفع التاج، وفجأة أصفر حتى كاد التاج يقع من يده. فلقد رأى تحت التاج ذيلك الثعبين العجيبين. ثعبين صغيرين كهرمانيين حادي الرأس. ملتويين قليلاً، وكاد يصرخ، ولكن الملك قال: هذا هو السر. من فضحه مات. ومن كتمه ثرى وعاش. احلق وبين، وستتابعك عيوني.

حلق الحلاق رأس الملك. ولكن القرنين الصغيرين كانا يغريانه بمداعبتهما. وكان يمنع نفسه بصعوبة من مداعبتهما زين له لحيته وشاربيه، أعطاه الملك كيس دراهم وطلب منه ان يستريح.

لم يستطع الحلاق ان ينام. كان مجرد معرفته أن للملك قرنين إغراء لا يستطيع السيطرة عليه. خرج إلى الحارة، إلى الشارع.كان يريد أن يرى رجلاً، امرأة، طفلاً، مخلوقاً ما يبوح له بالسر: للملك قرنان ولكن الخوف عقله.

جاء الصباح ووجد نفسه خارج المدينة. ولكن السر كان يعذبه، واخيراً وجد بئراً. قال: سأريح نفسي وأبوح للبئر بسر الملك والبئر لن يبوح بالسر، فانحنى على البئر ودمدم: للملك قرنان، للملك قرنان، للملك قرنان.

وأحس برودة الراحة تغزوه، فلقد أراح ضميره ولم يبح بالسر، ولم يكتمه في قلبه فيقتله.

لكن الربيع جاء، والقصب المحيط بالبئر نما، والرعاة جاؤوا فقصوا القصب وشذبوه، هيأوه وصفروا، فكان الصفير سر الحلاق العتيق: للملك قرنان، للملك قرنان، للملك قرنان.

يطلبون منا الصمت عن تفريطهم بفلسطين، ولكن ابن صمتنا. فهل ستصمت نايات طبريا وقصبات الحولة، وصفارات البحر الميت، ربما بالموت والرعب أصمتونا، ولكن الأرض بأطفالها القادمين ونایاتها الصامتة حتى الآن. ستنطلق في يوم قادم وتهتف بصوتها الجريح: للملك قرنان، للملك قرنان، وعندئذ أين سيخفي الاسكندر قرنيه؟..

عبد الله بن المعتز. ووصيف بن عبد الله.. وعبد الله الاخير، اعتاد المؤرخون العرب أن يكنوا بها عن اسماء آباء العبيد من الاسم الأخرى فأبوهم المجهول هو عبد لله، عبد الله..

شاعر وجنرال، أديب وعسكري، فحل وخصي.. عربي وتركي.. كان هذا هو التناقض أو شهوة الضد في علاقة هذين النقيضين اللذين كان يجب أن يكونا نقيضين وليس صديقين، ولكنهما ـ للعجب ـ كانا صديقين.

ابن المعتز سليل الخلائف من بني العباس.. ابن الخليفة الشهيد المعتز والذي شهده عبد الله وكان طفلاً يحمل إلى القصر مقتولاً على يد العساكر من أجلاف الترك، رأى دمه يسيل فكره الدم وطلق الدم وعاف الدم وأقسم بينه وبين نفسه أن يجعل وبينه وبين السياسة أي الدم سداً لا يخترق ولا يعبر ولا يقرب منه، فعاش عمره كله في بغداد حاضرة العالم وسيدة المدائن وجميلة الجمال، وعاش للجمال فقط، فكان العاشق الشهير، وحديث الحفلات والسهرات وغمزات النساء، عاش الشاعر فكان إمام شعراء عصره، وشعره تتغنى به سيدات بغداد ومغنياتها وجواريها. وعاش الأنيق فكان المتأنقون من شبان بغداد يترقبونه وينتظرون خروجه ليروا لباسه فيقلدونه ليصبح في عرف وتسميات أيامنا ـ سيد الموضة ـ ولكنه أيضاً كان الباحث فكان أول من كتب في علم البديع فأبدع لنا كتابه الشهير كتاب البديع فكان أول من سن دراسة جماليات الشكل في الشعر العربي بعيداً عن التقليد والسليقة المتنقلة من شاعر لشاعر.

أما وصيف بن عبد الله، الجنرال المفمس بالدم والمولود بالدم والذي بدأ حياته برؤيته الدم في خصيتين تقطعان منه ليصبح خادماً فجندياً، فحاقدا فجنرالاً. وصيف هذا رأي في ابن المعتز كل ما كان ينقصه، ويتمناه ويتشهاه ليكمل نقصه، البلاغة والجندي، الشعر والدموي، الفصاحة وتركي، الفحولة وخصي، العراقة وضياع الأصل، فالتصق به وكان الصديق الملازم وأنا أتخيل تحرق وصيف الخصي وهو يرى الحسان يحطن بابن المعتز، وأرى المرارة لدى الجندي وهو يرى المعجبين بالشاعر والبليغ والمؤرخ، وأرى الحسد وهو يرى الأنيق المتزين وهو المغموس في ثياب الجند.

ومات الخليفة المكتفي وترك ولداً في الثالثة عشرة من عمره، وهو من سيكون الخليفة المقتدر فاجتمع كبراء بغداد وراوا أن الأمر سيكون مضحكاً يحكمهم خليفة في الثالثة عشرة محاط بأجلاف الجند من الترك وما يزالون يستطيبون صنع شيء، فمضوا إلى ابن المعتز كبير أبناء بني العباس ومستحقي الخلافة. مضى إليه ابن الجراح وهو كاتب ووزير، ومضى إليه مغامر عسكري عربي هو عم من سيكون سيف الدولة وهو الحسين بن حمدان ومضى إليه أكبر رأسمالي ومترفي عصره، هو ابن الجصاص، ومضى إليه.. أيضاً الصديق.. القديم وصيف بن عبد الله مضوا إليه وحملوا إليه الخلافة: انت من يستحقها.. ولكنه رفض، فلقد تذكر اباه وتذكر الدم، وتذكر الأقسام التي اقسمها.. ولكنهم ألحوا.. حلفوه بدم الأجداد من بني العباس، ذكروه بواجبه كآخر ذكر مستحق الخلافة فيهم، ووضعوا أمامه مستقبل الدولة ككل... تردد... رفض... ألحوا: استوعدهم ألا يراق في الأمر نقطة دم، فقبلوا، وهم يقولون في استهانة: نحن الدولة. فممن نخاف..

ولكن حين حدثوا الطبري المؤرخ المعروف في الأمر سأل عمن يشارك في المؤامرة فحدثوه، فهز رأسه في أسف وقال: ما أظن الأمر ينجح، فلما سئل؟ ولم لا ينجح. قال: كل من ذكرتم هم من الكبراء،

والعظماء والزمان عاطل وفاسد وفي الحضيض ولا يحتاج إليهم. بل هذا الزمان يحتاج إلى من يناسبه.

هجم المتآمرون على قصر الخلافة حيث المقتدر الطفل ولم يكن فيه إلا بعض الحرس والجنرالات الترك والمقتدر، وهجم الحسين بن حمدان بحماقته العسكرية فقتل بعض الجند من الحراس، فثارت فيهم روح الدفاع عن النفس، فتجمعوا وتصارخوا، وفجأة انقلب الأمر، فانتصر المهزومون الضعاف وهرب المتآمرون، وفشلت المؤامرة بعد خلافة كانت لعبد الله بن المعتز ليوم وليلة واحدة.

أما المتآمرون وهاهنا المأساة فابن الجصاص اشترى حياته حين قبض عليه بعشرة آلاف دينار لكل يوم من أيام عمره الباقية، وأما الحسين بن حمدان فقد هرب إلى الموصل وظل مختفياً فيها حتى برد الأمر وعفي عنه فعاد الجنرال والقائد، وأما وصيف فلقد انقلب إلى أهله وعسكره في الوقت المناسب فكان مع المنتصرين.

وأما من دفع الثمن الحقيقي فكان عبد الله ابن المعتز، إذ قبضوا عليه وحكموا عليه بالموت، و.. أسلموه إلى صديقه القديم وصيف لكي يختار له الميتة المناسبة و..هل يمكنكم أن تتخيلوا ميتة مناسبة يختارها جنرال خصي لصديق عمره الشاعر الفحل! لا... أن يعصر له خصيتيه.. حتى الموت... وهكذا انتهت صداقة الشاعر بالجنرال والفحل... بالخصي.

حين تسمع يومياً هذه الشكوى، وهذا الأنين الذي أخذ يتحول إلى نوع من الإساءة العنصرية والعداء العنصري للعرب ومن العرب، فأنت تسمع وتقرأ يومياً من ينعى على شبان العرب «الشعب» «الأمة» «الجماهير»، ينعى عليهم انحطاطهم وتفرقهم وتخليهم عن الأحلام الكبرى، ينعى عليهم هذه النزعة الهائلة لطلب الهجرة إلى الخارج، وهذا الارتداد إلى الهجرة إلى الداخل والتقوقع حول الذات والابتعاد عن الهم العام والعمل العام.

حين تسمع هذا كله تصاب بالصدمة، فهل الجيل الجديد من العرب هو منحط ومتخاذل ومتناء عن الهموم الكبرى، لم أن هناك أشياء أخرى تمت وقيم بها في الوطن العربي ككل حتى وصل جيلنا الشاب إلى ما وصل؟

منذ فترة كنت أقلب في أوراق قديمة لي، فوقعت على نص لي كنت أتحدث فيه عن هذه الفكرة، ورأيت أن من المستحسن دفعه للنشر الآن.

هذا النص يتحدث عن مزرعة لتربية الخيل الأصيلة، وعن صبي كان يحب الطبيعة والتجوال بين حنايا الريف إلى أن يصطدم بهذه المزرعة..

يقول: كانت المكافأة مجزية. فلقد تعرفت على أبو كاسم وأصطبله، كان الرجل نحيل القامة طويلها ذا شاربين أشهبين، وعينين بنيتين تشيان بمكر قديم ودراية بأحداث الزمان. كان للرجل طقوس لا يتحول عنها أبداً، فهو يخرج بخيوله في الصباح من الإسطبل، ينزلها في

النهر ويأخذ في غسلها، فتنتشر في الجو روائح حيوانية عارمة، روائح مسيطرة تذكر بأيام مجيدة غابرة، كانت خيولاً بيضاً وشهباً ورمادية، العرف المتماوج على الرقبة في دلال، والذيل المنتصب في كبرياء والفخذان القويتان المنتفختان بالعضلات. التحجيل على الأرجل النحيلة، فتنة الحسن الحيواني لمن أراد أن يفتتن، و.. افتتنت.

صار طقساً يومياً ثابتاً أتحينه وأعرف مواقيته، أراقب حمام الخيول اليومي يقوم بها أبو كاسم بنفسه ولا يرضى لأحد مشاركته فيها، يداعب فخذ الحيوان، يدلك ظهره، ينفض ذيله من الماء، ثم يدفعه ليخطر خارجاً متبختراً من الماء حيث ينفض جلده بشدة، فيسارع صبي بخرقة يجففه ويداعبه ويدلله، فيصدر حمحمة تكاد تكون تحبباً وعرفاناً بالجميل.

يسرجه الصبي، يركبه وينطلق به لنصف ساعة، ساعة، ثم يعود الحيوان واسع المنخرين بارق العينين مبتهج الوجه مرتعش العضلات، ورائحة الذكر الحيوانية تفوح، وتملأ المكان.

تسرج الخيول، الثاني، فالثالث، تركض وتعود لتناول فطورها والمحافظة على ضمورها.

لاحظني أبو كاسم في البدء، وتجاهلني، ولكنه بعد كثرة ترددي قربني منه. وصار حديث طويل بيننا، حديث كله عن الخيول، جمالها، قوتها، شجاعتها، كبريائها، وبإحساس ديني مقدس حدثني عن تاريخها وحملها فيما مضى لخالد وعمر وطارق وصلاح الدين، قال: الخيل معقود في نواصيها الخير، نبيّنا أوصانا بها.

حدثني عن بستان أخضر كبير كان لأبيه خسره في احد السباقات، حدثني عن الحنين إلى ذلك البستان، عن الرغبة في استعادته، ولا فرصة لذلك إلا بالفوز في السباق.

مضت الأيام وأقللت من زياراتي لاصطبله، وكان لا بد لي أن أفعل، فلقد صار زمان المدرسة، غبت زماناً، ثم عرفت أن أبو كاسم قد مات.

حزنت وذهبت إلى المكان القديم، تفحصته، ولكن لا أثر لكل ذلك الطقس القديم الجميل. وعرفت أن الأيام الماضية لن تعود، كررت الزيارة، وسألت حتى عرفت أن كاسم ابنه الذي درس في الخارج، قد صار شديد الواقعية، لا يؤمن بكل تلك الأفكار الساذجة التي ألح عليها أبوه مثل، الخيل معقود بنواصيها الخير، فما الخيل وما النواصي. الخيل قوة عمل تصلح للجر، للحراثة، ولحمل الأثقال.

حدثوه عن السباق الذي كان أبوه ينتظره، فضحك ساخراً، لا سباق ولا يحزنون، أتصدقون أنهم يقبلون منازلتنا في سباق جديد؟. لا. الأمر أهون من ذلك. كل ما يحتاج الأمر شيء من ذكاء وحنكة ودراية بالتفاوض، وسأستعيد البستان بأسهل من السهولة، جاؤوه بالكتب الصفر تتحدث عن السباق والبستان، فضحك ومزق الكتب الصفر.

أعدت التردد على المكان أريد رؤية الخيل، ورأيتها فبكيت لمنظرها. فأين بريق الجلد الممتلئ قوة وعضلات وذكورة. أين التماعة العينين؟ أين الذيل المنتصب فخراً وكبرياء.

لقد تحول الحيوان إلى قفص من جلد متسخ يكسو هيكلاً عظمياً نتأ فوق الظهر والأرداف، وامتلأ بالقروح المكشوفة بالقراد والذباب. أما العينان فقد تحولتا إلى بركتين سوداوين كابيتين وقطرات من دمع متدلٍ على حوافها.

انتفخ الحزن في الصدر، ورجعت إلى البيت أتساءل، كيف سيصنع يوم السباق، ولم يطل أمد السؤال هذه المرة، فلقد سمعنا أن يوم السباق الكبير قد حان، وأن كل الإسطبلات المجاورة تستعد، وأن الخيول تتمرن وتضمر لهذا اليوم.

طرت إلى إسطبل أبو كاسم لأرى الوريث وكيف يصنع، فرأيته متمالك الأعصاب وقد استعاد حيواناته، واستنفر العمال والجيران جميعاً. فأنزلوها إلى النهر وغسلوها، ولكن الجلد المتغضن كان يتثنى

تحت أيديهم، وعبثاً كانوا يحاولون جعلها تنصب ذيولها، فلقد تهدلت تحت وقع المقارع والعصي، تحت التجويع والضرب، تحت ظلام غطاء الرأس الأسود. عبثاً حاولوا جعلها تتيه بأعرافها، فلقد تلبدت وضعفت.

جاؤوها بأحسن العلف، فأكلت. أكلت بشراهة شعيراً وفولاً لم تعرفه منذ زمن طويل، أكلت بنهم، فلقد صار جوعها تاريخياً، ولكنهم حين أخذوها للتدريب، أخذت تخب ولا تستطيع العدو، فلقد حرمت منه أمداً طويلاً.

بعد طول الحاج على الوارث رضي أن يخرج بعض الخيول التي كانت ممنوعة من الخروج إلى النور، فلقد رفضت بشدة أن تجر العربات، وتحمل الأثقال، غسلوها فعرنت، أطعموها فأكلت برؤوس شفاهها، اركضوها فركضت، ولكن بضعف، فطول الحبس أضعفها.

جاء يوم السباق، وضمت الخيول، خيول كثيرة مختلفة الألوان من مختلف الإسطبلات، وأعطيت شارة الانطلاق، فانطلقت الخيول جميعاً، وتهللت وجوهنا. فلقد استطاعت خيولنا مجاراة بقية الخيول، ولكنها لحسرتنا لم تلبث ان تعثرت، ثم تهاوت، ثم استرخت على جانب المضمار.

وقف الوريث يضرب ما حوله بسوطه، خيول حقيرة، خيول دنيئة، لا.. فهذه ليست خيولاً، هذه بغال لا تصلح للسباق. كنت أعرف ذلك، ولكنكم أنتم من أغريتموني بهذا السباق.

خسرنا الآن كل شيء، خسرنا الرهان، خسرنا البستان، خسرنا كل شيء. كان يجب ألا نشترك في السباق منذ البداية، كان يجب أن أتصرف على طريقتي. خدعتموني بخيولكم، خدعتموني ببغالكم.

تركت الميدان، ومضيت وأنا اتمتم، ليس الحق على الخيول، ليس الحق على الخيول.

سؤال مضحك. لِمَ لا يشعر الإنسان بالخجل حين يكذب على طفل، أو على حيوان أعجم، ثم يكتشف أن الطفل أو الحيوان الأعجم قد اكتشف كذبه. إن كل ما يفعله هذا الإنسان هو أن يضحك في استهتار، أو يهز كتفيه غير مبال، ثم يستمر في حياته العادية محترماً صادقاً نزيهاً لم تخدش أمانته.

سؤال مضحك آخر: لم لا يشعر الإنسان بالحرج حين يتعرى أمام طفل، أو حيوان أعجم. إن أشد النساء أو الرجال تحرجاً تراهم أو تراهن وهو يكشف أدق عوراتهم أو عوراتهن أمام الطفل والحيوان الأعجم ولا يشعرون أو يشعرن بأنهم وانهن يرتكبن فعلاً فاضحاً.

تفكر ملياً بجواب ما. ثم تكتشف أن شرط العيب والحرج والخجل الأول هو التكافؤ والتساوي، وقدرة الآخر على أن يقف في وجهك مرآة تفضح كذبك وعريك، أما إن كان الآخر غير قادر على أن يقول لك إنك كذاب فأنت لست كاذباً. وإذا كان الآخر غير قادر على أن يقول لك إنك عائب وعار، فأنت لست عائباً أو عارياً.

وهكذا فقد شهد التاريخ الطويل، الطويل للبشرية عشرات الحكام الكذبة والعارين حتى من ورقة التوت الأمامية أو الخلفية ولكن عجز الشعوب عن الإعلان أو الهمس بأن الحاكم كاذب أو عار جعلا هذا الحاكم يستمر في نظر نفسه ونظر جيله من الشعب. لأنه لا يستطيع إرعاب الأجيال التالية. صادقاً أميناً نظيفاً بريئاً إلى آخر أسماء الحاكم الحسنى.

ولكن بين يدينا الآن مثال محيري لحاكم يحكم مباشرة اقوى وأغنى دولة في العالم، ويحكم غير مباشر ربما نصف سكان الأرض، ويحكم عبر شبكة المصالح والتهديدات ربما معظم دول وسكان الأرض.

هذا الرجل الوسيم المفتاح الذي يسميه شعبه باسم الدلع ـ بيل، وربما لو كان هذا الرئيس العظيم (في الفراش) ـ اللهم لا حسد ـ أكثر قرباً من بعض العرب لأسموه ويليام بن عبد الله ولكن الحظ السيئ جعل بينه وبينهم بحوراً ومحيطات!!.

هذا الرجل المسمى بيل كلينتون والذي اشتهر بكذبه، وصفع بكذبه، وأخيراً احالته المجالس التشريعية ببلده إلى درجات من الاتهام والمحاكمات حتى افترض أنه سيطالب بالاستقالة، أو سيطرد من الرئاسة اليوم الخميس 12/17 والسبب الأكبر والأول لملاحقاته القضائية هو الكذب والتراجع معتذراً، ثم الكذب وتكرار الكذب وقديماً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بما معناه: إن أحدكم ليكذب، ثم يكذب حتى يدعى عند الله كذاباً. وانا أعتقد أن هذا الرجل قد أسمي عند الله كذاباً، وقد أسمى كما نعرف جميعاً عند شعبه ومجلس تشريع بلاده كذاباً، ولكن الحكام العرب الذين رفضوا تسميته باسم الدلع وأصروا على ويليام ما يزالون مصرين على أنه ليس كذاباً بل إنه ويليام الصديق.

ويليام الصديق هذا الذي شعر بالخجل حين رأى نفسه أمام أمثاله واكفائه من الأمريكيين كذاباً، وحين رأى مؤخرته تتكشف عارية أمام مجلس الشيوخ في التقرير الذي تحدث عن أدق وأكثر التفاصيل إخجالاً في حياة الرئيس السريرية النشطة جداً.

هذا الرجل قرر أن يأخذ إجازة من الخجل، وأن يبتعد عن الناس، (والناس ها هنا هم الأنداد والأكفاء والمرايا التي تصارحه بأنه كاذب وانه عاري المؤخرة) وأن يأخذ إجازة في غابة من غاباته الخاصة حيث لا خجل أمام الأطفال والعجماوات وهكذا جاء إلى فلسطين المتهودة ولكن الصهاينة أنداد فهم غريبون أخجلوه بمراياهم فأخذوا يهتفون ويعلنون له

أنه كاذب وعاري المؤخرة فمضى إلى معمية من معمياته الطبيعية إلى غزة حيث لا أنداد ولا مرايا، وإذا بالجميع يعلنون له أن اسمه ويليام الصديق ابن عبد الله فهم لا يملكون القدرة على الصراخ في وجهه بأنه كاذب، وظن أنه تجاوز أزمته مع الكونغرس، ولكن الصهاينة ـ المرايا ـ الأكفاء كشفوا له كذبه وعريه فاضطر أن يعود إلى أمريكا لمحاولة ستر مؤخرته التي انفضحت في المجالس التشريعية.

وفجأة.. ترى هل كان الأمر فجأة، ينسحب رئيس لجان التفتيش عن الأسلحة في بغداد ويقرر ويليام الصديق بن عبد الله أن يستر عورته بضرب بغداد وها هو يضربها ونحن نتفرج، نتفرج ولا نجرؤ على أن نصرخ في وجه الأميركي القبيح إنه كاذب، عار، عائب، فكيف نصرخ بهذا ونحن أطفال وحيوانات عجماء لا تعرف، ولا تملك حق التعبير عن وجعها يذبح أخيها الثور الأسود، بالأمس في الخرطوم واليوم في بغداد، وغداً من يدري.

اللهم اشهد فإني أصرخ بأن بيل كلينتون كاذب وأنه لا يضرب بغداد سعياً وراء أسلحة التدمير الشامل التي تعج بها مخازن الصهاينة وإنما يضربها لستر مؤخرته. اللهم أشهد أن بيل عاري المؤخرة ولن يستره هذا القصف، بل سيزداد قبحاً على قبح.

في لقاء جرى في مبنى اتحاد الكتاب العرب مع الكاتب الفرنسي العظيم بيير روسي مؤلف ربما أهم كتاب ينصف العرب القدامى، أو العروبيين كما يسميهم المفكر الليبي علي فهمي خشيم، والمقصود بهم الأمم التي سماها الغرب لنا وتابعناه متجاهلين أصولها المشتركة فيما بينها، وفيما بيننا أيضاً وهم المصريون القدامى والآراميون على مختلف تلويناتهم، والبابليون على مختلف تسمياتهم الآشوريون أو - وارجوكم ألا تبتسم، بل نأخذ الأمر بجدية، (العاشوريون) ففي اللغات الأوروبية لا يوجد الحرف الحلقي العين، والكلدان أو الخلدان أو بني خالد، والآكاديون أو العقاديون أو العقيدات بالتسمية المعاصرة.. إلخ.

المهم في كتابه مدينة ايزيس او التاريخ الحقيقي للعرب نشر بيير روسي العطر القديم وتركه يفوح كاشفاً لنا عن الصلات الأساسية التي لا تنفصم بيننا وبين أجدادنا الذين سماهم الغرب الساميين وتابعناه في ذلك مغتربين عن جذورنا قابلين باختصار تاريخنا إلى بضعة عشر القرن الفائتة فقط، في كتاب مدينة ايزيس لا يكشف بيير روسي الصلة ما بين الشعوب العربية المعاصرة وأجدادهم التاريخيين فقط، بل ويكشف عن الدين الهائل للحضارة الإنسانية كلها لأولئك الأجداد وخاصة أوربة بأجدادها التي تفتخر بهم ويعني الحضارة اليونانية وأمها الكريتية أو المينواز - المينوية - ويبدأ بالحديث طبعاً عن اسم أوربة الرمزي ابنة أغينور ملك صيدا التي اعطت اسمها للقارة المتبربرة التي ستطبع أوربة. ليس هذا فحسب، بل يرجع إلى جذر الحضارة اليونانية اتيكا فيعود بها إلى اصلها العربي عتيقة أو عاتكة.. إلخ.

ما بين كتابي أثينا السوداء والتي يرجع مؤلفها الحضارة الإغريقية كلها إلى مصر وكتاب مدينة ايزيس الذي يرجع جذر الحضارة البشرية كلها إلى أصوله الشرقية العربية المصرية والشامية والبابلية. طبعاً إلى جانب هذين الكتابين هنالك مئات الكتب التي تنفي أي مجد وأي عطاء عن هذه الأمة وتعيد كل شيء إلى نكتة . المعجزة الإغريقية ..

وطال الحديث عن هذا الكتاب. ثم انتقل إلى الحديث عن شخص المؤلف بيير روسي هذا الديغولي الذي شهد استقلال الجزائر عن فرنسا رغم (الأقدام السود) وفاشيتهم. وتحدثنا عن اليمين الفرنسي وهذا المؤسي في الموضوع وعن كونه دائماً كان أميل إلى الحق والعدل والوقوف مع القضايا العربية من اليسار الفرنسي المشبوه دائماً وخاصة أن أممية الاشتراكية الدولية كانت دائماً على علاقة وثيقة مع ما يسمى اليسار الإسرائيلي.

وتقدمت أخيراً بسؤال للسيد بيير روسي متحدثاً عن الشيزوفرينيا التي يعيشها المثقف العربي والذي حين يحك ذاكرته قليلاً فسيجد أمامه الأسماء الكثيرة التي يحبها بدءاً من روسو ومونتسكيو وفولتير ومروراً برامبو وفيرلين وميلارميه ولا مارتين وصولاً إلى سارتر وكامو وبروست. وهل يستطيع مثقف يسمي نفسه مثقفاً أن ينفي من ذاكرته بلزاك وموباسان. أو يتجاهل لافوازييه وكانت وديكارت... ولكنه في الآن نفسه لا يستطيع ان ينفي من ذاكرته القسوات الفرنسية التي بدأها ذلك الوحش رينودو شاتيون أثناء الحروب الصليبية والذي سماه العرب أرناط. ذلك الوحش الذي هاجم الحجاز يريد سرقة قبر النبي (ص) والذي هاجم قبرص البيزنطية فدمرها تماماً مروراً بالماريشال ليوتي الذي احتل الجزائر ودمر وقتل. وصولاً إلى سورية وغورو وغاميلان وويغان واسوأهم كان الاشتراكي ساراي الذي أحرق القسم الأجمل من دمشق.

حدثته عن هذه الشيزوفرينيا التي نعيشها ما بين إعزازنا للعقل

الفرنسي ورعبنا وكراهيتنا للبسطار الفرنسي وخاصة الاشتراكي ١٩٨٠.. العصر الحديث والذي عرفنا منه ساراي وبلوم، ثم اصطدمنا بمولية وبينو أثناء العدوان الثلاثي على مصر، ثم كانت الخاتمة بميتران الذي كان اليد الباطشة ضد قضايانا بمعظمها.

وكانت المفاجأة في جواب روسي إذ نقل الحديث فجأة إلى الصراع التاريخي بين الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية والتي هي استمرار للصراع ما بين روما الشرقية (بيزنطة) وروما الغربية وريثة روما اللاتينية وانتقال هذا الصراع إلى روسيا القيصرية وأوربة، ثم إلى روسيا الشيوعية واوربة الأطلسية، وتنبأ روسي بأن الجغرافيا ستحكم ولا شك. وأنه رغم سقوط الشيوعية ورغم سقوط العثمانية إلا ان الجغرافيا ستجبر كلاً من ورثة روسيا بمختلف تسمياتها، والعثمانية بمختلف تسمياتها المعاصرة على التحالف للوقوف أمام اوربة الأطلسية بامتدادها الصهيوني في فلسطين.

ولما سألته عن التيار الذي يمثله هو والمفكر الكبير روجيه غارودي وهل هو تيار يعد بأنه سيشكل يوماً تياراً ضاغطاً يعيد فرنسا إلى متوسطيتها وبعدها عن أطلسيتها ليجعل من فرنسا صديقاً لمصالحها ومصالحنا في مواجهة العنت الأمريكي ابتسم في حيرة وقال: «دعنا نأمل».

ورجعت إلى الشيزوفرينيا التي يعيشها المثقف العربي الناتص بين العقل المتنور والبسطار الداعس على الأحلام.

في واحدة من السهرات غير المهيأ لها مسبقاً التقيتها. وكانت عالمة انتروبولوجيا إنكليزية، قالت إنها تعد دراسة عن الأعراس العجيبة والمكلفة والأسطورية التي تتم يومياً في الفنادق الكبرى، قالت إن هذه الأعراس ليست إلا إعلاناً مدفوع الثمن تقوم به العائلتان المتصاهرتان ليؤكدوا انتماءهما إلى الطبقة الجديدة القادرة، أرتني صوراً، وحدثتني عن مشاهد، ثم قالت في انتصار: لقد اخترت للكتاب عنواناً غير مسبوق. فلما سألتها عن العنوان. قالت: جوارب القراصنة. ولما سألتها ضاحكاً: كيف وجدت اسماً كهذا. حدثتني أنها قرأته مكتوباً فوق واحد من البوتيكات الجديدة المنتشرة في الضواحي التي صارت أحياء في المدينة.

طال الحديث وتشعب، وذكرت لها أن كلمة قرصان نفسها ليست كلمة عربية فالعرب لم يألفوا البحر في بداياتهم ولم يصنعوا لصوصه، والكلمة تحريف لكلمة كورساري الإيطالية أو كورسير الفرنسية، وتوقفت مذهولة فما كانت تريد الحديث عنه إذا به يتصل بجذوره الحقيقية فالقراصنة التي أعجبت بجواربهم ورأت أن تجعل عنوان الكتاب عنهم ما هو إلا الصورة المشوهة للقراصنة الحقيقيين والذين ملأوا البحر المتوسط ضجيجاً وعجيجاً وآلاماً ومرارات لقرون.

وانقضت الأيام وعثرت اخيراً بكتاب يتحدث عن تاريخ القرصنة في العالم وكان كاتبه البولندي ياتسيك كاخوفسكي، لاحقت تاريخ طباعة الكتاب بلغته الأولى فإذا به في أواخر ستينات القرن العشرين، وهذا ما يعني أنه قد كتب وطبع ونشر إبان وجود دول المنظومة الاشتراكية

فاطمأننت قليلاً وسرت مع الكتاب الذي حاول أن يكون موضوعيا فبدا الحديث عن القرصنة منذ بدايات التاريخ المعروف فاعتبر أخيل و أوليس بطلي ملحمة هوميروس الاليذة اعتبرهما قرصانين ولم لا وهما يعترفان بمهاجمة المدن الساحلية ونهبها وحرقها تماماً كما سيفعل القراصنة فيما بعد.

بعد ذلك يبدأ الانحراف بخط الرواية، فروما الدولة المتعالية الشامخة لم تكن دولة بحرية جبارة استطاعت القضاء على استقلال، بل واستعباد معظم البلدان والأقطار المتحضرة المعروفة فاستغل أبناء الحضارات المهزومة ثقافاتهم البحرية وبدأوا نضالهم ضد روما في البحر. وبدأوا في حصارها وتجويعها عبر حرمانها من إمداداتها الغذائية وبدأت تسمية أولئك المقاومين من كيليكيين وشاميين بالقراصنة وهكذا بدأت التسمية ذات الوجهين. فالمقاوم قرصان والمتعاون مواطن صالح.

وتمضي الأيام وتسقط روما، ولكن كيليكيا ستظل تحمل اسم المكان الذي صدَّر (القراصنة) للوقوف ضد روما.

ثم تقوم الحضارة العربية الإسلامية بحمل مشعل الحضارة إلى إسبانيا المتبربرة وهناك رأي تاريخي كبير وذائع يقول إن العرب لم يفتحوا إسبانيا، بل دعوا إليها من قبل القوط الاريوسيي المذهب ليقاوموا بهم اللاتين الحاكمين الكاثوليك والذين اضطهدوهم في لغتهم ودينهم.. المهم ما علينا من هذا الآن. أقام العرب المسلمون في أسبانيا ثمانية قرون من الحضارة والحرب انتهت بطردهم من الأندلس، وملاحقة من بقي منهم بمحاكم التفتيش سيئة السمعة، فما المتوقع من هؤلاء المطرودين المهزومين المشردين المفقرين أن يفعلوا. وهم التجار البحريون والبحارة المتمرسون.. لقد بدأ كثير منهم النضال ضد قاهريهم من الأسبان بإعادة غزو السواحل والجزر ومهاجمة الأساطيل والسفن التجارية الإسبانية والغربية فهاجمتهم الأساطيل المتكبرة واحتلت بعض سواحل شمال افريقيا من ما سيسمى فيما بعد مدينة الجزائر أي

جزيرة بنيون إلى تونس ووهران والمستفنم التي سينيع اسمها بصيغته الفرنسية مستغانم وبدأ الكفاح المسلح ولكن الغرب المعتاد على تسمية خصومه بالأسماء التي يختارها لهم سرعان ما أسماهم بالقراصنة.

والغريب أن مؤلف الكتاب البولوندي لم يستطع أن ينتزع نفسه من جلده الغربي فحين تحدث عن القراصنة البرابرة القادمين من شمال أوربا الاسكاندينافية والذين اعتادت الأدبيات العربية على تسميتهم بالمجوس لكونهم وثنيين في ذلك الحين والذين تسميهم الأدبيات الغربية بالفايكنغ، حين يتحدث الكاتب عنهم فيقول: استطاع الفايكنغ إقامة مجتمع متميز، مجتمع له ثقافته الأصيلة. فكانوا يقومون بعقاب من يسرق أو يلعبا للعنف داخل مجتمعهم الخاص، وكان الخداع إبان اقتسام الغنائم يعد جريمة كبرى، كما كان الموت عقوبة الخيانة والفرار من الخدمة... الخ.

هذا الإعجاب ومحاولة العدالة التي يتحدث فيها الكاتب عن الفايكنغ لا يماثلها إعجاب أو محاولة عدالة حين يتحدث عن المناضلين الأندلسيين المحاربين لاستعادة جزء من أرضهم التي عاشوا فيها ثمانية قرون ولا يعرفون أرضاً غيرها فحين يتحدث عنهم يصفهم فيقول عن خير الدين باربا روسا: لم يكن أمام باربا روسا إلا أن يصب جام حقده على الأسبان فوق رؤوس من تبقى من أفراد هذه الحامية الأسبانية المنكوبة التي تكلفت بحماية قلعة مدينة الجزائر!.. ثم يقول: لم يتوقف الحقد الأعمى للباشا على مجرد ملاحقة المدافعين عن بنيون (الجزائر) وإنما قرر أن يقتص من القلعة نفسها بتدميرها. ففي اليوم التالي أرسل الباشا بالآلاف من الأسرى الأسبان ليقوموا ببناء حاجز حجري ضخم بين الجزيرة والبر الأفريقي وهكذا بنيت مدينة الجزائر.

هذا التلاعب باللغة وبالتسميات ألا يذكرنا بتسمية المناضلين العرب هذه الأيام بالمخربين والإرهابيين إنها لعبة اللغة غير المحايدة، والذم غير المحايد. فالتاريخ الرسمي يكتبه دائماً المنتصرون، ولكن الذاكرة الشعبية لها تاريخها أيضاً ولنا في هذا حديث آخر.

عالم جديد شجاع

«الدوس هكسلي». ولكن من يعرف من قراء العربية أو من جيل التسعينات الدوس هكسلي أو كتابه العجيب (عالم جديد شجاع). ولكن من يعرف ايضاً جورج اورويل وكتابه 1984 لا شك أن كثيرين سيجيبون بأنهم قد قراوا عن رواية «أورويل» 1984! فلقد كتب الكثير عنها في العقد الماضي ثم أعيدت طباعتها وترجمتها إلى العديد من اللغات بمناسبة وصول العامل إلى العام 1984 والتساؤل عن تحقيق نبوءاته وبوتوبيا السوداء للعالم كما سيكون بعد ست وأربعين سنة من كتابتها.

كتب الكثير وقيل الكثير عن أورويل وسوداويته ورؤيته للعالم السائر إلى ما يظنه أماماً دون توقف، إلى العالم الذي ستحكمه قوى فاشية متحاربة، متعاضدة، متقاسمة للعالم وللتاريخ ولوسائل الإعلام ولتصنيع الإعلام ولإعادة كتابة التاريخ، ثم إعادة كتابته، ثم إعادة كتابته إلى ما لا نهاية وحسب ما يرى الأخ الأكبر سيد العالم في أوشيانيا، فالعالم قد انقسم إلى كتل ثلاثة هي وراشيا أي اتحاد أوروبا وآسيا، واوشيانيا أي الدولة المحيطية والمقصود بها الأميركيتين، وايست آسيا شرق آسيا، والغريب أن المؤشرات كلها تشير إلى انقسام قادم للعالم تحت هذه الأسماء الثلاثة.

ليس المثير في رواية أورويل هو إشارته إلى اتحاد العالم وانقسامه في آن واحد، بل المثير هو في رؤيته لسيطرة التلفزيون على كل مسارات الحياة، هذا التلفزيون المرسل والمستقبل والمنتشر في كل غرفة وشارع وحمام وغابة. حلم أجهزة الأمن الأكبر في معرفة كل دقيقة وكل

تحرك للإنسان ـ الرعية. حلم مراقبة الأحلام والأفكار ومنع الحب فالحب أي التقاء فردين من الرعية هو شأن الأخ الأكبر والدولة والمصالح الكبرى.

ما ذكرني برواية أورويل ليس روايته 1984 بل رواية هكسلي (عالم جديد شجاع) والتي أعود لقراءاتها بين الحين والآخر فأهتز رعباً. فما الذي جعل كاتباً في بدايات القرن في ثلاثيناته ينظر إلى العالم والمستقبل، ومستقبل العلم بهذا السواد.

إن كلا الكاتبين «أورويل» و«هكسلي» يصنع يوتوبياه الخاصة. يوتوبياه السوداء والفارق بين الكتابين لم يزد على ستة عشر عاماً. ستة عشر عاماً شهد فيه العالم الحرب الأهلية الإسبانية، بروفة الحرب العالمية الثانية والحرب العالمية الثانية أيضاً، ولكن وقبل هاتين الكارثتين عانت أوروبة العجوز مسخرة ومأساة الحرب العالمية الأولى التي رات فيها مئات الألوف يموتون على يد العلم، بالغازات ماتوا، وبالمتفجرات وبالقنابل ماتوا، دون فروسية ماتوا، ودون أمل في عالم أفضل ماتوا، أوروبة هذه التي خرجت من الحرب الأولى بسوريالييتها ودادئيتها وفوضوييها خرجت أيضاً بالدور هكسلي العالم أصلاً وأخي العالم الشهير جوليان هكسلي وحفيد توماس هكسلي العالم الشهير وابن القرن التاسع عشر قرن عبادة العلم والتعبد له وتاليهه والإيمان بأنه الطريق الوحيدة للتقدم والرفاه.

ولكن.. ماذا قدم العلم كما يرى هكسلي الذي عاش مأساة الحرب العالمية الأولى. لقد قدم العلم المدافع الحديثة، الدبابات، الطائرات. ولو بدائية، قنابل الغازات. وصرخ الرجل، أفهذا هو العلم إذن؟ أهذا ما انتظرت البشرية على يديه الخلاص، فقدم لها الموت والعذاب السريع والكثير. ولماذا؟ ليمكن قلة من أصحاب البنوك من زيادة ثرواتهم.

قبل أن يضع هكسلي روايته المهمة والسوداء (عالم جديد شجاع)

كان شاعراً فكتب ديوانه الأول (البولاب المحترق9 عام 1916 اي في سن الثانية والعشرين من عمره. ولكنه عرف بعد تقدمه في السن أن الشعر ليس كافياً لتحذير البشرية من الطريق السائرة إليه. فكتب الكثير من المقالات والقصص والروايات. ولكن روايته التي علق اسمه بها، وعلقت باسمه في ذاكرة الناس كانت رؤياه السوداء (عالم جديد شجاع) (1932) أي في الثامنة والثلاثين من عمره وبعد الكارثة الاقتصادية الكبرى التي عصفت بالعالم آواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات وبعد ظهور الأنظمة المولية الكبرى مدعية العلم طريقاً وحيدة للحقيقة والرفاه.

في عالم جديد شجاع يقدم لنا هكسلي عالماً مبرمجاً تماماً. عالماً تخلى عن الزواج والحب والأمومة والأبوة والعلاقات العائلية. عالماً يتكاثر بالأنابيب بديلاً عن الأرحام والأمهات. عالماً أطفاله قدر عليهم فيه منذ أنبوبهم الأول تكوينهم العضوي واستعدادهم العقلي. عالماً يحفظ أطفاله قواعد حياتهم ومستقبلهم بأكمله وهم أطفال يستمعون إلى أشرطة التسجيل المدسوسة تحت وسائدهم فيحفظون ما يجب أن يكونوا عليه، ما يحبونه، ما يكرهونه، انعكاساتهم، رؤاهم، أحلامهم، ملذاتهم، مخاوفهم، أفراحهم.

عالم قسم أطفاله بمركبات الأنابيب الكيميائية التي زرعوا فيها إلى طبقات خمس ا ب جـ د هـ . وكل طبقة قدر لها ذكاؤها وتفاعلها ومستقبلها بالتغذية الكيميائية لها في الأنابيب. فالطبقة ا اي الصفوة، هي طبقة استولدت من بويضة واحدة ولها الذكاء والإدارة والاختيار. لها كل شيء إلا القلق والإنجاب. فالقلق والتساؤل والأدب والعواطف الحقيقية محرمة في مجتمع الرفاهية هذا. أما الطبقة هـ _ وهي الطبقة الدنيا، طبقة التوائم بلا نهاية حسب طريقة بوكانوفسكي وهي طريقة تحرض فيها البويضة الملقحة لتتبرعم وتتكاثر وتنقسم حتى تبلغ براعم البويضة الواحدة ستة وتسعين برعماً، ثم جنيناً، ثم توأماً، ثم مخلوقاً مقدراً له العمل الأسود والشاق في المجتمع. مخلوقاً لا يفكر ولا

يقلق، ولا ينزعج ولا يحسد ولا يثير الإضرابات ولا الشغب ولا يطالب بالإجازات ولا بتحسين ظروف العمل. مخلوقاً انعدمت شخصيته انعداماً تاماً. فالعالم الجديد ينكر الفردية والاختلاف بين الأشخاص النماذج مخلوقاً لا يفكر أصلاً في تغيير موقعه الطبقي أو الفكري أو الاجتماعي. فشعار يوتوبيا هكسلي السوداء هو (الجماعة، التشابه، الاستقرار) عالم همه السعادة وليس المعرفة سعادة ميكانيكية صرفة، سعادة حسية موجهة من الأعلى، عالم دون أحلام فإذا ما أردت شيئاً ما عليك إلا أن تضغط زراً أو تدير مقبضاً ليكون لك ما تريد.

عالم يتحدث فيه أحد كبراء المديرين وهكسلي يسميه مصطفى منذ، يتحدث فيه عن العلم في هذه اليوتوبيا فيقول: أدركت أن علمنا كله ليس إلا بمثابة كتاب في الطبخ يحتوي على نظرية ثابتة في الطبخ ليس لأحد أن يناقشها، كتاب يحتوي على قائمة من الوصفات التي لا يجوز الإضافة إليها إلا بإذن خاص من كبير الطباخين. وأنا ... الآن كبيرهم. يقولها ساخراً.

ويسأل الهمجي وهو رجل ولد بالصدفة خارج هذا العالم ونشأ خارج هذا العالم ثم جيء به غليه نموذجاً للدراسة العلمية... يسأل مصطفى منذ عن الأدب وشكسبير والفلسفة ولماذا استبعدت من هذا العالم، فيقول: لأنها أشياء جميلة، والجمال جذاب، ونحن لا نحب أن ينجذب الناس إلى الأشياء القديمة،إنما نريدهم ان يحبوا الأشياء الجديدة، ثم .. أنت لن تستطيع أن تكتب مأسي مثل (عطيل) بغير قلقل اجتماعي، وعالمنا اليوم مستقر، والناس فيه سعداء، ينعمون بجهلهم العواطف والشيخوخة والبكاء على الأمهات والآباء، ليست لهم زوجات ولا أطفال ولا عاشقون يحبونهم حباً جماً، لقد تكيفوا بحيث لا يمكنهم إلا أن يسلكوا كما ينبغي لهم . منذ قدر لهم في آنابيبهم . أن يسلكوا، وإذا ساء أمر من الأمور فهناك السوما (نوع من المخدرات).

ولكن الأقسى والأكثر إقناعاً في السخرية من الإنسان ومن

مستقبله ما يتحدث به المدير مصطفى حين يسأله الهمجي ولكن لم لا تستولدون أطفال الأنابيب كلهم من الفئة أ، الفئة المحظوظة الذكية فيقول: لقد جربنا هذا في العام 473 بعد فورد (إله العالم الجديد) لقد أبعدنا سكان قبرص الأصليين جميعهم وأعدنا أعمارها بطائفة من اثنين وعشرين ألفاً من طراز أ. أعطيناهم كل المعدات الزراعية والصناعية وتركناهم يديرون شؤونهم بأنفسهم. فكيف كانت النتيجة؟ المؤامرات على السلطة، التهرب من الأعمال الوضيعة، ثم الحرب الأهلية التي أفنت تسعة عشر ألفاً من اثنين وعشرين ألفاً. البقية الباقية؟ لقد رفعوا إلينا طلباً اجماعياً يلتمسون منا العودة بالجزيرة وبهم إلى عالمان الجديد الشجاع.

عالم أسود ومستقبل طبقي يديره العلم نخبته الفئة أ، ولكن من هي الفئة ألف في عالمنا المعاصر. نحن نعرف أنا أبناء العالم الثالث من الفئة هـ وربما لو كنا محظوظين فربما صنفنا في الفئة د ولكن من هم أبناء الفئة ألف. هل هم صهاينة العالم يهوداً ومسيحيين وربما مسلمين، أم هم رجال البنوك الكبرى وهيئة إدارة العالم الجديد؟.

كان صديقي عبد الله يمشي كعادته مثقلاً بالأفكار والتأملات حين «شحطت» إلى جانبه سيارة فارهة طولها حوالي النصف كيلو متر. فتح باب السيارة وصاح صوت من داخلها:

تفضل أستاذ

نظر إلى الوجه، فلم يعرفه، نظر من حوله يتعرف إن كان النداء موجهاً لأحد سواه، ولكن الصوت كرر:

- أستاذ عبد الله، تفضل، ولو، أما عرفتنا؟

حدد إليه النظر، كان في الوجه شيء مألوف ألفة كل أبناء الأرض وبحكم اعتياد صديقي عبد الله نسيان الوجوه والأسماء، والأماكن فقد كان يميل إلى التشكك في ذاكرته، فقال في أدب:

- أعذرني فلم أذكرك تماماً.

- آه طيب، طيب، تفضل الآن وسنتحدث على الطريق.

- لا بأس أشكرك، ولكني أحب أن أمشي إلى البيت إن في ذلك رياضة احتاجها.

- يا سيدي اطلع، أنا مشتاق إليك، وهناك أشياء كثيرة أحب الحديث فيها معك.

- ولكن..

وخجل أخيراً تحت إلحاحه، فطوى نفسه ودخل السيارة.

- يا أهلاً يا أهلاً، لم تذكرني بعد. هه؟

وحين رأى صمته الخجول تابع:

- أنا حسام زميلك في الثانوي. هل نسيتني؟

- آه حسام.

وانفجرت الصورة أمامه، وتذكر الزميل الكسول الذي كان عبد الله يضطر لمساعدته في التحضير للامتحان والدراسة، والذي رسب أخيراً في الثانوية فتابع عبد الله دراسته الجامعية، واضطر حسام إلى إعادتها ثانية وثالثة حتى أفلح في نيلها أخيراً.

- الطقس حار. أليس كذلك؟

وضغط زراً فارتفع زجاج النوافذ، وضغط آخر ليدور المكيف ثم ضغط ثالثاً لينطلق صوت المستيريو بأغنية للشيخ إمام.

- هه، اتذكره؟

وقال عبد الله متمتماً:

- ولا زلت تسمعه؟

- أعشقه.

ونظر صديقي من حوله لا يصدق. فما معنى أن يعشق الشيخ إمام في سيارة كهذه، ولكنه كبت افكاره الشاذة كعادته.

ودار حسام بالسيارة في منحنى.

- ولكن. هذا ليس طريق بيتنا.

- أعرف. أريد أن أعرفك إلى بيتي.

- في وقت آخر. ارجوك.

- لا. لا يمكن، وهل أستطيع أن أحظى بك في كل وقت. تفضل، يا رجل..

وكان الحاج حسام قوياً بحيث خجل وتبعه.

كانت الشقة مكاناً فخماً لا عادة لعبد الله بمثله، صالون طوله خمسة عشر متراً، ثلاثة أطقم كنبات، لوحات جدارية، معلقات وتحف وسجاد، وكاد يجلس.

- لا. في المكتبة. ما رأيك؟

- ولديك مكتبة؟

- طبعاً أم تظن نفسك الوحيد من يملك مكتبة. تعال!..

وتبعه..

كانت مفاجأة حقيقية، جدران أربعة غطيت بالرفوف الموبيليا الفخمة المثقلة كتباً، اقترب منها بحكم العادة المرضية لديه، فاجأته المكتبة الإنكليزية بدءاً من بن جونسون وتشوسر مروراً بشكسبير حتى شيلاديلاني. أما المكتبة الفرنسية فكانت شيئاً مخيفاً، وكاد يلتفت ليسأله متى تعلم الفرنسية لولا خجله الذي أصمته، فالتفت إلى المكتبة العربية، وخنقته الغصة فها هو الطبري يجاور الزمخشري والأصفهاني والمقري إلى جانب المعري والمتنبي والثعالبي، وداخ مع الأسماء والعناوين.

- ولكن..

والتفت إليه..

- أعجبتك هه؟ «سأل دون أن ينتظر جواباً»

ماذا تشرب؟

- أي شيء، أي شيء.

وضغط على زر انفتح على إثره بار هيدروليكي ليرى كل مشروبات الدنيا أمامه مصفوفة مرتبة، وكتم صفرة قوية.

- لا. لن أستطيع الآن، ربما في يوم آخر.

- حسن، فمشروب خفيف، علبة بيرة، ما رأيك؟

- لا بأس.

ومضى حسام إلى المطبخ، وعاد صديقي إلى المكتبة يتمسح فيها بعينيه وأخيراً مد يده يسحب الأغاني، وهو يحس بالحسرة لحالة نسخته السيئة. كل ما أراد هو أن يعرف أية طبعة هي، ولكن الأصفهاني استعصى. جذبه فامتنع، قسا عليه، وجذبه فإذا بالمجموعة كلها تتحرك بين يديه، كانت خفيفة، أكمل جذبها، ولكن المفاجأة كانت عنيفة، فما كان بين يديه لم يزد على قشرة بلاستيكية طبع عليها أرقام واسم الكتاب والمؤلف.

صدمه ما رأى. جذب الطبري، بلاستيك، المسعودي، المبرد المقري.

وأطلق ضحكة داخلية عميقة أصدت وأصدت حتى ممحت عنه كل إحساس بالصغار سحقه منذ دخل البيت،أعاد البلاستيك إلى مكانه وقال:

- اشرب قدحاً من الوسكي على الأقل.

ضغط الزر، فانفتح البار، رفع الزجاجة الأولى، ولكنها كانت فارغة، كل ما في الأمر صباغ داخلي يعطي اللون المطلوب.

دخل حسام فرآه يعبث بالزجاجة الفارغة، وضحك بصفاقة.

- ظريفة هه، لقد جعلتها هكذا حتى لا أغضب أهلي المتدينين. ما رأيك؟

شرب عبد الله بيرته وانسحب بهدوء. رفض ركوب سيارة حسام وأكمل المسيرة إلى بيته، وهناك جلس إلى مكتبته العتيقة فتناول النسخة المهترئة من الأصفهاني ودوستوفسكي معاً وصب لنفسه كاس شاي باردة، وأطلق تنهدة ارتياح عميقة.

اين هي قبيلة البيكوت؟ أين هم الناراغانست، المؤهيكان، البوكانوكت والقبائل الأخرى العديدة التي كان لها شأن بين قبائل شعبنا؟ لقد تلاشوا أمام جشع وقمع الرجل الأبيض كما يتلاشى الثلج تحت شمس الصيف.

هل سنسمح لأنفسنا بأن ندمر بدورنا دون كفاح منا، وان نتخلى عن بيوتنا وارضنا التي وهبتها لنا (الروح العظيمة)، ان نتخلى عن قبور موتانا، وعن كل ما هو عزيز مقدس لدينا، اعلم انكم ستصرخون ابداً أبداً.

تيكومسه
زعيم الشاوني

هل سمع أحد منا بهذا الاسم،بتكنولوجيا العصر وعقيدة إفناء الجنس.

باسم هذا الزعيم الهندي الأحمر الذي كان واحداً من الاف حاولوا جاهدين الدفاع عن ارضهم وتراثهم أمام الهجمات البربرية للأبيض المتوحش المزود بتكنولوجيا العصر وعقيدة إفناء الجنس.

هل سمع واحد منا باسم الفدان الصغير، أو باسم الغيمة الحمراء، زعيم الأوغلالا سكان داكوتا، أو بالذيل المرقط زعيم السوالبروله.

قلة نادرة جداً أولئك الذين سمعوا بأي من هؤلاء المناضلين

المجهولين عاشقي الوطن. المسالمين. البريئين. عاشقي البراري والخيول وثيران البيزون. قلة نادرة أولئك الذين عرفوا الهنود الحمر إلا كما عرفناهم في طفولتنا في أفلام الغرب.

تعالوا نستعيد ذاكرتنا الطفلية لنرى الوحش الهندي المتربص وراء الصخور كضبع غادر بينما نرى الأبيض الجميل القوي يتقدم في قافلة عرباته المحملة بالمؤونة والذخيرة ونساء جميلات كنا قد تعاطفنا معهن سابقاً. كم واحداً منا صرخ محذراً الأبيض من الهندي الغادر. كم واحداً منا لعن الوحش الهندي الذي سيقتل الشابة الحسناء، وربما الأم الصغيرة ترضع طفلها، كم وكم من الصور الخادعة تسللت إلينا عبد سينما اليانكي.

نراهم يتقدمون لإنشاء مستوطناتهم ومستعمراتهم التي ما تلبث أن تكبر لتصبح مدناً مثل ميامي وايداهو والميسيسيبي والاياما.

نراهم يتقدمون ولا نتساءل لثانية واحدة. ولكن، هل من حقهم فعل هذا؟ لا نتساءل لثانية واحدة إن كانوا يتقدمون في أرض شعب آخر يبيدونه ليأخذوا مكانه. نراهم يتقدمون ولا نتساءل لثانية واحدة إن كان هناك أي شبه بين هؤلاء الهنود الذين يختفون عن الخارطة وبين العرب الذين يختفون ويهددون بالاختفاء عن الخارطة.

ذاكرة مصنوعة وتاريخ خائن يقدم لنا مصنوعاً ومعلباً عبر عشرات الأفلام والمسلسلات التليفزيونية، تماماً كالأفلام والمسلسلات الكثيرة التي قدمت للعالم عن اليهودي الصابر المصمم على العودة إلى أرض الأجداد لإعادة إعمارها بعد أن أتلفها البدو المتخلفون البرابرة العرب... رجال ونساء هاربون من غدر النازية، مسالمون يريدون بناء مستوطنة سكنية يعيشون فيها ذكريات الأجداد، ويبنون عالماً طوباوياً، (بل اشتراكياً أحياناً) ولا يمنعهم من هذا إلا بعض العصابات من البدو والمخربين و.. الفدائيين الانتحاريين.. كم من النفوس تعاطفت معهم، كم من القلوب أشفقت عليهم، ولعنت العربي البربري.. هذا هو التاريخ كما

يقدم للعالم، وهذا هو تاريخ الهنود الحمر كما كنا نعرفه قبل أن أقرأ كتاباً عن تاريخ الهنود الحمر كتبه أميركي أنبه ضميره.

قرأت كتاب تاريخ الهنود الحمر، ورأيت تاريخنا القريب منذ ويلسون وحتى ترومان، فايزنهاور، فجونسون. وختاماً لحبيب النساء بيل كلينتون. قرأته وقرأت قرارات الأمم المتحدة، والالتماسات والمفاوضات المطوّلة والمطولة جداً لايقاف مد المستوطنات، ولكن إلى من ترفع هذه الالتماسات، ومن هو الحكم الأخير في هذه المفاوضات. أليس الأميركي الوسيم هو الحكم، أليس وريث بوفالوبيل وجيسي جيمس بطلي أفلام الغرب المنتصر على الهندي الغادر.

طريق طويلة ومعقدة وبائسة كطريق الجلجلة، ولكنه خيار أولئك الذين رضوا وقرروا أن يعيشوا في (الريزرفوار) في معسكرات التجميع التي جمع فيها الهنود بانتظار أن يقتلهم الوسكي والجدري..

يا إلهي.. أليس من خيار آخر، أليس من قدر آخر.. بلى، ولكن هل بقي للعرب آذان تسمع.

اقرأوا تاريخ الهنود الحمر الذي كتبه أميركي أنبه ضميره بعد فوات الأوان اسمه دي براون.. اقرأوه، فلعل في قراءاته إيقاظاً للنيام قبل الموت.

ماركو بولو، كازانوفا، دون جوان، شمشون، دليلة اسماء واسماء وصلت إلينا مع الانبهار العظيم الذي بهرتنا به الحضارة الغربية منذ أن امسكت بمشعل التكنولوجيات فسبقتنا وسمت التكنولوجيا، حضارة فأمنا، وسمت حضارتها مشعلاً طلبت منا ملاحقته ومتابعته فأطعنا، وهكذا دخلت رموز هذه الحضارة في مفرداتنا حتى نسينا أصلها، ومعناها، وأسباب انتشارها.

كازانوفا رجل المغامرات الغرامية، زير النساء الذي لا يشبع، قدّمه إلينا الغرب فقبلنا المصطلح ـ الاسم ورددناه، ونسينا امرأ القيس وشهريار وعمر بن أبي ربيعة، وزيري النساء الكثيرين، وما أكثرهم في تاريخنا، تسيناهم وصرنا نسمي تبع النساء كازانوفا، دون جوان، جيمس دين، هل تذكرون جيمس دين وتسريحته وثيابه المهملة والجيل الذي تابعه في حينه قبل أن ينتهي نهايته المأساوية إياها.

شمشون القاضي اليهودي قاتل الفلسطينيين وجلادهم والذي انتقل إلى الحضارة الغربية مع توراة اليهود. وصار تداوله الشهير حين قبض عليه الفلسطينيون وربطوه إلى عمود من أعمدة معبدهم فهز العمود وهدم المعبد وقال: علي وعلى أعدائي يا رب. دخل شمشون مصطلحنا اليومي ودخل تداوله في معجمنا، ونسينا أنه عدو هدم المعبد على أهلنا في فلسطين.

دليلة المناضلة الفلسطينية، والتي حارت في هزيمة الحمار اليهودي شمشون، والتي أغرته وخدعته حتى جردته من أسباب قوته

شعره - صورة رمزية عن تجريده من رجولته وقوته، وانتقلت دليلة إلى الغرب مع توراة اليهود، وصار اسم دليلة اسما للخيانة والغدر وهي المناضلة المدافعة عن وطنها وأمتها، وصار اسم استير المخادعة اليهودية اسماً للمناضلة المدافعة عن أهلها ودينها.

أسماء وأسماء، قد يبدو الأمر بسيطاً لا يستحق كبير التفات ولكننا حين نمعن التفكير فيه ونرى كيف اندسسنا في ثياب أعدائنا، ولبسنا أحذيتهم ورددنا أفكارهم، ووقفنا ضد أجدادنا ممن كافحوهم ندرك كم كانت الخديعة كبيرة، وأن الأمر ليس على هذه البساطة.

ماركو بولو حين يرن هذا الاسم في ذاكرتنا سرعان ما تتجسد رومانتيكية وإصراراً على تحقيق الهدف ولو بمصافحة الموت لسنوات وسنوات.

ماركو بولو الإيطالي الذي ترك سرير الأهل الدافئ، ترك الغرب وراحة البال، وراح يشق الصحارى الباردة والجبال القاصية يلاحقه قطاع الطرق ويهرب من دوريات الحكومات المتقاتلة على الحدود.

ماركو بولو رسول الحضارة الغربية إلى الشرق الوثني الجاحد الجاهل الدموي.

ماركو بولو الأب الروحي لفاسكو دي غاما، وماجلان، وكولومبوس، وديناز، وكوك، وكل أولئك المغامرين الرائعين الذين اكتشفوا غوامض عالمنا وجلوه حضارة وثقافة وتقدماً للأجيال التالية!.

ماركو بولو.. ولكن من هو ماركو بولو.

في القرن الثالث عشر الميلادي وبعد الهزيمة الرائعة التي منى بها بطل الحروب الفرنجية (الصليبية) لويس التاسع، بعد هزيمته في المنصورة في مصر والقبض عليه مع أكابر فرسانه ومقاتليه على يد مماليك مصر الذين لم يتسلطنوا بعد، دفع لويس التاسع الفدية عنه

وعن رجاله، ورحل عن دمياط عائداً بفلول مقاتليه إلى عكا. وفي ١٢٠٠ أخذ الحقد يتأكله، فأخذ يبحث عن انتقام.

في ذلك الحين كانت هنالك إشاعات تتحدث عن ملك آسيوي عظيم في أقصى الشرق الأقصى يدين بالمسيحية وكان اسمه الاسم اسطوري (بريسترجون) أو الأخ الراهب جون.

وكانت آسيا المغولية قد ارت أوروبا على يد جنكيز خان ما بإمكانها أن تفعله لو مدت مخالبها إلى أوروبة و.. أعجب لويس التاسع بالفكرة، فلم لا يقيم حلفاً بين أوروبا المسيحية وآسيا القصوى المسيحية ويحصرون العالم العربي الإسلامي بينهما كالمطرقة والسندان وينهون الوجود العربي الإسلامي من غربي آسيا.

كانت آسيا الشرقية بعيدة، وكان لا بد من رسل، وكان لا بد للرسل من أن يكونوا مغامرين مؤمنين مضحين بأرواحهم لو لزم الأمر، واختير أبو ماركو بولو وعمه للرسالة واصطحبوا معهم الفتى ماركو بولو والذي اخترق فيافي آسيا ومتاهاتها ليصل أخيراً إلى الإمبراطور المغولي حاملين معهم هدية هي كنيسة خشبية صغيرة! النكتة كانت في أن الإمبراطور المغولي اعتبر وصول الهدية ـ الكنيسة الخشبية ـ آيات ولاء وتقدمة من تابع ـ لويس التاسع إلى سيده الإمبراطور المغولي.. قبل الإمبراطور الهدية وأرسل إلى لويس التاسع يقره على ملكه تابعاً له..

أطال ماركو بولو الإقامة في بلاط الإمبراطور المغولي، وكتب عنها فيما بعد مذكراته المعروفة، ولكن أحداً لم يحاول جلاء غموض السبب الحقيقي لرحلات ماركو بولو، إلا وهي الحلف المغولي الفرنجي للقضاء على ما تبقى من مملكة، وحكم كان عظيماً، وكان اسمه الحضارة العربية الإسلامية.

كان أول دفعته دائماً، الأول في الثانوية والأول في اختيار كلية الهندسة طريقاً للمستقبل، فما الذي يمكن أن يهيئ مستقبلاً أفضل له ولأمته ولمستقبل البشرية ككل خيراً من العلم المجرد الصرف دون اهواء ودون تحيزات ـ الهندسة.

اختار الهندسة، وكان الأول في كل صف فذكاؤه كان اكبر من المتوسط إن لم نقل انه كان من القلة اللامعين، فلفت نظر أولئك الباحثين عن الهموم والمشاكل والبحث فيما يوجع الرأس من هموم الوطن والأمة والمستقبل، وخدعوه، فانخدع، ولم يكن قد مضى على تخرجه الكثير، وأخذ يلتفت إلى أمور أخرى، فجأة لم يعد ملاحقاً بحس الواجب ـ السوط، هذا الحس الذي يلاحق المرء، فيؤجل كل المسرات حتى إنجاز الهدف المعين سلفاً، يرى الورود فيؤجل جمال الورود، ويسمع العصافير، فيؤجل سماع العصافير وتنازله الخدود الحلوة والشعور الهفهافة، فيؤجل الخدود والشعور، فالواجب ـ النجاح ـ التفوق كان يغلق كل العيون، ويصم كل الآذان إن كان للمرء اكثر من عينين واذنين.

خدعوه فانخدع، وأخذ يلتفت من حوله، فيرى الورود، ويرى جمالها، ويسمع العصافير، ويهتز لغنائها، ويرى الحسان فتهتز أوتار خفية في الروح كانت مصمتة ثم.. أخذ يسمع ويرى ما يدور من حوله، عرف أن هناك غير الرياضيات المجردة، هناك ظالمون ومظلومون، هناك أعداء محيقون آنيون ومراهنون على المستقبل، أخذ يرى الخريطة المهتزة وكان يراها شيئاً سرمدياً، فتورط، وناقش، وجادل،

ورأى، وكان هذه خطاه، فاحس به القيمون على السلام العام والأمن العام والهدوء العام.

وفجأة اكتشف أن في العالم أشياء أخرى مغايرة للعلم المجرد وللفن المجرد وللجمال المجرد وللغناء المجرد، اكتشف أن هنالك بطلاً غير مجرد إنه بطل واقعي محسوس يجرح الظهر ويمزق الأقدام ويسلخ الروح عن الروح. واكتشف أنه عنيد، وأن عناده ألزمه بعدم الانسحاب، وألزمه بقبول المغامرة حتى النهاية.

وكانت مغامرة قاسية ضيع فيها أحلى سنوات الشباب، أجمل سنوات العمر، سنوات الحلم والطيش والمغامرة، سنوات البكاء على صدر الحبيب، والوقوف تحت شرفات الحلم.

وخرج من بطن الحوت، خرج كهلاً في منتصف الثلاثينات، خرج من بطن الحوت وصلع قد غزا الرأس، وشيب مبكر قد غزا الفودين، ومرارة كبيرة قد ملأت الأحناء والقلب.

خرج من بطن الحوت ليجد المرأة التي وعد، والتي كان قد بنى معها قصوراً وحدائق ومدناً فاضلة، وجدها وقد أكلها الانتظار، وسرق شبابها الطرق على الأبواب، وحمل الطعام الجاف والثياب المغسولة إلى أقبية حراس وقحين ذوي أيد فاسدة وقلوب عفنة.

خرج وقد اقسم بينه وبين نفسه أنه لن يلقي بصباح الخير إلى جار، ولن يقرأ صحيفة، ولن يسمع خبراً في إذاعة، وأن هذا العالم الفاسد الذي تركه يتعفن في بطن الحوت الأسود، هذا العالم الذي لم يمد يده إلى المرأة التي انتظرته السنين بيسمة أو تحية أو مشاركة وجدانية، هذا العالم الغارق في همه اليومي لا يستحق أن يبذل من أجله شيء.

بحث عن عمل ولا عمل: ولكني مهندس ومتفوق وباحث عن الغد والمستقبل والتكنولوجيا و.. لا عمل. وأخيراً وجد أناساً عرضوا عليه

العمل ولا عمل، كيف، نستاجر اسمك وشهادتك، ونفتح بقدسيتها مكتباً للتمهدات، وتردد، وطال التردد، ولكن الأبواب المغلقة جعلته يلج الباب الوحيد المفتوح وباع اسمه وشهادته وعلمه وتخرجه، وتفرغ للمرأة التي انتظرته السنين، وأوجد لنفسه هواية تربية نباتات الصبار، وعلمه الصبار الصبر. وكان يقتنع بالراتب المتواضع يدفعونه له أول كل شهر مقابل استخدام اسمه وشهادته. وتعلمت المرأة المنتظرة تربية القطط وبدا أن عالمهما قد استقر أخيراً، لا هموم، لا صراع، لا خوف، لا مشاكل، بيت صغير ونباتات صبار، وقطط قنوعة.

وفجأة انهدمت الجنة التي لجا إليها، لقد اكتشف القانون أن المهندس لا يقرأ الصحف ولا يسمع الإذاعة ولا يصيخ على جيرانه كان الغشاش الأكبر فهو من بنى البنايات المتساقطة، وهو من رمل الأرامل، ويتم الأيتام، وهرب الرابحون بربحهم، وعاد ثانية إلى بطن الحوت.. لقد كان ذكياً أكثر مما يجب.

المشكل في حياة أبي حيان

كانت مشكلة أبي حيان التوحيدي انه قرأ الجاحظ، الكاتب العباسي الكبير، بل ربما كان الكاتب النثري الأكبر في اللغة العربية، فأحب الجاحظ، وآمن بالجاحظ وقرر ان يسير على خطى الجاحظ مؤمناً بإمكان الكاتب ان يكون كبيراً وشهيراً وشعبياً معتمداً على ملكاته وموهبته وثقافته فقط. ولكن المشكل في قراءة أبي حيان للجاحظ هو ان قراه كتاباً فقط. قراه مخطوطاً، ولم يقراه ضمن نسيج عصره، لم يقراه السياسي، ولم يقراه صاحب الأيديولوجيا الصاعدة في حينها، فالجاحظ كان معتزلياً، وكانت المعتزلة سيدة حركة (التقدم) في حينها، وكان حزب الاعتزال قوياً، بل ربما كان صاحب الحكم، وهكذا روج لصوته الأدبي (الجاحظ)، فتعاون لخدمة الجاحظ موهبته الخارقة والزمن المناسب، والحاجة العربية لصوت يعبر عنها، والحزب السياسي المروج.

كانت مشكلة التوحيدي انه لم يقرأ التفاصيل الصغيرة، بل قرأ الأدب الصرف كما سيقرأ كتاب معاصرون كثيرون كتاباً غربيين كباراً كثيرين، وسيعتقدون أن بإمكانك أن تكتب أدباً جيداً وأن تحصل على شهرتهم ونيوعهم وشعبيتهم بمجرد ان تكتب أدباً راقياً كأدبهم ناسين اختلاف الظروف بين مجتمعاتهم والمجتمعات الغربية، فالمجتمعات الغربية يحكمها شيء آخر غير الحزب السياسي الحاكم والأيديولوجيا الرسمية.. المجتمعات الغربية محكومة بسيد آخر هو السوق وأصحاب السوق.. صحيح أن السوق يحاول الا يصطدم بالقوى السياسية الحقيقية، ولكنه في المحصلة الأخيرة سيد آخر مختلف عن القوة السياسية الحاكمة. أما في العالم العربي حيث السوق ضعيفة أصلاً

ورجال السوق مهمشون أمام القوى السياسية الحاكمة والأيدلوجيات الحاكمة، فلم يكتشفوا (الكتاب التوحيديين) الفارق بين المجتمعين فوقعوا في مطب التوحيدي.

كانت مشكلة التوحيدي في أنه لم يقرأ خريطة عصره الاجتماعية جيداً أو أنه قرأها وتجاهلها معتمداً على موهبته الخارقة وثقافته الموسوعية فتجاهل أن العرب كانوا قد طردوا من الواجهة العباسية منذ أمد. طردهم المأمون حين جعل ديوان الكتابة للفرس والمتفرسين، وطردهم المعتصم من ديوان الجند جاعلاً من الجندية حقاً للترك والمتتركين فقط، وهكذا تحول العرب بفضل هذين الخليفتين إلى رعية، شعب، هل أقول رعاعاً فقط، ربما كان الأمر كذلك رغم قسوة الكلمة، حوّلهم هذان الخليفتان إلى بدو في البادية، وإلى تجار وعمال وسقائين في الحواضر.. وهكذا جاء التوحيدي وظن أنه رغم أنه كاتب عربي في زمن الكتاب الفرس سيخترق الحواجز وينافس وينتصر ويحصل على ما حصل عليه الجاحظ في الزمن العربي والزمن المعتزلي والزمن الأزهر.

لكن سوء حظه وربما كان هذا قدر كل الكتاب الحقيقيين الكبار هو أنه وجد أيضاً في عصر كاتبين لم يكونا كبيرين على أي مستوى إلا في مستوى الإفادة من تناقضات العصر وكان هذان الكاتبان هما الصاحب بن عباد، وابن العميد.

قرأ الصاحب بن عباد إمكانات العصر وقرأ إمكاناته الأدبية الحقة، فعرف أنه غير موهوب موهبة كبيرة، وعرف أيضاً أنه لن يستطيع حفر اسمه على قائمة الخلود بهذه الإمكانات الصغيرة، فاختار الطريق الأسهل والذي اختاره الكثيرون فيما مضى، والذي سيختاره الكثيرون فيما سيتلو، اختار أن يكون رجل السلطان، وأن يصل إلى الشهرة والذيوع عن طريق السلطان، وبطريق السلطان سيفرض اسمه وسينيع، وهكذا تحرش بالسلطان واقترب من مراكز السلطة حتى صار كاتب السلطان ووزيره فاخذ يفرض أسلوبه السقيم على الكتابة، ذلك الأسلوب الذي مجه تلميذ

الجاحظ التوحيدي. وأعني أسلوب السجع، والغريب أنه بعد بضعة عشر قرناً ما يزال اسم الصاحب بن عباد معروفاً لأنصاف المثقفين. ولكنه معروف كاسم وليس معروفاً كنص إلا لخاصة خاصة المتخصصين الملاحقين لكل صغيرة وكبيرة في عالم الأدب.

اختفى ابن عباد واختفى ابن العميد من عالم النص الأدبي. ولكنهما عاشا كاسمين مجردين يقال عنهما أنهما كاتبان، ولكن بلا قراء ولا نصوص، والأكثر غرابة أن التوحيدي هذا الذي قرر في لحظة يأس وجوع وقهر من زمانه أن يحرق كتبه قائلاً: إن أمة تحوج كاتباً كالتوحيدي إلى اكل أعشاب البرية حتى لا يموت جوعاً لا تستحق ثمرة ذهني وكتاباتي..

أحرقها ولكنه نسي أنه ليس المالك الوحيد لنسخه، فنجت كثير من الكتب وبقيت شاهداً على عبقرية هذا الرجل المظلوم الذي سماه معاصروه فيلسوف الكتاب وكاتب الفلاسفة، بقي لنا (الصداقة والصديق) و(المقابسات الإلهية) و(المسامرات) والكتاب الأكثر إقناعاً والأكثر جمالاً والذي اختفى لقرون تحت تهديد أن من يملكه فلا بد أن تصيبه مصيبة وأعني كتاب (أخلاق الوزيرين). ذلك الكتاب الذي هجا فيه ابن عباد وابن العميد، وهجا العصر فكان وثيقة أدبية اجتماعية نادرة.

ترك التوحيدي عدداً كبيراً من الكتب، وترك ابن عباد وابن العميد عدداً كبيراً من النصوص السجعية السقيمة. ولكن الغريب أن ابن عباد إذا ما ذكر لم يذكر إلا بما وصفه به التوحيدي في كتاب أخلاق الوزيرين حين وصف استقبال ابن عباد لقاضي مدينة قم. قال يرحب به: أيها القاضي بقم.. ثم أعجزته السجعة فأكملها قد عزلناك فقم!!!

فكانت هذه درة ابن عباد التي حفظها التوحيدي للزمن فأثبت التوحيدي أن البقاء للفن الصافي وليس لرجال العصابات ممن يستقوون على الأدب بالعصبات والتكتلات التي لا تصنع أدباً ولا تخدم ثقافة أو وطناً.

اهل فيكم من لا يزال يذكر كتاباً بهذا الاسم، وإن كان يذكره، فهل يستطيع أن يذكر شيئاً من محتوياته؟

غريب أمر الكتب، وغريب أمر الحظوظ، وغريب كيف يقفز كتاب ما إلى مقدمة الكتب الرائجة في فترة ما لسبب بسيط هو أنه جاء استجابة لحاجة غائمة في أذهان معاصريه، فراج.

اللامنتمي.. أواخر الخمسينات، أوائل الستينات، خيبة الطبقة الوسطى العربية، تلك الطبقة التي حملت كل الأحزاب السياسية حتى تاريخه، تلك الطبقة التي حملت كل الأفكار الكبرى حتى تاريخه.. أوائل الستينات والخيبة الكبرى في كل المعتقدات، أواخر الخمسينات وأوائل الستينات وفترة مطاردة الساحرات الكبرى. فترة مطاردة كل من حمل فكراً وقرر ألا يكون دكتجياً عاقلاً مهتماً برزق يومه متخلياً عما لقيصر لقيصر ومهتماً بما للدكان وراضياً به.

أواخر الخمسينات وأوائل الستينات، فترة الرعب من حمل الفكرة، فالفكرة طريقك إلى السجن والطرد من الوظيفة والاضطهاد ومحاصرة الأهل والجيران لك فأنت متهم وأنت مشبوه وأنت بالتالي ملعون، والسعيد من هرب عن طريقك.

أواخر الخمسينات فترة الحلم بالوحدة، وأوائل الستينات وبدء ما اسمي في حينها بفترة الانفصال. الخيبة الكبرى، والسقوط الكبير.

وفجأة يقفز إلى الساحة كتاب ترجم عنوانه The out Sider

خطأ، فالعنوان قد يعني الغريب وقد يعني الخارجي. ولكن انيس زكي حسن مترجم الكتاب اختار له بضربة حظ عجيبة أن يترجم تحت اسم اللامنتمي. ورنّ الاسم في أذهان أولئك الخائبين المدحورين المهزومين رنيناً عجيباً. اللامنتمي الخارج عن الأفكار، الخارج عن حركة المجتمع، الخارج عن الحزبية والتنظيم. رنّ الاسم رنينه العجيب بين القواعد من الناس الذين رأوا رأس الذئب المقطوع فتربوا وفجأة صار الكتاب إنجيلاً وصرت ترى شباب تلك الفترة طويلي الشعور وسخي الأحذية، المفرمين بالجلوس على الأرصفة تحدياً ـ وجودياً كما يعتقدون ـ للمجتمع، الشاربين الشاي بعد مص السكائر لإدخال الدخان إلى المعدة مباشرة، فجأة رأيت أولئك الشبان يحملون كتاباً عنوانه الصارخ يقول: اللامنتمي.

اللامنتمي اشتهر في الشرق الأوسط وكولن ويلسون اشتهر أيضاً كما اعترف باكثر مما عرف في بلده إنجلترا بعشرات المرات، لقد صار رائداً وصار له المريدون وصرت ترى أولئك الشبان يتصافحون، ثم يسأل احدهما الآخر متباهياً! أخي الكريم لاتناقشني في شيء الآن. هل قرأت كتاب اللامنتمي؟ ويجيب الآخر مرتبكاً وكأنه قد عري امام الجماهير: ليس بعد.

ـ إذن نتناقش بعد قراءته.

والكتاب.. المضحك في الكتاب أنه ليس كتاباً سياسياً ولا بحثاً في الأيديولوجيا. الكتاب كان ببساطة محاولة نقدية لمتابعة الشخصية غير المندرجة في سياق المجتمع. الشخصية الخارجة عنه لأسباب لها علاقة بحركة المجتمع الصناعي الأوروبي.

ولكن.. الكتاب ترجم تحت اسم اللامنتمي. وترجم في زمن كان الانتماء مصيبة على صاحبه.. وبيع الكتاب، وحمل الكتاب، وتداولوا الكتاب، وتحدي بعنوان الكتاب.. ولكن الكتاب ـ للمغرية ـ لم يقرأ. فلقد اكتفوا بعنوانه.

الآن وبعد ثلاثة عقود. الآن وبعد خيبات أمر وأقسى، وهزائم أشد وأوجع.. الآن ونحن على نهايات القرن العشرين، أتساءل ما اسم الكتاب الذي سيتباهى به شبان هذه الأيام يتحدون به المجتمع المستسلم الخانع المنتظر بركات الرب الأمريكي القادم.

أمواج كالجبال تعلو حتى يظن المرء أنها لن تتراجع حتى تنطبق على القارب الذي ضؤل وصغر وتقزم أمام هول الموج، ولكنها ما تلبث أن تنحط وتنحط حتى تتحول إلى وديان مرعبة، هاويات بلا قرار، ورعب السقوط في أعماقها حيث الظلام الأبدي والخلود المتحلل.

كانت الألسنة قد تورمت من العطش والأنامل قد تخدرت من تعب الإمساك بحبال صوار هي آخر ما يملك المرء من طرائق أو أدوات تصله بالنجاة، كانت الألسنة قد تورمت من العطش ولكنها كانت قد تورمت قبل ذلك من الدعاء، من الصلوات، من الرجاء، من الأمنيات، وقبل ذلك كانت قد تورمت من التنظيرات، وتفسير الأفكار، وإعطاء الوعود عن الأرض الموعودة، أرض السلام القادم، والفرح القادم والهدوء القادم، والأمن القادم ولكن العواصف كانت فظيعة، فظيعة حتى أنها حطمت الدفة فصارت السفينة كتلة خشبية هلامية بلا هدف ولا قيادة، كانت العواصف فظيعة حتى أنها أضاعت البوصلة والخرائط، بل حتى ذاكرة الربابنة الذين توالوا على السفينة المعطوبة.

وأخيراً استسلم الربان واستسلم السندباد واستسلم الركاب، فالعاصفة كانت أكبر من أن تقاوم، والتعب كان أشد من أن يتجاهل، والأفضل للمرء أن يموت بهدوء.. ولكن.. وعند لحظة الاستسلام تلك، وعند لحظة ضياع البوصلة والخرائط والذاكرات.. عند تلك اللحظة انقشعت السماء وانكشف السواد وتوقفت العاصفة، ففي آخر الأفق تبدى شبح بني، وصرخ المنادي من أعلى الصاري: البر البر، يا ركاب

السلامة، لقد استجاب الله لدعائكم.. ودبت الحيوية فجأة في اليائسين الضائعين المنهكين وأحدّوا البصر يبحثون عن البر - النجاة - الأرض الثابتة اليقين بعد طول شك وريبة وضياع.

وأخذوا يجذفون، بأيديهم يجذفون، ببقايا مجاذيف يجذفون، بكل ما وصل إلى أيديهم يجذفون، وهكذا أخذ البني يكبر ويتضح ليتبدى وعليه بعض الأخضر، وأغمضوا عيونهم في سعادة، إنها الأرض الثابتة، الخضرة والماء والثبات بعد طول دوار.. وصلوا إلى البر - الجزيرة.

قفزوا في الماء إلى أوساطهم، زحفوا في الماء الضحل، فلم يكن في سوقهم فضل قوة يساعدهم على المشي، ولكنهم أخيراً نجحوا في الوصول إلى البر، زحفوا المزيد واسترخوا ممسكين بأصابع متشنجة بتراب الأرض، فها هم أخيراً وصلوا إلى البر - السلام، الأرض الثابتة.. وفجأة حط عليهم في مراقدهم المؤقتة تلك نوم كالموت، كالاستسلام للأحلام، كهدوء ما بعد العاصفة الطويل.. الطويل..

حين استيقظوا لم يصدقوا أنفسهم، نظر كل منهم في عيني الآخر، وهمس اقرصني، عضني، ارفسني، دعني أتأكد أني صاح، وقرصوا وعضوا، ورفسوا كل منهم الآخر، وكانوا صاحين، كان البهو العظيم الذي وجدوا أنفسهم فيه محلى بزخارف الفسيفساء والذهب، وكانت طيور مغموسة بالعطور تطير من حولهم فترشقهم بعطور لم يشمها إنسان من قبل، نظروا إلى هلاهيلهم فإذا هي وقد استبدلت بالديباج والحرير وإذا في أقدامهم أحذية من كتان مصبوغ وفي الزوايا والأركان كانت الجواري الحسان لم يمسهن من قبل إنس ولا جان ينتظرن إشارة من هؤلاء الذين طال بهم الضياع والجوع.

تقدمت طاولة محملة بأطايب اللحوم والدجاج والأسماك والأشربة والخمور، ومن زاوية عتمة تقدمت امرأة هي الحسن قبل أن توجد الكلمات تصف الحسن، هي الصبا قبل أن تفكر النساء في الخوف من الكهولة والتجاعيد، هي الإشراق قبل أن يعرف العالم الظلمة والليل.

قالت تشير إلى الطاولة: تفضلوا، وانقض الجياع فاشبعوا البطون لم تشبع منذ أسابيع، قالت: اشربوا، فشربوا لترتوي عروق لم تعرف الري منذ ضياع اليوصلة والخرائط.. ولكن السندباد هذا الرجل الذي حنكته الأيام وضرسته بأنيابها، فعلمنه الا يعتبر السراب ماء. ولا الجواري الحسان نساء أمسك. فلم يقدم إقدامهم، تظاهر بالإمعان في الطعام والشراب، ولم يذقه، وكان ينظر إلى رفاقه وقد غطسوا حتى الآذقان في طعام ما بعد الجوع، وانغمسوا في شراب بعد طول الظمأ، تظاهر بحاجته إلى الخروج لقضاء حاجة، وبحث عن أعشاب برية أكلها فاسكتت جوعه، وبحث عن غدير فيه ماء منبق من مطر السماء، فشرب منه، ثم أدركه التعب فنام..

حين طلع الصباح فتح السندباد عينيه على خوار ونباح وعواء وثغاء. تأمل الحديقة من حوله، فوجدها ملأى بالخنازير والكباش والماعز والكلاب، وتساءل ما الذي يجري ها هنا، ومن أين جاءت هذه الحيوانات كلها.. أين وكيف ولماذا ترعي وتثغو وتموء وتنبح بهذا الإلحاح، تقدم كبش كبير منه وصار يتحمص بالسندباد.. نظر في عينيه، كان في العينين أسئلة وأجوبة وكلام. تقدم خنزير فلعق قدمي السندباد وتأمل العينين يا إلهي.. في العينين شيء غير خنزيري.

ترك الحيوانات، تسلل من بينها رغم إلحاحها على الالتصاق به، ودخل القصر ويا لهول ما رأى.. كانت سيدة الجمال وأميرة الصبا وشفق الإشراق قد تحولت إلى حيزبون صلعاء نحيلة تمسك بيدها عصا تبلها من ماء قريب ثم تنشره على أجساد الأصدقاء الشبعين المرتوين وتهتف بهم في ازدراء:

تحولوا إلى ما اشتهيتم في كل حياتكم أن تكونوا.. وكانوا يتحولون، بعض إلى خنزير، وبعض إلى كلب، وبعض إلى كبش. وصرخ من الألم: رفاقي شركاء الرحلة، كيف.. سمعت صوته فالتفتا إليه فجأة وصرخت: انت.. انت لماذا أنت صاح حتى الآن، ولم يرد جواباً، فبلت

عصاها السحرية ورشقته بمائها صارخة: تحول. تحول الآن إلى الحيوان الذي كنته في اعماق قلبك والذي اشتهيت أبداً أن تكونه. ولكنه.. لم يتحول.. فذعرت ما معنى هذا، هل عجز السحر.. ورشقته ثانية واخفقت. وقبل أن ترشقه الثالثة تسلل هارباً، فما يدريه ألا تستطيع تحويله.. هرب إلى الغابة واختفى ومن معزله في الغابة أخذ يراقب رفاق رحلته الذين تحولوا على يد العدو الصهيوني إلى كلاب وخنازير.. ولكن السؤال الملح الملح كان يقول: يا إلهي كيف هي أرواحهم الآن.. هل يدركون أنهم كانوا يوماً بشراً ذوي أحلام ورأي وامنيات بالتحرير والاستقلال والوصول إلى الوطن - الحلم، أم أنهم تحولوا فعلاً إلى الحيوانات التي اشتهوا طويلاً، طويلاً أن يكونوها كما قالت سيدة الكتيمت والهستدروت.

في مقال بمجلة نيوزويك الصادرة في 6 كانون الأول 1993 يتحدث الكاتب وبأسى عن العصافير الفلسطينية، أولئك المتعاونين مع أجهزة المخابرات الصهيونية الشين بيت، وأمان، والموساد. يتحدث عن مصيرهم القادم حين تقوم الدولة الفلسطينية وكيف سيلاحقون ويعاقبون عن كل جرائمهم ضد المناضلين الذين ونقوا بهم يوماً، وأمنوا لهم وظنوهم أبناء جلدتهم الذين لا يمكن أن يبيعوا تاريخهم وتراثهم وأحزان رفقائهم وجيرانهم ولكن..

في هذا المقال يتحدث كريستوفر ديكي حديث خبير عن هؤلاء الطيور - المتعاونين - والذين كانوا يدسون في السجون ينتظرون المناضل المقاوم المتحدي الرافض لكل إدلاء بمعلومة او خيانة لأصدقائه، ينتظرونه وهو يدخل الزنزانة فرحاً منتصراً مقاوماً مصمماً على الموت دون خيانة الرفاق ولكنه في الأعماق منهك فالتعذيب الطويل والتحقيق القاسي قد ضعضعه، يتقدم - العصفور الفلسطيني - الصديق المعزي المطبطب على الجراح فيسأل ويطمئن عن الأحوال ويتباكى على الأوضاع هناك في الخارج ويقع المناضل فهو يتحدث إلى شريك النضال ولكنه لا يعرف من أين يأتي حين يسحب ثانية إلى التحقيق ليواجه باعترافاته. ولن يشك بـ - لعصفور - فقد سحب إلى التحقيق وعذب وصرخ قبل أن يسحب المناضل ويحقق معه.

ربما كشف هذا الشكل من الإيقاع، فلجأ - العصافير - إلى العنف المباشر فما لم يقم به المحقق الصهيوني من تعذيب شديد ربما تضايق

منه الضمير الغربي كان يوكل به إلى العصفور المحلي: تكسير العظام، الحرمان من النوم لأيام، الكي بالنار إلخ.

ولكن كل هذه الأشكال البغيضة من التعاون ليست شيئاً، فهي أعمال روتينية ليس فيها من الخيال المبدع الكثير. إنها أعمال يمكن أن يقوم بها أي أجير رخيص ماجور. أما العمل المبدع، العمل الحقيقي، التعاون الحقيقي فهو ما كانوا يسمونه بالفيلم، نعم. الفيلم القائم على السيناريو والإخراج والتمثيل والإيهام حتى الوصول إلى ما يسميه المرحوم أرسطو بلحظة التطهير ولكن، كيف ينفذون هذا الفيلم.

هؤلاء المناضلون حين يقعون بين يدي العدو الصهيوني، فيهم من ينهار فيعترف ويريح ويستريح، ولكن الأكثر منهم هم اولئك المدربون جيداً والمشبعون بالإيمان جيداً والذين يصمدون لكل أشكال التعذيب والتحقيق ودس العصافير، وأخيراً ييأس المحقق منهم فيقول للمناضل: حسناً. نحن لم نستطع أن نثبت ضدك شيئاً ولكننا نعرف. وأنت تعرف. أنت مدان، لذلك فسنكتفي بترحيلك إلى لبنان، ويكتم المناضل فرحه، لقد انتصر عليهم. والترحيل أهون من السجن المؤبد والاعتراف على الرفقاء.

يعصبون عينيه، يضعونه في سيارة جيب، ثم يرمونه في البرية مشيرين إلى الشمال: ها هي لبنان: انج بجلدك. يتلفت المناضل الفتي غالباً من حوله. ولكن أين لبنان، وأخيراً يقرر المشي فلا بد أن يصل إلى بشر ما يدلونه. من بعيد يسمع ضجيجاً فيفرح متوجساً ويقترب ليرى مخيماً وشعارات تشير إلى المنظمة التي ينتمي إليها المناضل، ويطير عقله من حسن الحظ هذا الذي لم يسقه إلا إلى جماعته.

يقدم نفسه لهم فينكرونه. إنه قادم من الطرف الآخر، وما يدريهم أنه ليس جاسوساً صهيونياً، ولكنه يقدم نفسه ويعرف على رؤساء خليته. فيرفضونه. إنه جاسوس. ولكني قمت بالعملية الفلانية، فأين سلاحك إذن. إنه مخبوء في المكان الفلاني، ويصرون على إنكاره، ويلح فيطلبون

منه للتأكد من مصداقيته أن يدلهم عمن ورد إليه السلاح. وعبر من و يتحدث المناضل إلى جماعته ليبرئ نفسه من تهمة الجاسوسية للعدو . يحدثهم عن أسرار منظمته كاملة.

الصدمة الكبرى تكون حين يعاد إلى السجون الصهيونية ومعه اعترافاته والأسرار التي كشفها.

ما يرعبني الآن أن هذا الفيلم . الذي اسقط في حبائله عدداً من خيرة المناضلين. هذا الفيلم أتراهم . الصهاينة . ضخموه وكبروه وجعلوه مفاوضات كبرى ليس المقصود منها إلا الإيقاع بمنظمة التحرير كاملة والتي يحققون معها الآن طالبين منها . في مخيم المفاوضات . أن تكشف كل الأسرار قبل التأكد من فلسطينيتها . الصدمة ستكون بعد المفاوضات!.

1994/2/5

كان الحديث هذه المرة عن الهند، شبه القارة العظيمة، الحضارة العريقة التي تساوي إن لم تفق حضارات الشرق العربي. (الأوسط!) ومن الغريب ان هذه الحضارة العظيمة لم يعرف عنها أنها غزت امة أخرى خارج الهند، وكأن بأسها مكرس لها، بل كانت دائماً المغزوة، الاسكندر، العرب، المغول، الإنكليز.. إلخ.

كان الحديث عن الهند بمناسبة الحديث عن الكاتب في.إس.نيبول، وهو كاتب يصح تماماً إطلاق اسم (الكوزموبوليتاني) عليه. فهو من أصول هندية، ولكنه ولد في ترينيداد عام 1932 ثم قدم إلى إنكلترا عام 1950، وفجأة تغير شيء ما فيه، لقد اصبح - كما يريد وينوي طبعاً - إنكليزياً، اتقن اللغة الإنكليزية، ليس أربطة العنق الإنكليزية، شرب الشاي في الساعة الخامسة تماماً، وأدمن مشاهدة سباقات الدربي، ولكن لونه الأسمر الغامق ظل يشير دائماً إلى أصله الهندي، وكان لا بد من أن يستنكر علناً أصله الهندي والترينيدادي فقام عام 1960. وكان قد نشر عدة كتب في إنكلترا. كتب نالت جوائز من النقاد والناشرين،ولكن لونه الأسمر ظل يشي بأصله غير الإنكليزي. قام عام 1960 برحلة إلى جزر الهند الغربية وكتب كتاباً عن انطباعاته عن عالم ما بعد الاستعمار هناك وأسمى الكتاب «الممر الأوسط» ثم قضى عاماً في الهند زار فيه قرية أجداده وكان الاشمئزاز ينضح في كل كلمة كتبها عن ذلك البلد وأولئك الناس وتخلفهم وجشعهم وأحلامهم المحبطة وأسمى كتابه ذاك (منطقة الظلام)، ثم تابع سلسلة كتبه غير الروائية في (محجر الأرقاء المزدحم) في عام 1972 عن زياراته للهند أيضاً، ثم عودة ايفا بيرون وهو

كتاب عن رحلة له إلى الأرجنتين، ثم (قتل ترينيداد) عام 1980، ثم عن مقتل مالكولم أكس الزعيم الزنجي الأمريكي الشهير. وأكمل رحلة تصفية حساباته مع العالم القديم في كتاب (بين المؤمنين، رحلة إسلامية)وهو كتاب عن رحلة سبعة شهور إلى إيران وباكستان وماليزيا وإندونيسيا.

المهم أن في . أس نيبول حصل على لقب فارس من السيدة الجليلة ملكة بريطانيا العظمى التي غابت عنها الشمس عام 1990.

ألا يذكركم السيد في.أس. نيبول وموقفه المعادي لأرض الأجداد وثقافتها ومحاولته المستميته الالتصاق بالغرب بالسيد سلمان رشدي هذا الذي صفى حساباته مع الهند بكتابه «أطفال منتصف الليل» ثم مع الباكستان بكتابه «العار»، ثم مع الحضارة الإسلامية ككل بكتابه «آيات شيطانية».

ألا يذكركم السيد في. أس. نيبول بالسيد انطون شماس هذا الشاعر الفلسطيني والذي كتب شعراً كثيراً بالعربية فلم ينتبه إليه أحد فتنبه لأصول اللعبة وعرف أين تقع خطوط التوتر العالي والتي يجب على من يريد الانطلاق أن يلتصق بها لينطلق فتحول إلى روائي وكتب بالعبرية لاحظوا ما أقول. كتب باللغة العبرية رواية أسماها «أرابيسك» فدخل العالمية وترجم إلى الأميركية وما لا ادري أيضاً من اللغات ودعي إلى المؤتمرات واعترف به بأنه شيء أهم من تراثه الوطني. خاصة وأنه اعتبر في روايته قريته فسوطة شيئاً خارج التاريخ دخلها الرومان وظلت فسوطة، ودخلها العرب المسلمون وظلت فسوطة ودخلها الصليبيون وظلت فسوطة وها هم اليهود يدخلونها الآن. الكل غزاة وفسوطة فوق التاريخ، وهذا شيء يسعد الدوائر العالمية كثيراً ولا بد ان تكافئه عليه.

من مجموع هؤلاء الكتاب الثلاثة وتبشيرهم بعوالم فوق الحدود والأوطان والتاريخ، أخذت أتساءل ما الذي يريده هؤلاء الكوزمو

بوليتانيون إذن؟ ما العالم الذي يسعون إليه. إنه عالم مقتلعي الجذور.. العالم الذي نسجت بنيته الحضارة الغربية في نماذجها خارج أوروبة في الولايات المتحدة، استراليا، كندا، نيوزيلانده، جنوب إفريقيا، و«إسرائيل». التي أصر على تسميتها بفلسطين المتهودة ويصرون على تسميتها بإسرائيل ولكن.. أمن الممكن لعالم كهذا أن ينتصر على تاريخ حضارات البشر، أيمكن لناطحات السحاب أن تنتصر وتلغي الأهرام وتاج محل والجامع الأموي، هذا السؤال الذي سيجيب عنه الزمان وأبناؤنا.

لوسيان باسمه الأوروبي الصياغة المعاصرة، لوقيانوس باسمه الاغريقي المعروف، لوقا باسمه السوري الأصلي قبل أن تتداوله اللغات ويتناساه الشعب الذي ينتمي إليه.

لوقا ابن سميساط المدينة السورية عاصمة اقليم ديار بكر أوكوماجين خلال الفترة السلوقية واللاتينية، لوقا ابن العائلة الفقيرة والذي أخفق في تعلم النحت فأرسلته عائلته ليكمل تعليمه النظري فاريما أصبح السفسطائي أو الخطيب تلك المهنة التي تدر المال الوفير والشهرة الذائعة، وقد كان للرجل ما أراد، فلقد صار الخطيب والسفسطائي والمحامي والمحاضر الجوال، وحصل على المال والشهرة إلا أن حظنا السيئ هو في أنه كتب باليونانية لغة عصره فتبناه الغرب واحداً من اهم كلاسيكييهم، وتجاهلناه فيمن تجاهلنا من مثقفينا الذين سبقوا الإسلام.

للوقا ما يزيد على الثمانين مؤلفاً احتفظ الزمان لنا باكثرها، ولكن أشهرها وأهمها لي شخصياً بغض النظر عن دراماته ومونودراماته، كان كتاب (الربة السورية) هذا الكتاب الذي يعتبر المرجع الأقدم والأهم للأكروبول مجمع الآلهة السورية الوثني، وكتاب آخر هو رواية مبكرة اسمها ببساطة (قصة حقيقية)، وسأترك لوقا يقدم لنا كتابه هذا:

ما سيثير إعجابهم بكتابي هذا لن يقف عند حد أصالة الموضوع، أو حلاوة الفكرة، أو ضروب الكذب، بل لأن كل جزء منه يتضمن تلميحاً

إلى بعض الشعراء القدامى والمؤرخين والفلاسفة الذين مزجوا في كتاباتهم الكثير من الأعاجيب والخرافات. وأحدهم هو كيتزياس بن كتاز يوخوس من كنيد وقد كتب عن الهنود وبلادهم اشياء لم يرها ولم يسمع بها من فم إنسان صادق، وياميولوس وقد كتب كذلك عن البحر قصصاً عجيبة لا يقبلها عقل، وبالرغم من خيالية مؤلفه إلا انه كان مسلياً. وهناك كتاب اخرون اختاروا مواضيع مماثلة ولكن استاذهم الذي دربهم على هذه التلاعبات كان او ليس بطل هوميروس الذي حدثنا عن استرقاق الرياح، وشرامة السيكلوبات أكلي لحوم البشر كما وصف لنا حيوانات متعددة الرؤوس وعن مسوخات رفاقه بتأثير السحر، وحين كنت أقرأ لهؤلاء الكتاب لم اكن اصدق بهم جريمة الكذب. بل كنت واثقاً لكثرة ما كان هذا الضرب من الرواية شائعاً حتى لدى من يتعاطى الفلسفة بأنهم ما كانوا ينوون شراً، وعلى هذا فقد رغبت بعد أن وقعت تحت وهم المجد بأن اقدم شيئاً للأجيال القادمة مستفيداً من حرية الاختلاق هذه، ولما لم يكن لدي الكثير من الحقيقي لقوله، ولما لم أكن قد قمت بأية مغامرة تستدعي الاهتمام فقد تعمدت الكذب بيد أن أسلوبي في هذا الكذب كان اصدق، خاصة وأني مكتف بأن لدي أمراً واحداً صادقاً هو الاعتراف بأني كاذب، وبذلك لن أتعرض لنقد الناس بأني أحدث عن اشياء لم اخبرها، ولم يحدثني بها أحد، فها أنذا متحدث عن امور لا وجود لها بأي شكل من الأشكال، ولا يمكنها أن توجد بأي حال من الأحوال. وهكذا فأنا ارجو بكل تواضع من قرائي الا يصدقوني!!..

هذه الرواية العجيبة التي تحدث فيها لوقا عن رحلة إلى البحر المحيط، رحلة لقي فيها طائر الأليسون الذي سيعرفه العرب باسم الرخ وبيضته العملاقة والتي من ذاق من فرخها لقمة اسود شعره الشائب وعاد إليه الشباب، ولقي فيها الحوت الذي يسع بطنه سكان مدينة يعيشون ويتناسلون ويعمرون ولا يشعر بهم الحوت، لقي الحورية - الجنية - الإلهة مغرية العشاق حتى السكر ثم مسخهم إلى بغال وحمير

أو أكل لحمهم ونثر عظمهم، ولكن الجزء الأهم من روايته هو رحلته إلى السماء حيث يلقى الآلهة والفلاسفة والشعراء، فيجادلهم، ويناقشهم، ويحاججهم، ويعارض بعضهم بالبعض الآخر، فينتصر للبعض، ويكذب البعض إلى آخر ما خطر لهذا الكاتب من سخريات.

هذا الكتاب كان المعين - برأي كثير من النقاد - الذي استقى منه (جوناثان سويفت) رحلة غوليفر، و(رابليه) رحلة بانتا غرويل وغارغانتوا، و(دانتي) في كوميدياه الإلهية، بل ورأى بعض النقاد العرب أيضاً أنه كان المعين الذي استقى منه أبو العلاء رسالة غفرانه، وهو رأي لا أقبله ولا أرفضه.

لوقا السميساطي كذب وقال إنه كاذب، ولكن كذبه الجميل أثر في أجيال وأجيال من الكتاب الذين تلوه، وهانحن وأسفاه نعايش كتاباً يكذبون دون أن يقولوا إنهم يكذبون، يتحدثون عن خرافات أكبر من بيضة الرخ، ويصفون جناناً أخضر من جنان بطن الحوت، ليس هذا فحسب، بل يبشروننا بأن الذئب لم يعد ذئباً، وأن بإمكان الحمل أن يناطحه مداعباً دون خوف من انتقام، وأن الحية قد رمت أنيابها المسممة، وصار بإمكان العصفور أن يداعب قرونها الخفية، يبشروننا بشرق أوسط بلا قوميات ولا ديانات ولا انتقامات ولا مرارات، يعدوننا بيوم هو أقرب إلى يوم الوعد السماوي بالجنة الخالدة، يكذبون ويكذبون ويعرفون بأنهم يكذبون، ومع ذلك فهم لا يجرؤن على قول ما قاله لوقا السميساطي: أنا أرجو من قرائي بكل تواضع الا يصدقوني...

في أواخر القرن الخامس عشر، ومع انهيار آخر حصون الدولة العربية في الأندلس، ومع سقوط غرناطة وتحلل دولة الحفصيين في تونس بدا للانتقاميين الأسبان أن الثأر من العرب لا يكفي بطردهم من الأندلس، بل لابد من ملاحقتهم حتى الشمال الإفريقي وهكذا امتد الاحتلال الإسباني إلى ما يسمى حالياً بالجزائر وتونس وبعض من المغرب.

وكانت الدولة العثمانية مستمتعة بفتوحاتها في البلقان وأوروبا وغير مكترثة حقاً بما يجري للعرب والمسلمين في شمال أفريقيا، وهكذا قفز إلى الساحة مغامرون ومدافعون ركبوا البحر وأخذوا في ضرب المحتل الأسباني والبرتغالي، وطرده من البر العربي ولم يكتفوا بهذا بل قرروا ملاحقته في البحر وتحويل رحلات نهبه لأمريكا الجديدة وشواطئ أفريقيا الغربية إلى كابوس.

هؤلاء المحاربون الفدائيون الذين حموا الشرف العربي في حينه اسماهم الغرب في أدبياته، وتابعناه في حماقاتنا، أسماهم بالقراصنة علماً بأن القرصنة مهنة لم تكن أصلاً للعرب كما لم تكن الكلمة نفسها ذات صلة بالعربية فهي مستعارة من الفرنسية والإيطالية العامية كورسير وكورسارو.. الخ.

على رأس هؤلاء المحاربين سيتقدم لنا دائماً اسماء محاربين عظيمين دوخا الأساطيل الأوروبية حتى المتحالفة منها مع الإمبراطور ومع البابا، على رأس هؤلاء المحاربين، كان الأخوان باربا روس عروج وخير الدين، واللذين جعلا من جزيرة جربا التونسية قاعدة لهما انهكا منها الأساطيل الأوروبية، وفرضا الإتاوات والجزيات، وحررا الأسرى

العرب والمسلمين، فأغاروا على إسبانيا وإيطاليا وفرنسا ونهبوا الموانئ واسروا الآلاف وما هي إلا سنوات قلائل حتى وحدا الشاطئ الشمالي لافريقيا وجعلا منه حصناً منيعاً ومقاوماً للغزو الأوروبي.

في العام 1518 استشهد القبطان عروج المسمى بباربا روسا أي ذي اللحية الحمراء. وهكذا حل محله ذلك الشخص الأسطوري الذي خلد اسم باربا روسا وكان اسمه خير الدين.

بدأ خير الدين دولته بلعبة سياسية أعلن فيها ولاءه للعثمانيين وهكذا حصل خير الدين باربا روسا على لقب باي، وعلى وضع شرعي انطلق من خلاله للانتقام من الاسبان ممثلين بالإمبراطور كارل الخامس، والذي فعل كل شيء للحد من هجماتهم، فأقام تحالفات مع البابا ومع هولنده، ومع البرتغال، ومع الإنكليز، ولكنه كان دائماً يمنى بالهزيمة الساحقة.

في العام 1504 كانت سفينتان تابعتان للبابا، وتظنان نفسيهما عصيتين على القراصنة والمعتدين وكانتا تحملان حمولة ثمينة ولكنهما ما إن عبرتا جزيرة إلبا حتى لاحظ ربان السفينة الأولى سفينة ليست الكبيرة حجماً تسير على خط مواز لسفينته وكان الجو خلواً من الرياح والبحر هادئاً حين أخذت السفينة الغريبة تقترب بجرأة وقحة جعلت القبطان لا يشك في أنها للمسلمين إذ لو كانت كذلك لتهيبت الهجوم المباشر، ولكنه بعد قليل صدم بوابل السهام والحبال ذات الخطاطيف والجنود يقفزون إلى سفينته وبعد معركة قصيرة استولى باربا روسيا على السفينة فتقدم منه مساعده وهو يعرف بوجود السفينة الأخرى فسأله: وماذا نفعل الآن؟ قال: سنستولي على السفينة الأخرى. كيف.. وأمر باربا روسا البحارة والجنود الإيطاليين بخلع ثيابهم ثم ألبسهم لجنوده واقترب من السفينة الأخرى يرفع راية البابوية، وهكذا اقترب من السفينة الأخرى التي ظنت السفينة المقطورة غنيمة، وما إن تلاصقت السفينتان حتى كان نصيب الثانية كنصيب الأولى.

بهذا الذكاء وهذه الجرأة بنى باربا روسا اسمه ومجده وأسرته الحاكمة إلى أن وصل الحكم إلى واحد من أهم أتباع باربا روسا وكان اسمه دراجوت وذلك في خمسينات القرن السادس عشر وكانت أوروبا بأساطيلها وتحالفاتها تريد القضاء على الأسطول العربي بأي ثمن فشكلت أسطولاً هائلاً سلمت قيادته إلى الجنوي أندريا دوريا والذي لاحق دراجوت حتى جزيرة جربا معقل الأسطول العربي وكان باربا روسا فيما مضى قد هيأ فيها معقلاً وكميناً إذ حفر في الجزيرة بحيرة شق منها قناة إلى البحر حتى إذا ما ضايقته الأساطيل المعادية لجأ إلى هذه البحيرة التي حيرت الأوروبيين طويلاً، فكيف يختفي الأسطول فجأة، ولكن أسيراً أفشى سر البحيرة لدوريا فقام بسد القناة بأساطيله عند البحر ينتظر خروج دراجوت ولكن الأسابيع سرت وتلتها الشهور والأسطول لا يخرج إلى البحر عند ذلك قرر الجنوي أندريا دوريا ملاحقته حتى البحيرة، فأمر بعضاً من سفنه بعبور القناة واستكشاف ما يفعل دراجوت، ولكن المفاجأة كانت في أن السفن عبرت القناة وليس من يطلق عليها قذيفة حتى إذا ما وصلوا البحيرة لم يجدوا الأسطول، ولم يجدوا دراجوت الماكر والذي حيث اكتشف صعوبة اختراق الحصار الأوروبي عمد إلى تكليف أسراه من الأسبان بحفر قناة جديدة تمد البحيرة حتى البحر من الجهة الأخرى، وهكذا حطم الحصار، واستعاد سيطرته على البحر وإكمال رحلته الطويلة في الانتقام ممن طردوا أهله من أندلسهم، استطاع إكمال رحلته في تحرير شواطئ تونس والجزائر، وإقامة دولة عاشت لعدة قرون، والآن ونحن نرى هذا الحصار الخانق ضد أهلنا في فلسطين الداخل، وفلسطين الاحتلال وفلسطين المنفى والملاجئ ألا يحق لنا أن نحلم بدراجوت جديد يشق قناة جديدة إلى البحر ترفع الحصار عن أهلنا وتعيد الأمل لأولئك الذين حلموا ويحلمون وسيظلون يحلمون بالتحرير.

ويبدو الأمر لطول المعاشرة وكأن جذوة الحب انطفأت، وأن تلك اللهفة القديمة اختفت، ولكن شرارة واحدة تنطلق، مرضاً غير متوقع يضعك أمام الأمر الواقع، يكشف لك أن كل الترسبات التي كانت تكمن لمعان الجمرة القديمة ما هي إلا رماد كل ما يحتاج إليه نفخة، نفخة فقط وتنطلق الجمرة حمراء ملتهبة متوهجة.

ولكن آه وأسفاه، إنك لا تكتشف كم تحب هذا الإنسان الذي عايشته وعامرته طويلاً إلا لحظة خوف الفقد.

ترى، أهو قدر الإنسان ألا يعرف قيمة ما يملك إلا ساعة خوف الفقد.

آه يا لتلك الذكريات القديمة الجميلة، مشاوير الأمسيات، الهمسات الأولى، احمرار الخدود، رائحة الحب العابق.

الشجارات الصغيرة. ملح الحياة. حول صنع القهوة وإحسانها، الخلافات الصغيرة حول من يسقي نباتات الزينة ومن يهملها حتى تذوي.

وتسمع صرخات أطفالك من حولك، وتحس الغصة كبيرة كبيرة تتمدد وتتمدد حتى تحس الصدر يكاد يتمزق والقلب يكاد يختنق لماذا؟ لماذا أنا بالذات من دون الخلق أجمعين؟.

وتنتشر أنانية واسعة تنتشر حتى تغطي القلب والفؤاد وتنظر إلى النساء والرجال والأطفال من حولك وترى السعادة والفرح وحب الحياة على وجوههم وينفجر السؤال قوياً عميقاً حاداً مخيفاً، لكن لماذا؟ ولم أنا بالذات، ولِمَ لَمْ يصب المرض إلا الإنسان الذي أحب.

وتقفز صغيرتك طفلة لاهية لا تحس المصيبة التي يمكن أن تقع وتحس أنك يجب أن تحذرها، ولكن كبلاً معيقاً يمسك لسانك فجأة: لا تسرق طفولتها. دعها لأفراحها وطفولتها. ستعيش وتكبر، وستنال من الأحزان حصتها، فلم تفرض عليها أن تشاركك أحزانك، وأنت الذي عرفت الفرح وعرفت الحزن، إن لكل عمر حصته ونصيبه أم نسيت؟.

وتتأوه في مكانها، وتمتلئ عيناك أنت الذي لم يعرف عنك ضعف او دمعة، بل كانت حياتك مشحونة بالمشاكل نظراً لحدتك وتطرفك في الحياة. تمتلئ عيناك بالدموع، وتتمنى للحظة لو استطعت نقل ألمها إليك، لو استطعت مشاركتها، مقاسمتها، حمل جزء من هذا الألم عنها. ولكنك بحزن مر تدرك انه ما من إنسان يحمل ألم إنسان آخر، وأن كلاً منا مسجون رغماً عن إرادته ضمن حدود جسده الشخصي ووجعه الجسدي الشخصي.

تحس بالألم لألمها ولكنك تدرك أن ألمك ألم نفسي، ربما كان الخوف من الوحدة، ربما كان الخوف من ضياع الرفيق، ربما كان الخوف من نسيان لحظات الحب والالفة والسعادة التي قضيتماها معاً.

وترى الدمعة في عينيك، فتفهم، وتمد يداً رقيقة حانية تمسح فيها على وجهك، تحاول أن تبعد عنك الألم.

- ما الذي يحزنك؟

وتخترع ألف سبب حتى لا تكشف السبب الحقيقي لحزنك، ولكنها بهدوء تدرك ويشرق الوجه الحبيب بفرح يغالب الألم آه أيها المرض كن عادلاً مرة واحدة، وابتعد عن طريق الذي أحب.

آه أيها الألم لا تثقل قلب الإنسان الذي أحب.

آه أيها الحزن لا تغلف قلبي فأنت تعرف أني قد نلت أكثر من نصيبي من الألم.

آه أيتها الحياة تشبثي بالكائن الذي أحب، واحتفظي به ولو لهؤلاء الأطفال الأبرياء الذين لا يعفون مكاناً للحزن بعد.

آه أيتها المرأة الرفيقة الحبيبة الصديقة الزوج، الآن فقط أدركت كم كان هذا القلب العميق مليئاً بكنوز من الحب والعرفان والود الهادئ

آه أيتها الجنة التي أخاف فقدها تريثي قليلاً، تشبثي بي، ودعينا نقتسم نسغ الحياة معاً، فلا يزال في العمر متسع، ولا يزال في القلب خفق، ولا يزال في الحنان لمسات كثيرة.

سألتني بطيبة لا تخلو من الاستفزاز: الآن وبعد أن جاوزت الخمسين، ما الذي أصبته من الكتابة في هذا العالم الثالث الذي يزداد ثالثية يوماً إثر يوم. ما الذي أصبته من الكتابة، وأنت الذي أصررت كما تقول منذ البداية على أن تقف وحيداً مكتفياً بكتابتك، أن تقف وحيداً غير مكترث بالانتساب إلى حزب، أو طائفة أو مجموعة تتبادل معها المنافع على عادتنا نحن في هذا الشرق العربي الثالثي محاول الخروج من الرحم العثماني المختنق بمشيمة الرحم المملوكي، هذا العالم الثالثي الممزق بين راحة الاستسلام إلى رخاوة الحمام التركي والاتكال على الله يحل له كل مشاكله، وبين محاولات يائسة ومضروبة ومطاردة للحاق بالعالم الذي لحق به اليابان والصين واندونيسيا و.. إلا.. ما اصطلح على تسميته بالعالم العربي والذي أخذ يناقش مرة ثانية حتى المصطلح الأسامي فيه، العالم، الوطن، العربي، الإسلامي، الـ ..الـ..

صمتت وكانت تظن أنها بصمتها ستستدرجني إلى الحديث عن السياسة وخيباتها، عن التاريخ وبصماته النارية على حياتنا، عن الكتابة وعبثيتها.

صمتت وصمتت وللمرة الأولى أخذت أفكر. فما الذي جاء بك إلى عالم الكتابة، ما الحلم الذي داعبك يوماً فجعلك تقرر التخلي عن متع الشباب وطيش المراهقة ومغامرات الصبا وتكريس نفسك عبداً مستسلماً لرب وحيد اسمه الكتابة، الثقافة، الحفر في صحراء لم تعرف السيول ولا الثورات ولا حتى ندى الصباح منذ ألف عام أسيوية، هجمت

علينا فيها الصحراء بكل جفافها وجفاف روحها ورمليتها وانغلاق روحها فانتزعتنا من العالم الكلاسيكي، ومن جنة مصالحة الحضارات الإسلامية لتدخلنا في آتون من مونغوليا وطورانيا وصحراويتها المعروفة في بداوة الدمار.

صمتت وصمتت، وأخذت أراجع النفس في قساوة أحاول أن اذكر اللحظة الأولى التي دخلت فيها أو أدخلت إلى عالم القلم، وأخذت الذكريات تتسلل.... يا إلهي.. هجمت الذاكرة فجأة، لاكتشف أني لم أختر هذا القدر، بل اختير لي، واختير بقسوة.

أذكر أول يوم حملت فيه إلى ما يشبه الروضة أو الحضانة في حياتنا المعاصرة، وكان اسمها الخجا، بيت شامي وباحة وامرأة كهلة ملفوفة بمنديل أبيض يغطي الرأس حتى الخصر وأطفال في الثالثة أو الرابعة والأم تسلمني يدها إلى الخجا وتقف بعيداً ترى موقفي من هذا العالم الجديد والحمد تشير اليها بالمضي فتمضي، وتبدأ مرحلة جديدة.

في اليوم الأول أعطى هذه الخجا سرقي من احد الأولاد (قلم لوح، وهو نوع رخيص جداً من الأقلام مصنوع من مادة طبشورية يخط به على لوح من الأردواز كان أسعد، واشتكى الولد الى الخجا، وغضبت الخجا وقامت بالتفتيش لأول مرة، حياتي والدي سينكرر كثيراً في مستقبل الأيام إذ سأطل سنكوكا على كمواطن عربي ربما الى أن أموت.

لم تجد الخجا القلم ولم تعرف سارقه ولكنها لم تستسلم إذ وقفت فجأة في جلال وأعلنت أنها ستعرف السارق، ولن يستطيع الهرب بفعلته، كيف.. ستطعمنا جميعاً غداً لقمة الزقوم، والسارق إذا لم يعد القلم قبل تناوله لقمة الزقوم وتناولها، فسيموت فوراً، وسيمضي إلى الجحيم.

سألت همساً عن لقمة الزقوم فحدثوني عن رغيف تقرأ عليه آيات سحرية تحيله إلى جهاز لكشف الكذب، ولكنه جهاز يقوم بعدة مهام في وقت واحد. فهو يكشف الكاذب ويحاكمه ويعدمه فوراً.

فيما بعد سأسأل عن شجرة الزقوم وسيحدثونني عن شجرة مذكورة في القرآن، شجرة (طلعها كرؤوس الشياطين).

عدت إلى البيت، أصبت بالحمى فوراً، حمى لم أفق منها إلا بعد ثلاثة شهور، كانت أمي قد استدعت فيها الأطباء والمشايخ والأولياء والأقطاب فقد كانت مذعورة حتى الموت من لحاقي بإخوة ثلاثة لي كانوا قد توفوا أطفالاً.

المهم، الآن وبعد خمسين سنة حين أذكر حادثة سرقة القلم تلك لم أعد واثقاً الثقة كلها إن كنت أنا من سرق القلم أم أني لم أسرقه، ولكني واثق تماماً الآن وحين أراجع مسيرة الخمسين سنة التي مضت، واثق من أني قد أكلت من لقمة الزقوم وصرت كاتباً، وهل من عقوبة في هذا العالم الثالث على من يسرق القلم أقسى من أن يصبح كاتباً.

فهرس

التدريب على الرعب	5
التدريب على الصمود	8
التدريب الإقناع	12
الماضي السعيد النفق العثماني	16
الماضي السعيد	19
المتلاعبون بالتاريخ	22
فارس سلاحه القلم	26
الحرب ضد العمالقة	30
يوسف والمسادا	33
كارلوس الأفغاني	37
الأندلس 1492	40
إنوار خواط المفكر	43
الأعور الدجال	47
الفداوية والأحقاد	50
هبة سليمان لحيرام	53
ايشالوم.. ايشالوم	56
جمال حمدان	60
جان جنيه	63
الحكومة الخفية	66
القصدية والوحي	69
أذان في مالطا	72
يهوذا ويسوع	74
الرجيم على الطريقة الأمريكية	77
صديقتي أميركا	80
المغولي والياقاوي	83
صباح البرقوق	86
واعظ الشيطان	89
روائي اسمه غالب	92
من يصنع الأوطان	95
طائر الوقواق	98

القط في القفص	101
المبغى	105
حكاية شرقية	108
حدبستان	112
الحديقة	116
أبو معروف	120
الأمبوبايا	123
خير الدين الأسدي	126
السعادة	129
مخلوق الدكتور فرانكنشتاين	132
عربة التفاح	135
القرنان	138
الصديقان	141
انهم يعتبون على الخيول	144
الكذاب والعجماوات	148
شيزوفرينيا	151
جوارب القراصنة	154
عالم جديد شجاع	157
بلاستيك	162
الهنود الحمر	166
ماركو بولو	169
الذكي	172
المشكل في أبو حيان	175
اللامنتمي	178
الرحلة ما قبل الأخيرة	181
الفيلم	185
الكوزمو بوليتانيون	188
الكذب الأجمل من الصدق	191
الحصار	194
الجمر القديم	197
لقمة الزقوم	200

صدر للمؤلف :

1- ملكوت البسطاء	رواية	دمشق	1975
2- طائر الأيام العجيبة	رواية	دمشق	1976
3- ليال عربية	رواية	بيروت	1980
4- المدينة الأخرى	رواية	دمشق	1985
5- التحولات - حسيبة	رواية	دمشق	1987
6- التحولات - فياض	رواية	دمشق	1989
7- الجد المحمول	مجموعة قصص	دمشق	1991
8- التحولات هشام	رواية	بيروت	1997

قيد الطبع :

الطريق إلى الجفتائي	رواية

صدر عن دار كنعان 2000 – 2001 – 2002

	عنوان الكتاب	المؤلف / المترجم
1	قضايا وشهادات / سعد الله ونوس (بحث)	مجموعة باحثين
2	الجنرال (رواية)	الان سيلتو
3	العقلانية العملية (فلسفة)	بيير بورديو
4	بابل والكتاب المقدس (تراث)	جان بوتيرو
5	الرقص مع الذئاب (سينما)	نك يانغ
6	مسرحية البحث عن السيد جلجامش (مسرح)	محمد سيف
7	السيرة المفتوحة للنصوص المغلقة ج1 (فلسفة)	خالد أغة القلعة
8	السيرة المفتوحة للنصوص المغلقة ج2 (فلسفة)	خالد أغة القلعة
9	السيرة المفتوحة للنصوص المغلقة ج3 (فلسفة)	خالد أغة القلعة
10	وعليك تتكئ الحياة (شعر)	ممدوح عدوان
11	وحوش العاطفة (شعر)	لقمان ديركي
12	بيان ضد الأبارتايد (سياسة)	د محمد حافظ يعقوب
13	القيمة والمعيار (نقد)	يوسف سامي اليوسف
14	من دولة الإكراه إلى الديمقراطية (سياسة)	عماد شعيبي
15	القلم والسيف (سياسة)	إدوارد سعيد
16	عباس كياروستامي/فاكهة السينما الممنوعة «سينما»	فجر يعقوب
17	جماليات اللفظة «نقد»	د. علي نجيب إبراهيم
18	بين الإسلام والغرب (فلسفة)	مكسيم رودنسون
19	من قريب من بعيد (فلسفة)	كلود ليفي شتراوس
20	صمود وأفول فلسطين (سياسة)	نورمان ج. فنكلستين
21	اعترافات عربي طيب (رواية)	يورام كانيوك
22	ومض الأعماق «مقالات في علم الجمال والنقد»	د.د. علي نجيب إبراهيم
23	رائحة الأنثى (رواية)	أمين الزاوي

24	مواعيد (شعر)	محمد عمارم
25	موكب البط البري (قصص قصيرة)	علي الكردي
26	ضباب البخور (قصص قصيرة)	عمار قدور
27	بؤس العالم (ثلاثة أجزاء) (علم اجتماع)	بيير بورديو
28	المرأة في الإسلام (قراءة معاصرة)	د. برهان زريق
29	الخيال والحرية	يوسف سامي اليوسف
30	شرك الدم	مصطفى الولي
31	جنجر وفريد (سينما)	فيدريكو فيلليني
32	يا... وعد على شفة مغلقة (شعر)	إسماعيل الرفاعي
33	ساعي البريد	انطونيو سكارميتا
34	اسق العطاش (شعر)	محمود كتي
35	هيروشيما (شعر)	وفيق خنصة
36	الدعابة المرة (حوارات)	محمد القيسي
37	الضفيرة والهوى (رواية)	فواز حداد
38	على غفلة من يديك (شعر)	هنادي زرقه
39	بوح في المتاح (حوارات)	إلياس شوفاني
40	النباس (قصص)	ماهر منزلجي
41	سيكولوجية الحب والعلاقات الاسرية (علم اجتماع)	سيرغي كوفالوف
42	استمرارية التاريخ (رد على نظرية نهاية التاريخ)	عمانوئيل فالبرشتاين
43	حوارات المثقفين (حوارات)	برتولد بريشت
44	الخديعة المرعبة «سياسة»	تيري ميسان
45	مقال في الرواية «نقد»	يوسف سامي اليوسف
46	اللاجئون الفلسطينيون في سورية ولبنان «إحصاء»	نبيل السهلي
47	متى يصبح الإنسان شجرة «قصص قصيرة»	ماهر منزلجي
48	باب الحيرة «رواية»	انيسة عبود
49	صفر واحد «قصص قصيرة للغاية»	رفيق علي

التدريب على الرعب

التدريب على الرعب نصوص متميزة يقدمها لنا الكاتب الروائي خيري الذهبي فيصحبنا إلى عالم مليء بالمقاربات التاريخية والمغامرات الحياتية متأملاً في قسوة وعطف مشاكلنا.. همومنا.. وانكساراتنا.

المتتبع لنصوص هذا الكاتب سيجد فيه ملامح وظلالاً لشخوص رواياته في سديمها الأول ولكنه سيجد أيضاً أن الروائي وربما على غير رغبة كبيرة منه سيدخلنا إلى مطبخه الفني.. إلى رؤياه النقدية، وإلى مشاريع أعماله الروائية التي كتبت.. وتكتب.. وربما ستكتب.

الناشر

دار كنعان
للدراسات والنشر
والخدمات الإعلامية